

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مطبوعة موجهة لطلبة السنة الأولى جذع مشترك

علوم إسلامية

السداسي الأول

مادة: فقه السيرة النبوية

إعداد: د. بلقاسم فيلاي

السنة الجامعية:

1438-1439هـ

2017-2018م

مفردات المادة

المحور الأول: حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- من الميلاد إلى البعثة

أولاً: اسم النبي -صلى الله عليه وسلم- ونسبه

أ/ اسمه: ا/ اسمه محمد، ا/ باقي الأسماء، ا/ كنيته

ب/ نسب النبي -صلى الله عليه وسلم-: ا/ أبوه، ا/ أمه

ج/ طهارة وشرف نسبه

د/ مكانة عشيرة بني هاشم بين قريش

ثانياً: مولده ونشأته

أ/ مولده

ب/ مرضعته: ا/ مرضعته ثويبة، ا/ مرضعته حليلة السعدية، ا/ حادثة شق الصدر وعودته إلى أمه

ثالثاً: أسرته وعائلته

أ/ نشأته يتيماً: ا/ وفاة أبيه، ا/ وفاة أمه، ا/ وفاة جده

ب/ زوجاته وأبناؤه

ا/ أزواجه: 1/ زواجه من خديجة، 2/ زواجه من سودة بنت زمعة وعائشة

ا/ أبناؤه

ا/ إخوته من الرضاع: 1/ إخوته من ثويبة، 2/ إخوته من حليلة السعدية، 3/ إسلام إخوته من الرضاع، 4/ الأطفال الذين كانوا في

كفالته: * -زيد بن حارثة، * -علي بن أبي طالب، * -أنس بن مالك

رابعاً: صفاته وأخلاقه

أ/ صفاته الخلقية

ب/ صفاته الخلقية: 1/ ذكائه الفطري، 2/ نشأته أمياً، 3/ بلوغه الكمال البشري، 4/ القدوة والأسوة التامة

خامسا: مشاركته مع قومه في أعباء الحياة: أ/رعيه للغنم، ب/خروجه في التجارة إلى الشام، ج/مشاركته في حلف الفضول، د/خروجه الثاني في التجارة إلى الشام، هـ/مشاركته في بناء الكعبة، و/وضعه الحجر الأسود في مكانه

سادسا: إرهابات النبوة: أ/بشارات الأنبياء والكتب بنبوته، ب/تسليم الحجر عليه، ج/تحنثه في الغار، د/عصمته من أفعال الجاهلية وعبادتهم

المحور الثاني: فقه السيرة من البعثة إلى الهجرة

المرحلة الأولى: مميزات وخصائص الدعوة السرية [1-3] من البعثة

أولا: تهيئة الرسول-صلى الله عليه وسلم- لتلقي الوحي وأول ما نزل عليه: أ/التمهيد لتلقي الوحي [الرؤيا الصادقة]، ب/تحنثه في الغار، ج/أول ما نزل عليه في الغار، د/طرق الوحي إليه-صلى الله عليه وسلم-، هـ/تنبئه في الأربعين من عمره، و/فترة الوحي ثانيا/سرية الدعوة والأتباع في هذه المرحلة: أ/التدرج والمرحلية في الدعوة، ب/مدة سرية الدعوة والأتباع،

ج/كيفية السرية: 1/في وسائل الدعوة وطرقها، 2/سرية الأتباع

د/تورية النبي-صلى الله عليه وسلم-عن الأتباع

هـ/أول الناس إسلاما

ثالثا: محتوى الدعوى ووسائلها في هذه المرحلة: أ/القرآن الكريم، ب/الصلاة

ج/وسائل التربية والتكوين في هذه المرحلة: 1/بناء العقيدة الصحيحة والسليمة، 2/سائر العبادات، د/التمايز، هـ/موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة

المرحلة الثانية: خصائص ومميزات الدعوة في هذه المرحلة [3-6] من البعثة

أولا: الجهر بالدعوة وسرية الأتباع: أ/الجهر بالدعوة، ب/الاجتماع السري بالأتباع في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ج/ما كان يجهر به في هذه المرحلة، د/طرق الدعوة ووسائلها

ثانيا: محتوى الدعوة في هذه المرحلة: أ/القرآن الكريم، ب/الصلاة، ج/ما كان يدعوا إليه في هذه المرحلة، د/دور المرأة في الدعوة في هذه المرحلة

ثالثا: موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة: أ/الصد والإعراض عن الدعوة، ب/التنكيل بالأتباع، ج/السخرية والتحقير والاستهزاء، د/التفاوض والعروض

رابعاً: طرق ووسائل حماية الدعوة ورجالها: أ/الاستفادة من قانون الحماية والجوار، ب/هجرة الحبشة الأولى، ج/هجرة الحبشة الثانية

المرحلة الثالثة: خصائص ومميزات هذه المرحلة [6-10] من البعثة

أولاً: إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- ونتائجه

أ/إسلام حمزة وعمر -رضي الله عنهما-: 1/إسلام حمزة، 2/إسلام عمر

ب/الجهر بالأتباع والخروج من دار الأرقم: 1/بلوغ المسلمين الأربعين، 2/الخروج من دار الأرقم بالأتباع، 3/بدأ مرحلة جديدة من الدعوة

ج/ما كان يجهر به في هذه المرحلة: 1/الجهر بالقرآن في النوادي، 2/الجهر بالصلاة عند الكعبة، 3/ما تم تحقيقه في هذه المرحلة

ثانياً: أحداث ووقائع هذه المرحلة: أ/عزم قريش على قتل النبي -صلى الله عليه وسلم-، ب/دخول بني هاشم وبني عبد المطلب والمسلمين الشعب وفرض الحصار [7-10] من البعثة، ج/أثر الحصار، د/دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- على قريش بسبع كسبع يوسف

هـ/عام الحزن: 1/وفاة عمه، 2/وفاة خديجة

و/جرأة سفهاء قريش على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد وفاة عمه

ثالثاً: موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة: أ/شدة الأذى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخروجه للطائف

ب/تشديد الأذى بالمسلمين خارج الشعب، ج/المفاوضات والإغراء، د/فرض الحصار

المرحلة الرابعة: خصائص ومميزات هذه المرحلة [10-13] من البعثة

أولاً/ظروف الدعوة في هذه المرحلة: أ/فقدان النبي -صلى الله عليه وسلم- الحماية بوفاة عمه، ب/وصول الدعوة إلى طريق مسدود، ج/عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه على القبائل، د/لجؤه إلى الطائف، هـ/موقف أهل الطائف من الدعوة، و/عودته إلى مكة في جوار المطعم بن عدي

ثانياً: أحداث وفرائض هذه المرحلة: أ/إسلام الجن، ب/رحلة الإسراء والمعراج، ج/فرض الصلوات الخمس، د/استمرار النبي -صلى الله عليه وسلم- في عرض نفسه على القبائل

ثالثاً: مقدمات الهجرة: أ/ لقاءه وفد الأوس، ب/ لقاءه وفد الخرج، ج/ بيعة العقبة الأولى، د/ بيعة العقبة الثانية، هـ/ انتشار الإسلام في المدينة، و/ بداية هجرة المسلمين إلى المدينة

المحور الثالث: مراحل الدعوة المدنية [1-11هـ]

أولاً: خصائص ومميزات المرحلة الأولى [1-2هـ]

أ/ انتشار وانتصار الإسلام في المدينة

ا/ أسباب قبول أهل المدينة للإسلام

ا/ هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة: 1/ أسباب الهجرة، 2/ الاستعداد للهجرة، 3/ أحداث يوم الهجرة، 4/ وصوله إلى المدينة

ب/ وضع قواعد بناء الدولة الإسلامية: ا/ بناء المسجد، اا/ المؤاخاة، ااا/ إصدار الوثيقة أو دستور المدينة

ج/ فريضة الجهاد

د/ تشريعات وفرائض هذه المرحلة: ا/ تشريع الأذان، اا/ إتمام الصلاة أربع ركعات، ااا/ صلاة الجمعة، اااا/ تحويل القبلة والمفاصلة والتمايز عن اليهود، ااااا/ فريضة الصيام

هـ/ غزوات وسرايا هذه المرحلة: ا/ الغزوات قبل بدر الكبرى، 1/ غزوة ودان، 2/ غزوة الأبواء، 3/ غزوة العُشيرة، 4/ غزوة بواط، 5/ غزوة بدر الأولى

اا/ السرايا قبل بدر الكبرى: 1/ سرية حمزة بن عبد المطلب، 2/ سرية عبيدة بن الحارث، 3/ سرية عبد الله بن جحش

ااا/ غزوة بدر الكبرى: 1/ تعريف بمكان الغزوة وسببها، 2/ تعداد الجيشين وعدتهم، 3/ اختيار مكان المعركة والاستعداد لها، 4/ تأييد الله تعالى للمسلمين يوم بدر، 5/ نتائج المعركة

ثانياً: خصائص ومميزات وأحداث المرحلة المدنية الثانية [2-6هـ]

أ/ موقف اليهود من الدعوة في هذه المرحلة:

ا/ نقض اليهود للصحيفة: 1/ نقض يهود بني قينقاع للعهد، 2/ نقض يهود بني النضير للعهد، 3/ قتل أعداء الدعوة من زعماء اليهود

أ/نقض يهود بني قريظة للعهد: 1/أسباب نقضهم للعهد، 2/أمر جبريل بالإسراع إلى بني قريظة، 3/فرض الحصار على بني قريظة، 4/نزولهم على حكم سعد بن معاذ

ب/الغزوات والسرايا في هذه المرحلة قبل غزوة أحد: 1/غزوة الكُرز، 2/غزوة بني سليم، 3/غزوة السويق، 4/غزوة غطفان أو ذي أمر، 5/غزوة بجران، 6/سرية زيد بن حارثة

ج/غزوة أحد: أ/مكان المعركة وسببها، ب/تعداد الجيشين، ج/أحداث المعركة، د/نتائج المعركة

د/الغزوات بين أحد و صلح الحديبية:

أ/غزوتي الرجيع وبئر معونة: 1/غزوة الرجيع، 2/غزوة بئر معونة

ب/غزوة الخندق [الأحزاب]: 1/اسم الغزوة وسببها، 2/تعداد الجيوش وعدتها، 3/وقائع وأحداث الغزوة، 4/نتائج الغزوة

ج/غزوات ذات الرقاع وبني المصطلق وأمنار: 1/غزو ذات الرقاع، 2/غزوة بني المصطلق، 3/غزوة أمنار

د/صلح الحديبية 6هـ: 1/خروج النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى عمرة الحديبية، 2/بيعة الرضوان، 3/المفاوضات والصلح، 4/نتائج الصلح

و/تشريعات وفرائض هذه المرحلة: أ/تشريع الزكاة، ب/صلاة العيدين، ج/فرض الحجاب، د/تشريع صلاة الخوف

ثالثا: خصائص ومميزات وأحداث المرحلة المدنية الثالثة [6-8هـ]

أ/الغزوات والسرايا بين صلح الحديبية وفتح مكة: أ/سرية الحرة لملاحقة عُكْل و عُرَيْنة، ب/غزوة ذات القَرْد، ج/سرية زيد بن حارثة

د/غزوة مؤتة: 1/مكان الغزوة وسببها، 2/عدة الجيش وأمرائه، 3/أحداث المعركة، 4/سرية أسامة بن زيد

ب/غزوة الفتح 8هـ: أ/سبب الغزوة وتاريخها، ب/كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش، ج/خروج أبو سفيان إلى المدينة لتجديد

الصلح، 4/أحداث غزوة الفتح ونتائجها: 1/أحداث الغزوة، 2/نتائجها

ج/تصفية الوجود اليهودي بالمدينة [غزوة خيبر 6هـ]: أ/مكان الغزوة وتخطيطها، ب/أحداث الغزوة ونتائجها: 1/أحداث الغزوة، 2/نتائج المعركة

د/تشريعات المرحلة [عمرة القضاء]

د/تشريعات المرحلة [عمرة القضاء]

رابعا: خصائص ومميزات وأحداث المرحلة المدنية الرابعة [8-11هـ]

قائمة مصادر ومراجع مقياس الفقه الحركي السيرة النبوية بمكتبة أحمد عروة بجامعة الأمير عبد القادر

ملاحظة	عنوان الكتاب	اسم المؤلف	المكتبة والرقم
	بناء المجتمع في عصر النبوة	محمد توفيق رمضان	52/8/218
	لمحات حول قضايا السيرة	محمد أمين محمود	101/0/219
	السيرة النبوية الصحيحة	أكرم ضياء العمري	105/0/219
	أطلس السيرة النبوية	شوقي أبو خليل	125/0/219
	فقه السيرة النبوية	محمد سعيد رمضان البوطي	14/0/219
	السيرة النبوية	ابن جرير الطبري	146/0/219
	معارف من السيرة	مصطفى الصاوي	147/0/219
	صحيح السيرة النبوية	إبراهيم العلي	153/0/219
	وقفات مع السيرة النبوية	أحمد فريد	156/0/219
	السيرة النبوية	ابن خلدون	159/0/219
	السيرة النبوية العطرة	محمد إبراهيم شقرة	160/0/219
	السيرة النبوية	صالح أحمد الشامي	166/0/219
	السيرة النبوية	أحمد بن زيني دحلان	174/0/219
	منهاج المؤلفين في السيرة النبوية	سعد المرصفي	177/0/219
	هدى السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي	حنان اللحام	181/0/219
	صفوة السيرة النبوية	ابن كثير	183/0/219
	السيرة النبوية وقائع ودروس	أحمد عوض	184/0/219
	السيرة النبوية دروس وعبر	محمد الصلابي	196/0/219
	السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية	مهدي رزق الله	197/0/219
	السيرة النبوية	ابن كثير	2/0/219

	مهذب السيرة النبوية	إبراهيم الأبياري	20/0/219
	صحيح السيرة النبوية لابن كثير	محمد ناصر الدين الألباني	205/0/219
	دراسات في السيرة النبوية	حسين مؤنس	29/0/219
	السيرة النبوية	أبو الحسن الندوي	3/0/219
	دراسات في السيرة النبوية	محمد سرور	30/0/219
	السيرة النبوية الطباقات الكبرى	ابن سعد	35/0/219
	الروض الأنف	أبو القاسم السهيلي	5/0/219
	دراسات في السيرة النبوية	علي محمد جمار	59/0/219
	جوامع السيرة النبوية	ابن حزم	63/0/219
	السيرة النبوية	نعماني المكي	72/0/219
	موكب السيرة النبوية	محمد المختار ولد أباه	76/0/219
	السيرة النبوية	سعيد حوى	78/0/219
	فقه السيرة النبوية من زاد المعاد	خالد عبد الرحمان العك	81/0/219
	السيرة النبوية في القرآن الكريم	عبد الصبور مرزوق	82/0/219
	المستشرقون والسيرة النبوية	عماد الدين خليل	87/0/219
	فقه السيرة النبوية	عبد الحلیم الجندي	89/0/219
	السيرة النبوية	ابن هشام	9/0/219
	الرسالة الكاملة في السيرة	ابن النقيس	92/0/219
	تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد النبي-ص-	أحمد فؤاد سيد	137/0/219
	شعار من السيرة النبوية في العهد المكي	راجح عبد الحميد الكردي	4/3/219
	في موكب السيرة النبوية	محمد المختار ولد أباه	6/7/219
	أضواء على السيرة النبوية	عبد الحميد جودت السحار	42/290
	مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي	محمد حميد الله	4/2/956
	الفتوحات الإسلامية من عصر النبوة	محمد نصر مهنا	228/0/956
	موسوعة التاريخ الإسلامي عصر النبوة وما قبله	عبد الحكيم الكعبي	58/2/956

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الذي هدانا من ضلالة وعلمنا من جهالة، وخصنا بخير كتاب أنزل، وأفضل رسول أرسل، اللهم صلي وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك النبي الأمي الأمين المبعوث رحمة للعالمين ومعلما للأمة، وجعل سنته هادية للناس أجمعين، وسيرته سراجاً منيراً، وبعد:

هذه مذكرة في الفقه الحركي للسيرة النبوية، أعددتها للسنة الأولى جذع مشترك تخصص علوم إسلامية، وقد قسمت الموضوع إلى محاور، المحور الأول عالج فيه حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- من الميلاد إلى البعثة، والمحور الثاني عالج فيه الفقه الحركي للسيرة المكية كلها، وقسمتها إلى مراحل وفق الخطوات والمنهج الذي تحرك به النبي -صلى الله عليه وسلم- في ميدان الدعوة، وذلك بناء على أحداث هامة كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينهي بها مرحلة من الدعوة ليبدأ مرحلة جديدة، فكانت حادثة الجهر بالدعوة مثلاً نقلاً للدعوة من المرحلة السرية إلى مرحلة جديدة، تغيرت فيها وسائل الدعوة السابقة واستعمل فيها أساليب وطرق جديدة لم تكن معهودة في المرحلة السرية السابقة، كما استمرت في هذه المرحلة أساليب سابقة كاحتفاظ بسرية الأتباع وعدم الجهر بهم، فتميزت بذلك المرحلة السابقة عن اللاحقة، فسميت المرحلة الأولى مرحلة سرية الدعوة والأتباع من السنة الأولى من البعثة إلى غاية السنة الثالثة، والمرحلة الثانية من أمر الله له بالجهر إلى ما قبل إسلام عمر بن الخطاب، أي من السنة الثالثة إلى السنة السادسة من الدعوة، وبنفس الطريقة تعاملت مع باقي المراحل، فجعلت المرحلة المكية الثالثة من إسلام عمر إلى وفاة عمه أبي طالب من السنة السادسة من البعثة إلى السنة العاشرة، والمرحلة الرابعة من بعد وفاة عمه إلى مقدمات الهجرة، من السنة العاشرة إلى السنة الثالثة عشر من الدعوة، أما السيرة المدنية فاعتمدت فيها نفس معايير التقسيم السابقة، فقسمتها إلى أربعة مراحل، المرحلة الأولى من الهجرة النبوية إلى غزوة بدر الكبرى، من السنة الأولى إلى السنة الثانية من الهجرة، أما المرحلة الثانية فجعلتها من بعد غزوة بدر إلى صلح الحديبية، من السنة الثانية إلى السنة السادسة من الهجرة، أما المرحلة الثالثة فجعلتها من ما بعد صلح الحديبية إلى فتح مكة، من السنة السادسة إلى السنة الثامنة من الهجرة، أما المرحلة الرابعة فجعلتها من ما بعد فتح مكة إلى وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أما المصادر والمراجع التي اعتمدها، فإني قدمت كل ما جاء في رواية صحيح البخاري عن غيره، ثم سائر ما ورد في كتب السنن الأخرى، وما ورد في القرآن الكريم وتفسيره من بعض الآيات المتعلقة بأحداث السيرة النبوية الكبرى، ثم شروح كتب الحديث وعلى رأسها فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ثم سائر الشروح، ثم ما ورد في كتب السيرة النبوية الأصلية، وبعض المراجع الحديثة في الفقه الحركي للسيرة النبوية.

فإن أصبنا في بعض ما كتبنا فبفضل الله تعالى وتوفيقه، ونسأله تعالى أن لا يجرمنا الأجر من عنده، وإن أخطأنا فذلك من مما سولت به أنفسنا والشيطان، ونسأله تعالى العفو عن الزلات، كما أطلب من كل من وقعت بيده هذه الورقات أن لا ييخل علينا

بما يبصره به الله من ملاحظات وإشارات وتصويبات، والله تعالى وحده الكمال في كتابه الذي عصمه من الخطأ والنسيان، والله من وراء القصد وهو المستعان ومنه وحده التوفيق والسداد والهداية إلى سبيل الرشاد.

المحور الأول: حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- من الميلاد إلى البعثة

أولاً: اسم النبي -صلى الله عليه وسلم- ونسبه:

أ/ اسمه: جاء في شرح السنة هو أبو القاسم محمد بن عبد الله (ابن عبد المطلب) واسمه شيبه الحمد وكنيته أبو الحارث (ابن هاشم) لأنه أول من هشم الثريد لقومه في الجذب واسمه عمرو (ابن عبد مناف) واسمه المغيرة وكنيته أبو عبد شمس (ابن قُصَي) أي بعد عن قومه في بلاد قضاة مع أمه واسمه مجمع أو زيد (ابن كلاب) لقب به لصيده كثيرا واسمه حكيم أو حكيمة أو عروة وكنيته أبو زهرة (ابن مِرة) كنيته أبو يقظة (بن كعب) وهو أول من قال أما بعد وأول من جمع يوم العروبة (ابن لُؤي بن غالب) كنيته أبو تيم (ابن فِهر) واسمه قريش وإليه تنسب قريش فما فوقه كناني (ابن مالك) ويكنى أبا الحارث (ابن النَّضْر) لقب به لنضارة وجهه واسمه قيس (ابن كنانة) لأنه كان سترًا على قومه كالكنانة أي الجعبة الساترة للسهم (ابن خزيمة) ويكنى أبا أسد (ابن مُدْرِكَة) اسمه عمرو وكنيته أبو هزبل (ابن إلياس) كنيته أبا عمرو (ابن مُضَر) اسمه عمرو (ابن نزار) من النزر القليل وكنيته أبو إياد (ابن معد بن عدنان)، إلى هنا يتوقف نسبه المعلوم الصحة المتفق عليه وفيما بعده إلى آدم خلاف كثير¹، إلى عدنان هو النسب الصحيح الذي لا اختلاف فيه بين العلماء بالأنساب، وإلى عدنان كان يعدُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم²، ولا يصح حفظ النسب فوق عدنان³، ثم يُرفع حتى ينتهي إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم⁴.

ب/ نسب النبي -صلى الله عليه وسلم-

أ/ أبوه: كان لعبد المطلب -سيد قريش- عشرة أبناء أصغرهم عبد الله⁵، ولما أراد حفر بئر زمزم للرؤيا التي رآها، اعترضته قريش وحالوا بينه وبين ما أراد، فندر لئن وُلد له عشرة من الولد ثم يبلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم قربانا عند الكعبة، فلما كملوا عشرة أقرع بينهم أيهم ينحروا، فطارت القرعة على ابنه عبد الله، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب، وتخير في شأنه ومنعه قومه من ذلك، وأفدوه بعشرة من الإبل في كل مرة حتى بلغت مائة، ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل، فنحروا عبد المطلب⁶، ونجى بذلك ابنه عبد الله من الذبح.

¹ -الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي: التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي -الرياض، ط3، 1408هـ/1988م، [ج1/760]

² -محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاريُّ البُرِّيِّ التَّمَسائِيُّ: الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة، ص9

³ -أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، دار الشروق جدة، ط، 1403هـ/1983م، ص87، وأكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان الرياض، ط7،

1428هـ/2007م، ص90-91

⁴ -شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح: محمد بن عيادي بن عبد المنعم، مكتبة الصفا القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م، ج1، ص25

⁵ -أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، ص86

⁶ -ابن خلدون: السيرة النبوية، تح: أحمد البزرة، مكتبة المعارف الرياض، ط1، 1418هـ، 1998م، ص69، وأكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص92

11/أمه: تزوج عبد الله من آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب¹ سيد بني زهرة، زوجه أبوه إياها، وهي أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا².

11/عمومة رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلغ عدد أعمامه -صلى الله عليه وسلم- من الذكور عشرة، أكبرهم الحارث وبه يكنى عبد المطلب، وأبو طالب عبد مناف وهو الذي كان يحمي وينصر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والزبير وضرار والمقوم وأبو لهب عبد العزي، وجحل أو حجل ويلقب بالغيداق لكثرة خيره وغيرهم، أسلم منهم اثنان: حمزة والعباس، أما عماته فبلغ عددهن ستة وهن: عاتكة وأميمة وأم حكيم البيضاء وبزة وصفية وأروى بنات عبد المطلب³.

1/أشهر أعمامه من الذكور:

* /حمزة بن عبد المطلب: أمه هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة بنت عم آمنة بنت وهب ابن عبد مناف أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله كُنتان: أبو يعلى وأبو عُمارة، وأم عُمارة زوجه امرأة من بني النجار من الأنصار وليس له عقب، وكان له من البنات أم أبيها واسمها أميمة، وأم الفضل، فأما أم أبيها فأُمُّها زينب بنت عُميس الخثعمية، تزوجها عمر بن أبي سلمة المخزومي ربيب النبي عليه السلام، وأما أم الفضل فروى عنها عبد الله بن شداد⁴، أسلم رضي الله عنه قبل عمر، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار الأرقم المخزومي عند الصفا، وكان سبب إسلام حمزة أنفة وغضبا حين تعدى أبو جهل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند الصفا، فأخبرته جارية مولاة عبد الله بن جُدعان بذلك عند عودته من الصيد، فرفع قوسه وضرب به بها أبو جهل وشجّه وقال: أتشتمه! وأنا على دينه أقول ما يقول، فردّ عليّ ذلك إن استطعت، وهاجر حمزة إلى المدينة قبل هجرة النبي عليه السلام وشهد بدرًا، وهو أخ النبي -صلى الله عليه وسلم- من الرضاع، أرضعته وإياه تُوِيمة مولاة أبي لهب وأبا سلمة بن عبد الأسد⁵، واستشهد سيد الشهداء حمزة -رضي الله عنه- يوم أحد قتله وحشي بن حرب غلام جُبَيْر بن مُطعم، ودُفن رضي الله عنه بأحد وكفنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بُردِه ولم يُغسله⁶.

* /العباس بن عبد المطلب: كان أسنَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين، وأمُّه امرأة من النَّمِرِ بن قاسط، وهي ثُثَيْلة بنت جناب بن حبيب بن مالك بن عمرو بن عامر الضَّحَّيَّان الأصغر بن زيد مناة بن عامر الضَّحَّيَّان الأكبر بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النَّمِرِ بن قاسط، وهي أول عربية كست البيت الحرام الحرير والدَّبَّيَّاج وغيره؛ وذلك أن ابنها العباس ضاع منها في صغره فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت الحرام وفعلت، وكان العباس جميلا أبيضًا بضًا ذا ضفيريّتين معتدل القامة، وقيل: كان طويلًا، وكان جوادا مطعما واصلا لرحمه، ذا رأي حسن ترأس قومه في الجاهلية، وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية في الجاهلية، فإنه كان لا يدع أحدا يستبُّ في المسجد الحرام، ولا يقول فيه هُجرا، يحملهم على عمارته في الخير، وكان قومه أعوانا له عليه وسلّموا ذلك إليه، وكان ينصر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد أبي طالب، وشهد بيعة العقبة مع الأنصار السَّبْعين ليشدَّ العقد للنبي عليه السلام عليهم قبل إسلامه، أسلم قبل فتح خيبر، وقيل قبل بدر وذكر أهل المغازي أنه قال لرسول الله صلى

¹ - أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، ص 86

² - المصدر نفسه، ص 86

³ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 103-10، ومحمد بن أبي بكر التَّمَسَّيُّ: الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة (ج 2/ 49)

⁴ - محمد بن أبي بكر التَّمَسَّيُّ: المصدر نفيه، ص 579

⁵ - المصدر نفسه، ص 576

⁶ - المصدر نفسه (ج 2/ 8)

الله عليه وسلم لما أُسِرَ ببدر: يا رسول الله إني مسلم وإني أُخْرِجْتُ كَرَهَا، فقال له: "الله أعلم بإسلامك وأما ظاهر أمرك فعلينا"¹، وكان مقيماً بمكة من أجل السقاية بإذن النبي صلى الله عليه وسلم له في ذلك، وكان يفرح بأخبار الفتح على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين، ويكتب بأخبار المشركين إليه، وكان يتقي به المسلمون هناك وهو يكتُم إسلامه، وأُسر العباس يوم بدر ففدى نفسه وفدى نوفلاً وعقيلاً ابني أخويه الحارث وأبي طالب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظّم العباس ويحمله ويقول "هذا عمي وصنو أبي"²، وقال فيه أيضاً "هذا عمي العباس أجد قريش كفا وأوصلها"، وكان عمر وعثمان رضي الله عنهما إذا لقياهما راكباً نزلًا ويقولان: عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ابن شهاب: كان أصحاب النبي عليه السلام يعرفون للعباس فضله ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه، واستسقى به عمر زمن الرمادة في السنة 17هـ، ومات قبل استشهاد عثمان -رضي الله عنه- بسنتين، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل: ابن تسع وثمانين في 12 رجب 33هـ، وقيل: رمضان سنة 32هـ³، وصلى عليه عثمان ودُفن بالبقيع، ومن أشهر أبنائه الفضل الرِّدْفَ وبه يُكنى، وعبد الله الحَبْر، وعبيد الله الجواد، وقُتِّم الشهيد بسمرقند، وعبد الرحمن، ومعبداً، وأُمُّهُمُ أُمُّ الفضل لبابة الكبرى الهلالية من بني عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة، ويقال: أنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يزورها ويقيل عندها وروت عنه وكانت من المنجبات، ولدت للعباس ستة رجالاً لم تلد امرأة مثلهم⁴.

*/أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب: كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناصر له يغضب له، وله فيه مدائح، أكبر أولاده طالب وبه يُكنى، وعقيلاً وجعفرًا وعلياً وأمَّ هانئ اسمها هند وقيل فاختة وجُمَّانة، وأُمُّهُمُ فاطمة بنت أسد بن عبد مناف بنت عمِّ أبي طالب، وهي أول هاشمية ولدت لهاشميًّا، أسلمت وهاجرت وماتت في المدينة في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- وحضر في دفنها، ومات أبو طالب مشركاً⁵ بعد حصار الشعب.

*/أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب: يقال له أبو لهب لجماله، ويكنى أبا عتبة وكان أحول، وكانت دار النبي عليه السلام بمكة بين دار أبي لهب ودار عقبة بن أبي المعيط، فكان بين شرِّ جارين، مات بمكة بعد وقعة بدر، وولده: عتبة وعتيبة ومعتب، وبنات أمُّهم أمُّ جميل بنت حرب بن أمية حمالة الحطب، وهي أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية⁶.

*/الحارث بن عبد المطلب: هو أكبر ولد عبد المطلب، وشهد معه حفر زمزم وبه يُكنى، أولاده: أبو سفيان، ونوفل، وربيعة، وعبد شمس وأروى⁷.

¹ - أحمد بن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (241هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/2001م، (ج5/335)

² - الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي (360هـ): المعجم الكبير، (ج14/164)

³ - محمد بن أبي بكر التلمساني: الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة (2/15)

⁴ - المصدر نفسه، ص580، 581، 582، 584، 585

⁵ - المصدر نفسه، ص607، 606، 608

⁶ - المصدر نفسه، ص613

⁷ - المصدر نفسه، ص614

***عاتكة بنت عبد المطلب:** كانت عند أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وولدت له عبد الله وزهير والمهاجر، وهم إخوة أم سلمة لأبيها، وعاتكة وهي صاحبة الرؤيا في شأن بدر، قالت: رأيت راكبا أخذ صخرة من أبي قبيس، فرمى بها الركن، فتفلقت الصخرة فما بقيت دار من قريش إلا دخلتها منها كسرة، غير دور بني زهرة، وذكر عن عاتكة أنها أسلمت، وقيل: لم تُسلم.

***أميمة بنت عبد المطلب:** تزوجها جحش بن رثاب الأسدي، وهي أم زينب بنت جحش وأم إخوانها عبد الله وأبي أحمد الأعمى وعبيد الله المنتصر بأرض الحبشة.

***البيضاء بنت عبد المطلب:** تزوجها كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ولدت له أروى، وهي أم عثمان بن عفان وأم الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، وكانت البيضاء تُكْتَبُ أمَّ حَكِيم، وكان يقال لها: قبة الديباج لجمالها.

***برّة بنت عبد المطلب:** تزوجها عبد الأسد بن هلال المخزومي ولدت له أبا سلمة بن عبد الأسد زوج أم المؤمنين أم سلمة قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم تزوجت بعد عبد الأسد أبو زهم بن عبد العزى من بني عامر بن لؤي، وولدت له أبا سبرة من بني عامر بن لؤي من قريش، وهو من المهاجرين البدرين.

***صفية بنت عبد المطلب:** تزوجها الحارث بن حرب بن أمية، ثم العوّام بن خويلد، وهي أم الزبير بن العوام، أسلمت وتوفيت سنة 20هـ، وعمرها ثلاث وسبعون سنة، ودُفنت بالبقيع.

***أروى بنت عبد المطلب:** وهي أم طليب بن عمير بن وهب بن أبي كبير بن عبد بن قصي، تزوجها عمير بن وهب، فولدت له طليبا، واختلّفوا في إسلامها، وقال ابن إسحاق وغيره: لم يُسلم من عمات النبي صلى الله عليه وسلم غير صفية¹.

ج/طهارة وشرف نسبه: لما كان أنبياء الله صفوة عباده وخيرة خلقه بما كلفهم به من القيام بحقه، استخلصهم من أكرم العناصر وأمدهم بأوكد الأواصر حفظا لنسبهم من قدح وملتص بهم من جرح، لتكون النفوس لها أوطأ والقلوب لهم أصفا فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع ولأوامرهم أطوع².

فإن الله تعالى اصطفى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- نسبا³ عريقا في قومه، روى الإمام الترمذي: عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ⁴، كما روى الإمام مسلم: عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ⁵، وقد اعترف له خصمه أبو سفيان بهذه المكانة أمام هرقل، روى الإمام البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرْقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَادًّا فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِبَيْلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ

¹ - محمد بن أبي بكر التَّمَسَايُ: الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة، ص 618-619

² - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي: أعلام النبوة، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط 1، 1987، ص 215

³ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 90

⁴ - سنن الترمذي: كتاب المناقب عن رسول الله، باب: في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم-، رقم: 3538

⁵ - صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم: 4221

نسب وضيع، فإذا جاءهم من لا ينكرون شرف نسبه ولا مكانة أسرته الاجتماعية بينهم، لم يجدوا ما يقولونه عنه إلا افتراءات يتحللون بها من الاستماع لدعوته والإصغاء لكلامه¹، فالذي يجمع بين شرف النسب وشرف الفعل أكرم وأعلى مكانا وأقرب نجاحا².

ثانيا: مولد الرسول -صلى الله عليه وسلم- ونشأته

أ/مولده-صلى الله عليه وسلم-: وولد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول³، لأول عام من حادثة الفيل⁴ سنة 571م⁵، أما مولده يوم الاثنين فقد جاء في صحيح الإمام مسلم عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنْ صَوْمِ الْإِثْنَيْنِ فَقَالَ فِيهِ وُلِدْتُ وَفِيهِ أَنْزَلَ عَلَيَّ⁶، وأما مولده عام الفيل فقد ورد في سنن الترمذي: عَنْ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ بْنِ مُحَمَّدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ وُلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفِيلِ وَسَأَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ قُبَاتَ بْنِ أَشِيمَ أَخَا بَنِي يَعْمَرَ بْنِ لَيْثِ أَنَّكَ أَكْبَرُ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْبَرُ مِنِّي وَأَنَا أَقْدَمُ مِنْهُ فِي الْبَيْتِ وَوُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفِيلِ وَرَفَعَتْ بِي أُمِّي عَلَى الْمَوْضِعِ قَالَ وَرَأَيْتُ خَذَقَ الطَّيْرِ أَخْضَرَ مُجِيلاً⁷.

ب/أسماء النبي-صلى الله عليه وسلم-:

أ/تسميته محمد: لما ولدته أمه أرسلت مع ثوية⁸ مولاة أبي لهب إلى جده عبد المطلب تبشره بالمولود الذكر، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له، واختار له اسما لم يكن معروفا عند العرب وسماه محمد، وختته في اليوم السابع من عمره، ودعا إلى وليمة على عادة قومه، ورأت أمه حين وضعت نورا خرج منها أضواءت منه فصور بصرى من أرض الشام⁹.

ب/باقي الأسماء: روى البخاري عن مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَخِي وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْخُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ¹⁰، قال

¹ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص21

² - المصدر نفسه، ص22

³ - شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص28-29

⁴ - حيث حاول أبرهة الحبشي تحويل الحج إلى القليس التي ابتناها في صنعاء بعد أن أخفقت حملته العسكرية على مكة، وكان له لقاء مع عبد المطلب بن هاشم وحادثه

عندما غزا مكة، شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص27، وأكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص79، 81

⁵ - ابن خلدون: السيرة النبوية، ص81، وأبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، ص76

⁶ - صحيح مسلم: كتاب: الصيام، باب: استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، رقم: 1978

⁷ - سنن الترمذي: كتاب: المناقب عن رسول الله، باب: ما جاء في ميلاد النبي، رقم: 3552

⁸ - فتح الباري، ج9، ص47-48

⁹ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص35 أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص100-101

¹⁰ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله، رقم: 3532/3268

ابن حجر: في رواية نافع بن جبير عند ابن سعد أنه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له: أتحصي أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان جبير بن مطعم يعدها؟ قال: نعم، هي ست، فذكر الخمسة التي ذكرها محمد بن جبير وزاد الخاتم، والمراد أنه أراد أن لي خمسة أسماء أختص بها لم يسم بها أحد قبلي، وقيل: الحكمة في الاختصار على الخمسة المذكورة في هذا الحديث أنها أشهر من غيرها موجودة في الكتب القديمة وبين الأمم السالفة¹، قال عياض: حمى الله هذه الأسماء أن يسمى بها أحد قبله، وإنما تسمى بعض العرب محمدا قرب ميلاده لما سمعوا من الكهان والأخبار أن نبيا سيعث في ذلك الزمان يسمى محمدا، فرجوا أن يكونوا هم فسموا أبناءهم بذلك، وهم ستة لا سابع لهم، ومن أسمائه المشهورة: المختار والمصطفى والشفيع المشفع والصادق المصدوق، وغير ذلك قال ابن دحية في تصنيف له مفرد في الأسماء النبوية: قال بعضهم أسماء النبي صلى الله عليه وسلم عدد أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسما، وذكر أماكنها من القرآن والأخبار وضبط ألفاظها وشرح معانيها، وغالب الأسماء التي ذكرها وصف بها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد الكثير منها على سبيل التسمية².

111/كنيته: تواترت الاخبار بأن كنيته أبو القاسم³، روى البخاري عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تسموا باسمي ولا تكتنوا بكُنيتي⁴، ورواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال ولد لرجل منا غلام فسماه محمدا فقال له قومه لا ندعك تسمي باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بابنه حامله على ظهره فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ولد لي غلام فسميته محمدا فقال لي قومي لا ندعك تسمي باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسموا باسمي ولا تكتنوا بكُنيتي فإنما أنا قاسم أقسم بينكم⁵.

ج/مرضعاته:

1/مرضعته ثوية: أول من أرضعته من المرضعات - بعد أمه - ثوية مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح⁶، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي⁷، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكرم ثوية، وكانت تدخل على خديجة بعد أن تزوجها فكانت تكرمها، وأعتقها أبو لهب بعدما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فكان - صلى الله عليه وسلم - يبعث إليها من المدينة بصلة وكسوة حتى ماتت بعد فتح خيبر⁸، وقد جاءت رواية البخاري مصرحة بذلك، عن أم حبيبة بنت أبي سفيان أنها قالت يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان فقال أو تحبين ذلك فقلت نعم لست لك بمخيلة وأحب من شاركني في خير أختي فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن ذلك لا يحل لي قلت فإنما تحدث أنك تريد

¹ -فتح الباري، ج6، ص642-644

² -فتح الباري، ج6، ص642-644

³ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص31

⁴ -صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: كنية النبي، رقم: 3284

⁵ -صحيح مسلم، (ج3/1682)

⁶ -فتح الباري، ج9، ص48، وأكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص102

⁷ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص37

⁸ -محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني: الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة، ص576

أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ قُلْتُ نَعَمْ فَقَالَ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تُكُنْ رَيْبِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي إِنَّهَا لَا بِنْتُهُ أَحْيَى مِنْ الرِّضَاعَةِ أَرْضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ تُؤَيَّبُهُ فَلَا تَعْرِضْنِ عَلَيَّ بِنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ قَالَ عُرْوَةُ وَتُؤَيَّبُهُ مَوْلَاةٌ لِأَبِي هَبِّ كَانَ أَبُو هَبِّ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو هَبِّ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حَيْبَةٍ قَالَ لَهُ مَاذَا لَقِيتَ قَالَ أَبُو هَبِّ لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَبِي سُقَيْتُ فِي هَذِهِ بَعَثَاتِي تُؤَيَّبُهُ¹، قال ابن حجر: أخبرها أنها تحرم عليه من جهتين، وعلل تحريمها بكونها ربيبة وبكونها بنت أخ من الرضاعة، وثوبية ذكرها ابن منده وقال: اختلف في إسلامها، وقال أبو نعيم: لا نعلم أحداً ذكر إسلامها غيره، والذي في السير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكرمها، وكانت تدخل عليه بعدما تزوج خديجة وكان يرسل إليها الصلوة من المدينة إلى أن كان بعد فتح خيبر ماتت ومات ابنها مسروح، وذكر السهيلي أن العباس قال: لما مات أبو هب رأيت في منامي بعد حول في شر حال فقال: ما لقيت بعدكم راحة، إلا أن العذاب يخفف عني كل يوم اثنين، قال: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين، وكانت ثوبية بشرت أبا هب بمولده فأعتقها².

11/مرضعته حليلة السعدية بنت أبي ذؤيب واسمه عبد الله بن الحارث بن سعد بن بكر بن هوازن: كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر؛ لتقوى أجسامهم وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضعاء، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر - وهي حليلة بنت أبي ذؤيب³ - وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة.

ورأت حليلة من بركته صلى الله عليه وسلم ما قضت منه العجب، قال ابن إسحاق كانت حليلة تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً، قالت: فخرجت على أتان لي قمرء معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكره لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك البيت فلاخذنه، قال: لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا بركة، قالت: فذهبت إليه فأخذته وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعت في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتان وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمهم، حتى إن صواحي ليقلن لي يا ابنة أبي ذؤيب ويحك أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لمن بلى والله إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها شأنًا،

¹-صحيح البخاري: كتاب:النكاح، باب:وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، رقم:4711، 5101

²-فتح الباري، ج9، ص47-48، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص37

³-ابن خلدون: السيرة النبوية، ص81، وأكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص103

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً، قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكته فينا لما كنا نرى من بركته، فكلما أمه وقلت لها لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أحشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى رده معنا¹.

د/حادثة شق الصدر وإعادته إلى كفالة أمه وجده: بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني سعد عند مرضعته، حتى إذا كان في السنة الرابعة وقع له حادث شق صدره²، روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقه فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظفروه فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره³، كما روى الإمام أحمد: عن عتبة بن عبد السلمي أنه حدثهم أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف كان أول شأنك يا رسول الله قال كانت حاضني من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً فقلت يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا فانطلق أخي ومكثت عند بهم فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران فقال أحدهما لصاحبه أهو هو قال نعم فأقبلا بيئديني فأخذا بي فبطحاني إلى القفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقا فخرجا قلبي فشقا فخرجا من علقتي سوداوين فقال أحدهما لصاحبه ائني بماء نلج فغسلنا به جوفي ثم قال ائني بماء برد فغسلنا به قلبي ثم قال ائني بالسكينة فدارها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه حصه فحاصه وختم عليه بخاتم النبوة... فقال أحدهما لصاحبه اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يجز علي بعضهم فقال لو أن أمته وزنت به لمال بهم ثم انطلقا وتركاني وفرقت فرقا شديداً ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتني بالذي لقيته فأشفقت علي أن يكون أليس بي قالت أعيدك بالله فرحلت بعيراً لها فجعلتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي فقالت أوأديت أمانتي وذمتي وحدتتها بالذي لقيت فلم يرعها ذلك فقالت إني رأيت خرج مني نوراً أضاءت منه قصور الشام⁴، وخشيت عليه حليمة بعد هذه الحادثة وردته إلى أمه وجده، وأنهت مسؤوليتها عنه رغم حبها له وتعلقها به، وبقي عند أمه إلى أن بلغ ست سنين⁵.

ولاشك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاب مبكر للنبوة وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله تعالى، فلا يحل في قلبه شيء إلا التوحيد، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثماً ولم يسجد لصنم -صلى الله عليه وسلم-⁶.

ثالثاً: عائلته

¹ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص37

² -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص28

³ -صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله إلى السموات وفرض الصلوات، رقم: 236

⁴ -مسند الإمام أحمد: كتاب: مسند الشاميين، باب: حديث عتبة بن عبد السلمي أبي الوليد، رقم: 16990

⁵ -أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص105

⁶ -أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص104

ا/وفاة أبيه: توفي والده وهو في بطن أمه، وكانت وفاته بالمدينة غريبا وعمره خمسا وعشرين سنة¹، وترك من الميراث أم أيمن وخمسة جمال وغنما فورث عنه ذلك النبي-صلى الله عليه وسلم-².

اا/وفاة أمه: خرجت به أمه آمنة وعمره ست سنوات لزيارة أحوال أبيه بني عدي بن النجار بالمدينة ومعها خادماتها أم أيمن وعبد المطلب، وفي طريق عودتها مرضت وماتت بالأبواء بين مكة والمدينة³، فأصبح في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله ثمان سنين، فأوصى به إلى عمه أبي طالب⁴ فصار في كفالته.

ااا/وفاة جده: لما بلغ الثامنة من عمره، توفي جده عبد المطلب فقد نشأ يتيما، قال ابن كثير: وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين ثم كفله عمه أبو طالب، ولم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان إلى أن توفي أبو طالب في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة بقليل⁵.

وقد ترك اليتيم في نفس النبي-صلى الله عليه وسلم- أعمق الأثر، حيث وولد يتيم الأب، وفقد أمه في طفولته، وفي الثامنة أحس بفقدان جده، لما كان يحبوه به من العطف والرعاية⁶.

إن في تحمل آلام اليتيم أو العيش وهو في صغره، ما يجعله أكثر إحساسا بالمعاني الإنسانية النبيلة، وامتلاءً بالعواطف الرحيمة نحو اليتامى أو الفقراء أو المعذبين، وأكثر عملا لإنصاف هذه الفئات والبر بها والرحمة لها، وكل داعية يحتاج إلى أن يكون لديه رصيد كبير من العواطف الإنسانية النبيلة، التي تجعله يشعر بآلام الضعفاء والبائسين، ولا يوفر له هذا الرصيد شيء مثل أن يعاني في حياته بعض ما يعانيه أولئك المستضعفون، كاليتامى والفقراء والمساكين⁷.

ب/أسرته وأبناؤه

ا/أزواجه-صلى الله عليه وسلم-: قال ابن كثير: وقد روينا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بخمس عشرة امرأة ودخل منهن بثلاث عشرة واجتمع عنده إحدى عشرة ومات عن تسع⁸، ستا من قريش: خديجة بنت خويلد، عاشت معه أربعة

¹ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص39

² -المصدر نفسه، ج1، ص40

³ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص105

⁴ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص40

⁵ -ابن كثير: تفسير ابن كثير، دار الثقافة، الجزائر، ط1، 1990/1410، ج7، ص175

⁶ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص106

⁷ -مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص22

⁸ - ابن كثير: تفسير ابن كثير، ج5، ص289، والنووي يحيى بن شرف الدين: تهذيب السيرة النبوية، ص28

وعشرون سنة ولم يتزوج غيرها إلا بعد وفاتها، وماتت قبله في السنة العاشرة من البعثة، وسودة ابنة زمعة بن قيس القرشية العامرية، تزوجها رسول الله بمكة بعد موت خديجة ودخل عليها بما قبل دخوله على عائشة بالاتفاق وهاجرت معه، وتوفيت في آخر خلافة عمر بن الخطاب¹، وعائشة ابنة الصديق، ولم يتزوج بغيرها، توفيت في خلافة معاوية رضي الله عنه سنة 58هـ، وحفصة ابنة عمر بن الخطاب، تزوجها سنة 3هـ وماتت في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 27هـ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان وهي التي تنصّر زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة، وتوفيت سنة 44هـ، وأخرج أبو داود من حديث هشام بن عروة: ... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضل بعضنا على بعض في القسم ... ولقد قالت سودة بنت زمعة حين اسنت وخافت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله يومي لعائشة فقبل ذلك منها ففيها وأشباهها نزلت وأن امرأة خافت من بعلها نشوزا الآية²، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وهي ابنة عمته عاتكة بنت عبد المطلب، تزوجها سنة 4هـ، وتوفيت سنة 59هـ، وقيل يوم كربلاء سنة 61هـ³، وثلاثا من بني عامر بن صعصعة، وامرأتين من بني هلال بن عامر ميمونة بنت الحارث التي وهبت نفسها للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وذلك أن خطبته عليه الصلاة والسلام انتهت إليها وهي على بغيرها فقالت البعير وما عليه لله ورسوله⁴، تزوجها سنة 7هـ، وتوفيت سنة 38هـ أو 40هـ، وزينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين، تزوجها سنة 3 أو 4هـ، وماتت في حياته -صلى الله عليه وسلم-، عن الزهري قال: تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة الأنصارية، وهي أم المساكين رضي الله عنها، وهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وثوّقيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ، لم تلبث معه إلا يسيراً⁵، وكانت تحت عبد الله بن جحش، استشهد يوم أحد، فتزوجها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تسمى أم المساكين، لكثرة إطعامها المساكين، ولم تلبث عنده -صلى الله عليه وسلم- إلا يسيراً شهرين أو ثلاثة، فتوفيت -رضي الله عنها⁶، وذكر الواقدي إن عمرها كان ثلاثين سنة⁷، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات، وهي التي اختارت الدنيا، وزينب بنت جحش الأسدية ابن عمته أميمة، وهي زوجة زيد بن حارثة، وهي أول أزواجه وفاة بعده توفيت سنة 20هـ، والسبيتين صفية بنت حيي بن أخطب، أعتقها وتزوجها سنة 6هـ، وتوفيت سنة 36هـ وقيل 50هـ، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية⁸، تزوجها سنة 5هـ وتوفيت سنة 56هـ، ومارية القبطية بنت سمعون أم ولده إبراهيم، أهداها إياه المقوقس، وتوفيت سنة 16هـ⁹، أما أزواجه التي لم يدخل بهن فهما: أسماء بنت النعمان الكندية، وجد بها

¹- تحفة الأحوذى، (ج8/ 319)

²- فتح الباري، (ج9/ 313)

³- القضاعي: كتاب الأنباء، ص128-131

⁴- الملا علي القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح [ج10/ 177]

⁵- الآحاد والمثاني (ج5/ 262)

⁶- ذخيرة العقبى في شرح المجتبى، (ج15/ 182)

⁷-، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، (ج11/ 72)

⁸- المصدر نفسه، ج5، ص291

⁹- القضاعي: كتاب الأنباء، ص128-131

بياضا فردها، وعمرة بنت يزيد الكلابية من بني الجون، كانت حديثة عهد بالكفر فاستعادت منه حين دخلت عليه، فقال منع عائذ الله فردها، وقد ورد خبرها في حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهَا فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَقَدِمَتْ فَانزَلَتْ فِي أُجْمِ بَنِي سَاعِدَةَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى جَاءَهَا فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَإِذَا امْرَأَةٌ مُنَكَّسَةٌ رَأْسَهَا فَلَمَّا كَلَّمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ قَالَ قَدْ أَعَدْتُكَ مِنِّي فَقَالُوا لَهَا أَتَدْرِينَ مَنْ هَذَا فَقَالَتْ لَا فَقَالُوا هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَكَ لِيَخْطُبَكَ قَالَتْ أَنَا كُنْتُ أَشَقَى مِنْ ذَلِكَ، قال ابن حجر: وقوله صلى الله عليه وسلم (أعدتكم مني) معناه: تركتك، وتركه صلى الله عليه وسلم تزوجها، لأنها لم تعجبه إما لصورتها وإما لخلقها وإما لغير ذلك، وفيه: دليل على جواز نظر الخاطب إلى من يريد نكاحها، وفي الحديث المشهور أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من استعاذكم بالله فأعيذوه"، فلما استعاذت بالله تعالى لم يجد النبي صلى الله عليه وسلم بدا من إعادتها وتركها، ثم إذا ترك شيئا لله تعالى لا يعود فيه، والله أعلم.

وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشأ وهو نصف أوقية فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار وصفية بنت حبي فإنه اصطفاها من سبي خيبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها¹.

فينبغي أن يراعى اليسر في المهور كما هو الغالب في مهور أمهات المؤمنين، وهذا حتى يتيسر طريق الزواج أمام الشباب الذين شكل المهر عائقا حقيقيا في طريق إكمال نصف دينهم، فينبغي على أولياء البنات تيسير المهور على الشباب حتى يتيسر القضاء على عنوسة بناتهم.

1/زواجه من خديجة بنت خويلد: كانت خديجة بنت خيلىد بن أسد بن عبد العزى بن قُصي، امرأة تاجرة ذات شرف ومال، وكانت تساجر الرجال في مالها وكانت قريش تجارا، فعرضت على النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يخرج في مال لها إلى الشام ومعه غلام اسمه ميسرة، وكانت هذه بداية التعارف بينهما وقد ذهب في تجارتها مرتين² وحقق ربحا كثيرا، فرأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه -صلى الله عليه وسلم- من خلال عذبة وشمائل كريمة، فوجدت فيه ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - ثم عرضت عليه نفسها، فتزوجها وأصدقها وعمره خمس وعشرين سنة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت³، وقد روى الإمام أحمد القصة بشكل مختلف عن ابن عباس فيما يحسب حمادا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر خديجة وكان أبوها يرغب أن يزوجه فصنعت طعاما وشرابا فدعت أباه وزمرا من قريش فطعموا وشربوا حتى نملوا فقالت خديجة لأبيها إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه فزوجها إياه فحللته وألبسته حللة وكذلك كانوا يفعلون بالأبائ فلما سري عنه سكره نظر فإذا هو مخلق وعليه حللة فقال ما شأني ما هذا قالت زوجتني محمد بن عبد

¹ -المصدر نفسه، ج5، ص289

² - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص112

³ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص44-45

اللَّهُ قَالَ أَنَا أُزَوِّجُ يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ لَا لَعْمَرِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ أَمَا تَسْتَحْيِي تُرِيدُ أَنْ تُسَفِّهَ نَفْسَكَ عِنْدَ فُرَيْشٍ تُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّكَ كُنْتَ سَكْرَانَ فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى رَضِيَ¹.

وسكن مع خديجة في بيتها وفيه أنجبت له جميع أبنائه منها وفيه توفيت، ومن بيتها خرج مهاجرا إلى المدينة، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يثني عليها ويظهر محبتها، ويتأثر عند ذكرها بعد وفاتها²، وكانت لها مواقف في طمأنته في كل مراحل دعوته التي عاشتها، وهكذا ينبغي أن تكون العشرة الحسنة والطيبة، فالرجل لباس المرأة والمرأة لباس الرجل، فيستر وينصر بعضهم بعضا، ويعين ويساعد بعضهم بعضا، فهي نصف دينه ونصف رسالته ونصف دعوته، وهو نصفها الآخر الذي بنفك إلا بأجل محتوم.

2/زواجه بعد وفاة خديجة من سودة وعائشة أمهات المؤمنين: روى البخاري: عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ تُؤَفِّتُ خَدِيجَةَ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ فَلَبِثَ سِنَتَيْنِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ وَنَكَحَ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ ثُمَّ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ³، قال ابن حجر: عند مسلم من حديث الزهري عن عروة عن عائشة (وزفت إليه وهي بنت تسع ولعبتها معها ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة)، ومن طريق عبد الله بن عروة عن أبيه عن عائشة (تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني بي في شوال)، فعلى هذا فقوله: فلبث سنتين أو قريبا من ذلك، أي لم يدخل على أحد من النساء، ثم دخل على سودة بنت زمعة قبل أن يهاجر، ثم بنى بعائشة بعد أن هاجر، وقد روى أحمد والطبراني بإسناد حسن عن عائشة قالت: لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: نعم، فما عندك؟ قالت: بكر وثيب، البكر بنت أحب خلق الله إليك عائشة، والثيب سودة بنت زمعة، قال: فاذهبي فاذكريهما علي فدخلت على أبي بكر فقال: إنما هي بنت أخيه، قال: قولي له أنت أخي في الإسلام وابنتك تصلح لي فجاءه فأنكحه، ثم دخلت على سودة فقالت لها: أخبري أبي فذكرت له فزوجه، وذكر ابن إسحاق وغيره أنه دخل على سودة بمكة، قال الماوردي: الفقهاء يقولون: تزوج عائشة قبل سودة، والمحدثون يقولون: تزوج سودة قبل عائشة، وقد يجمع بينهما بأنه عقد على عائشة ولم يدخل بها ودخل بسودة، إذا ثبت أنه بنى بها في شوال من السنة الأولى من الهجرة قوي قول من قال إنه دخل بها بعد الهجرة بسبعة أشهر، وقد دخل بها بعد خديجة بثلاث سنين، وقال الدمياطي في السيرة له: ماتت خديجة في رمضان، وعقد على سودة في شوال ثم على عائشة، ودخل بسودة قبل عائشة⁴.

11/أبنائه: كل أولاده - صلى الله عليه وسلم - من خديجة سوى إبراهيم فقد ولدته مارية القبطية⁵، أنجبت له ذكراين وأربع إناث⁶، أولهم القاسم وهو أكبرهم - وبه كان يكنى - ثم زينب ثم رقية ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم عبد الله وولد له بعد مبعثه بمكة، وكان عبد الله يلقب بالطيب والظاهر، ثم وولد له إبراهيم في المدينة⁷، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدر كن الإسلام فأسلمن

¹ - مسند الإمام أحمد: كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن عباس، رقم: 2705

² - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 114

³ - صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: تزويج النبي عائشة وقدمها المدينة وبنائه بها، رقم: 3896/3607

⁴ - فتح الباري، ج 7، ص 266

⁵ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 32

⁶ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 113

⁷ - النووي يحيى بن شرف الدين: تهذيب السيرة النبوية، بيت الحكمة، الجزائر، ط 1، 2010م، ص 25

وهاجرن، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته صلى الله عليه وسلم سوى فاطمة رضي الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به،

111/ إخوته من الرضاع وأمهاته

1/ إخوته من جهة ثويبة: أول من أرضعته من المرضعات - بعد أمه - ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح¹، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي²، فهاؤلاء هم أخوته من الرضاع من ثويبة.

2/ إخوته من جهة حليلة السعدية: أخته من الرضاعة الشيماء بنت الحارث ابن عبد العزي بن رفاعة، أسلمت ووصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلة، وهي التي كانت تحضنه صلى الله عليه وسلم مع أمه وتوركه، وأخوه أيضا من الرضاعة عبد الله بن الحارث، وأخته أيضا من الرضاعة أنيسة بنت الحارث، وأبوهم الحارث بن عبد العزي بن رفاعة السعدي.

3/ إسلام أمه وإخوته من الرضاع: وأمهم صلى الله عليه وسلم من الرضاعة حليلة السعدية أسلمت وجاءت إليه وروت عنه صلى الله عليه وسلم، وروى عنها عبد الله بن جعفر، وكان له منها إخوة من الرضاع، روى أبو داود: عن عمرو بن الحارث أن عمرو بن السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ثم أقبلت أمه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه³، وروى أبو داود: قال أخبرنا عماره بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لحمًا بالجعرانة⁴ قال أبو الطفيل وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه فجلست عليه فقلت من هي فقالوا هذه أمه التي أرضعته⁵.

4/ الأطفال الذين تولى كفالتهم: تبنى زيد بن حارثة بعد أن أعتقه على إثر إيثار زيد له - صلى الله عليه وسلم - على أهله وبقائه معه، كما كفل علي بن أبي طالب ليخفف عن عمه أبي طالب⁶، كما لانسى أن خادمه هو أنس بن مالك - رضي الله عنه - وتولى ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو صغير.

رابعا/ صفاته وأخلاقه

¹ -فتح الباري، ج 9، ص 48، وأكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 102

² -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 37

³ - سنن أبو داود: كتاب الأدب: باب: في بر الوالدين، رقم: 4479

⁴ - الجعرانة: موضع معروف على مرحلة من مكة تقع في رأس وادي سرف وهي ماء بين الطائف ومكة، يعتور منها المكثون وبها مسجد، نزلها النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين، وأقام بها بضعة عشر يوما لتقسيم غنائم حنين واعتمر منها، ياقوت الحموي أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار الفكر - بيروت [ج 2/ 142]

⁵ - سنن أبو داود: كتاب الأدب: باب: في بر الوالدين، رقم: 4448

⁶ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 136

1/صفاته الخلقية: روى البخاري: عَنْ رَيْبَعَةَ بِنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَصِفُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَ رُبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقَ وَلَا آدَمَ لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ وَلَا سَبْطٍ رَجُلٌ أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَقُبُضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ قَالَ رَيْبَعَةُ فَرَأَيْتُ شَعْرًا مِنْ شَعْرِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرٌ فَسَأَلْتُ فَقِيلَ أَحْمَرٌ مِنَ الطَّيِّبِ¹، قال ابن حجر قوله: (كان ربعة) أي مربوعا ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، والمراد بالطويل البائن المفرط في الطول مع اضطراب القامة، وقوله: (أزهر اللون) أي أبيض مشرب بحمرة يخالط بياضه الحمرة، وقوله: (ليس بجعد قطط ولا سبط) والجعودة في الشعر أن لا يتكسر ولا يسترسل والسبوطه ضده، فكأنه أراد أنه وسط بينهما، ورجل أي متسرح، ... وقوله: (وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء) أي بل دون ذلك، ولا بن أبي خيثمة من طريق أبي بكر بن عياش قلت لربيعه: جالست أنسا؟ قال: نعم، وسمعته يقول: شاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين شيبة هاهنا يعني العنفة، وإسحاق بن راهويه وابن حبان والبيهقي من حديث ابن عمر: كان شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو من عشرين شعرة بيضاء في مقدمه، وفي رواية ابن عقيل أن عمر بن عبد العزيز قال لأنس: هل خضب النبي صلى الله عليه وسلم؟ فإني رأيت شعرا من شعره قد لون، فقال: إنما هذا الذي لون من الطيب الذي كان يطيب به شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذي غير لونه، ووقع في رجال مالك للدارقطني وهو في غرائب مالك عن أبي هريرة قال: لما مات النبي صلى الله عليه وسلم خضب من كان عنده شيء من شعره ليكون أبقى لها².

كما روى البخاري: عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْبُوعًا بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ لَهُ شَعْرٌ يَبْلُغُ شَحْمَةَ أُذُنِهِ رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ لَمْ أَرَ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ قَالَ يُوسُفُ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِيهِ إِلَى مَنْكِبَيْهِ³، قال ابن حجر: قوله: (بعيد ما بين المنكبين) أي عريض أعلى الظهر، وقوله: (له شعر يبلغ شحمة أذنه) إلى منكبیه، وأن المراد أن معظم شعره كان عند شحمة أذنه، وما استرسل منه متصل إلى المنكب⁴.

ومجمل ما ووصف به أنه: كان أحسن الناس وجهها، أبيض اللون بياضا مزهرا، مستدير الوجه مليحه، واسع الفم، طويل شق العينين، رَجُلٌ الشعر- بين الجعودة والسَّبَط-، يصل إلى شحمة أذنيه، أسود الشعر لم يشب إلا اليسير منه، حيث عدو عشرين شعرة موزعة في الرأس وتحت الفم والصدغين، ويميل بعض شعره إلى الحمرة من أثر الطيب، متوسط القامة متوسط الوزن، ليس بالنعيف ولا الجسيم، عريض الصدر ضخم اليدين والقدمين، مبسوط الكفين، كفاه لنتان، قليل لحم القبين، يحمل في أعلى كتفه اليسرى خاتم النبوة- وهو شعر مجتمع كالزَّر-، جميل المظهر، كامل الجسم، سليم الحواس والأعضاء، معتنيا بمظهره من النظافة وحسن الهيئة، والتطيب بالطيب، فلم ير أعداؤه في مظهره ما يعيبونه عليه، أو يلقبونه به على سبيل الانتقاص⁵، وقد نشأ قوي البنية سليم

¹ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: صفة النبي، رقم: 3283

² - فتح الباري، ج 6، ص 657، 658، 660.

³ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: صفة النبي، رقم: 3287

⁴ - فتح الباري، ج 6، ص 661-662

⁵ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 88-89

الجسم فصيح اللسان، جرى الجنان، يحسن ركوب الخيل على صغر سنه، فقد تفتحت مواهبه على صفاء الصحراء وهدوئها ونقاوة هوائها¹.

|| صفاته الخلقية: كان متواضع يقترن بالمهابة، ويتميز بالحياء المقترن بالشجاعة، والكرم الصادق البعيد عن حب الظهور، والأمانة المشهورة بين الناس، والصدق في القول والعمل، والزهد في الدنيا عند إقبالها، وعدم التطلع إليها عند إدارها، والإخلاص لله في كل ما يصدر عنه، مع فصاحة اللسان وقوة العقل وحسن الفهم، والرحمة للكبير والصغير، ولين الجانب، ورقة المشاعر، وحب الصفح والعفو عن المسيء، والبعد عن الغلظة والجفاء والقسوة، والصبر في مواطن الشدة والجرأة في قول الحق²، واستمر على أكمل الزكاء والطهارة في أخلاقه وكان يُعرف بالأمين³.

قال ابن خلدون: ومن علامات الأنبياء أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفظور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنها منافية لجللته، وقد استدللت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه⁴.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأشدهم حياءً، وأصدقهم حديثاً، أعظمهم أمانة، وأعفهم نفساً، واصلاً للرحم، وأكرمهم خيراً، وأبرهم عملاً، وأوفاهم عهداً، وأبعدهم عن الفحش والبذاءة، حتى لقبوه بالأمين⁵، لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، سيرته سراج وهاج في جميع شؤون الحياة البشرية، كأنها مرآة صافية للدنيا كلها، يرى فيها كل إنسان صورته وروحه ظاهرة وباطنة، قوله وعمله خلقه وأدبه هديه وسنته⁶.

استقامته في شبابه وحسن سيرته، يكون أدعى إلى نجاحه في دعوته وإصلاح الأخلاق ومحاربة المنكرات، إذ لا يجد في الناس من يغمزه في سلوكه الشخصي قبل قيامه بالدعوة، فلا ينبغي أن يتصدى للدعوة ذو ماض ملوث وخلق غير مستقيم، فالماضي السيئ يكون مدعاة للشك في صدقه، فالداعية المستقيم في شبابه يظل أبداً رافع الرأس ناصع الجبين، لا يجد أعداؤه سبيلاً إلى غمزه بماض قريب أو بعيد، ولا يتخذون من هذا الماضي المنحرف للتشهير به والاستخفاف بشأنه⁷.

¹ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، ص 19

² - أكرم ضياء العمري: المصدر السابق، ص 89

³ - ابن كثير: السيرة النبوية، ص 85

⁴ - ابن خلدون: المقدمة، ص 38

⁵ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 137

⁶ - المصدر نفسه، ص 116

⁷ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، ص 23

1/ ذكأؤه الفطري: كانت تعرف فيه النجابة من صغره، وتلوح على محياه مخايل الذكاء الذي يجيبه إلى كل من رآه، وعرف عنه رجحان العقل وأصالة الرأي، عاش في جو أقرب إلى الفطرة، وأبعد عن الحياة المعقدة، كان ذلك أدعى إلى صفاء ذهنه وقوة عقله وجسمه ونفسه وسلامة منطقته وتفكيره، فلا يصلح لمثل هذه المهمة إلا الذكي النبهي¹.

2/ نشأته أميا: كان من حكمة الله تعالى وتريبته، أن ينشأ أميا لا يقرأ ولا يكتب، فكان أبعء عن تهممة الأعداء وظنة المفترين².

3/ بلوغه الكمال البشري: لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده، تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخلق، فكان أفضل الخلق بما أحص وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس، ولم يكن في عصر الرسول وما داني طرفيه من قاره في فضله ولا داناه في كماله خلقا وخلقا وقولا وفعلا، وبذلك وصفه الله تعالى في كتابه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)}³، بل من بين الرسل جميعا، يظهر محمد-صلى الله عليه وسلم- كامل رسول، وهو من بين الرسل جميعا تصلنا دعوته مفصلة وسيرته كاملة، ولذلك فهو الذي يمكن أن يُهتدى به اهتداءً كاملا، ويقتدى بسيرته اقتداءً كاملا، لك رسول ميزة وخصيصة، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- من بين الرسل، تجمعت فيه الميزات والخصائص جميعا على كمالها وتامها، فكانت نفسه جامعة لجميع الأخلاق العالية والعادات السنينة، وقد بعث ليتم مكارم الأخلاق⁴، وتصرفه في الصغيرة والكبيرة هو الكمال المطلق⁵، وقد تبين لك أن حياته الطاهرة هي حياة العصمة من كل نقص والبريئة من كل عيب، أما أعداؤه فإنهم أفرغوا جهدهم واستنفذوا سعيهم ليقفوا على دخيلة من دخاله، وليؤاخذوه بحقيقة يعلمونها عنه، فلم يستطع أحد منهم أن يجد له ناحية ضعف ولا ما يندد به، وأقصى ما استطاع أعداؤه في كل زمان ومكان أن يقولوه عنه، إنه سل سيفه للقتال، وأنه كثير الزوجات⁶.

4/ القدوة والأسوة التامة: فهو القدوة للإنسان الذي ينشد مثالا يُقتدى به في كل عمل يقدم عليه، في غناه وفقره وفي سلمه وحره، ويتحرى السبيل الذي يسلكه إذا تزوج أو بقيا عزبا، وأتمودجا عاليا يأتى به إذا عبد ربه أو عاشر الناس، فجميع هذه الأمور ينبغي للمرء أن يتخذ لنفسه القدوة فيها، فهو في حاجة إلى المثل العليا... إن التاريخ شاهد على أنه ليس في الدنيا أحد يصح أن يكون للإنسانية أسوة من سيرته وحياته غير محمد-صلى الله عليه وسلم- وحياته، وكل مادعا إليه بلسانه قد حققه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية، فأصبحت أعماله مُثالا عليا للناس يتأسون بها، فكانت سيرته معلومة على حقيقتها في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة، لتيسير التأسى بها لجميع أمم الأرض⁷، وجعل سيرته قدوة لكل مؤمن في جميع شؤون الحياة صغيرها وكبيرها⁸، إن أعظم الناس لا يأذن لزوجهم بأن تحدث الناس عن جميع ما تراه من حليلها، وأن تعلن كل ما شاهدته من

¹ - المصدر نفسه، ص 19-22

² - أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، ص 100

³ - أعلام النبوة [ص 254]

⁴ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 102

⁵ - المصدر نفسه، ص 113

⁶ - المصدر نفسه، ص 115

⁷ - المصدر نفسه، ص 103-105

⁸ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، ص 7

أحواله، لكنه-صلى الله عليه وسلم- كانت له في وقت واحد تسع زوجات، وكانت كل منهن في إذن منه بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في خلواته، وفي ظلمة الليل، فها عرفت الدنيا مثله، يثق بنفسه هذه الثقة، ولا يخاف قالة السوء لأنه أبعد الناس عنه¹.

خامسا/ مشاركته مع قومه في أعباء الحياة

أ/رعيه الغنم: لم يكن له صلى الله عليه وسلم عمل معين في أول شبابه إلا أن الروايات تواتت أنه كان يرعى غنماً، رعاها في بني سعد، كما رعى غنم عمه أيضاً كما رعى غنماً لأهل مكة قراريط، وقد ثبت أن النبي-صلى الله عليه وسلم- كان يرعى الغنم² ويساعد عمه في رعي غنمه، قال ابن حجر: ما رواه النسائي من حديث نصر بن حزن قال "افتخر أهل الإبل وأهل الغنم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا أرى غنم أهلي بجياد"³، كما كان يرعاها بأجرة لغيره، روى البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ فَقَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ⁴.

قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقتها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقتها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجربوا كسرهما ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقتها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقتها فهي أسرع انقيادا من غيرها⁵، كما أن رعي الغنم فيه كسب شريف وتربية نفسية وترويض على العطف على الضعفاء، وسياسة للأوابد، واستنشاق للهواء النقي الصافي، وتقوية للجسم واتباع لسنة الأنبياء⁶، ومن حكمة رعي الغنم-صلى الله عليه وسلم-، أنه فيه درية له على رعاية البشر فيما بعد، فقد ألف العمل والكفاح منذ طفولته، واعتاد أن يهتم بما حوله، ويبدل العون للآخرين⁷.

ب/رحلته في التجارة مع عمه إلى الشام وعمره 12 سنة: نحض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده، وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، ولما بلغ الثانية عشر من عمره أخذه معه في تجارته إلى الشام فلما بلغ بصرى لقي الراهب⁸ المشهور عرف ببحيرا واسمه جرجيس، وقد روى الترمذي عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص114

² -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص41

³ - فتح الباري: ج4، ص516

⁴ -صحيح البخاري: كتاب: الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط، رقم: 2226/2102

⁵ -فتح الباري: ج4، ص516

⁶ -أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، ص96

⁷ -أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص115

⁸ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص42

وَحَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ قَالَ فَهُمْ يَحْلُونَ رِحَالَهُمْ فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ يَبِيدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَا عَلِمْنَاكَ فَقَالَ إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيِّ وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِحَاتِمِ النَّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ عُضْرُوفٍ كَتَبْتُهُ مِثْلَ التَّفَاحَةِ ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الْإِبِلِ قَالَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ تُظِلُّهُ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فِيءِ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ فَقَالَ انظُرُوا إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ مَا لَ عَلَيْهِ قَالَ فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ فَإِنَّ الرُّومَ إِذَا رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصَّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ... قَالَ أَبُو عَيْسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ¹.

د/رحلته التجارية الثانية إلى الشام في مال خديجة: في الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة² حتى قدم الشام.

وفي كلتا الرحلتين كان يسمع من التجار أحاديثهم، ويشاهد آثار البلاد التي مر بها، والعيادات التي كان عليها سكانها³، فتجربة السفر ومعايشة الجماهير، والتعرف على عوائد الناس وأوضاعهم ومشكلاتهم، لها الأثر الكبير في نجاح دعوته، فيجب أن يكون للداعية تجاربه في الحياة ومعرفة بشؤون الناس⁴.

كان يعتمد في معيشته على جهده الشخصي، أو مورد شريف، من غير ذلة ولا مهانة، فالشرفاء لا يقبلون أن يعيشوا من صدقات الناس وأعطياتهم، حتى تكون لهم الكرامة في نفوس قومهم، فلا يهينوا أنفسهم بمذلة السؤال، ويستطيع أن يدعوا إلى مكارم الأخلاق، ويقف في وجه الطغاة والمفسدين، ويجارب الشر والفساد، ويبعث في الأمة روح الكرامة والشرف والاستقامة⁵.

ج/مشاركته في حلف الفضول: شهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع قومه حلف الفضول وهو في العشرين من عمره، روى الإمام أحمد: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيِّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ فَمَا أَحِبُّ أَنْ لِي حُمْرُ النَّعَمِ وَإِنِّي أَنْكُتُهُ⁶، وكان الحلف بين بني هاشم وبني أمية وبني زهرة وبني مخزوم، وانعقد في دار عبد الله بن جدعان، وهو تحالف على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم، ورد الفضول على أهلها، وقد أظهر النبي -صلى الله عليه وسلم- اعتزازه بالمشاركة

¹ - سنن الترمذي: كتاب المناقب عن رسول الله، باب: ما جاء في بدأ نبوة النبي، رقم: 3553

² - ابن خلدون: السيرة النبوية، ص 84

³ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص 21

⁴ - المرجع نفسه، ص 23-24

⁵ - المرجع نفسه، ص 22

⁶ - مسند الإمام أحمد: كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: حديث عبد الرحمان بن عوف الزهري، رقم: 1567

في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية¹، وسميت قريش ذلك الحلف حلف الفضول².

ه/مشاركته في بناء الكعبة: لما بلغ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة³، فاشترك مع عمه العباس في نقل الحجارة لبناء الكعبة⁴، روى البخاري: عن عمرو بن دينار قال سمعت جابر بن عبد الله يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره فقال له العباس عمه يا ابن أخي لو حلت إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجارة قال فحله فجعله على منكبيه فسقط مغشيا عليه فما ربي بعد ذلك غريانا صلى الله عليه وسلم⁵، قال ابن حجر: وقد حدث به عن العباس أيضا ابنه عبد الله وسياقه أتم أخرجه الطبراني وفيه: فقام فأخذ إزاره وقال نويت أن أمشي عريانا، وفي رواية الإسماعيلي: فلم يتعر بعد ذلك، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم كان مصونا عما يستقبح قبل البعثة وبعدها⁶.

و/وضعه الحجر الأسود في مكانه: ولما شرعوا في بناء البيت جمعت كل قبيلة حجارة ما هدمت و بنوا حتى انتهوا إلى ركن الحجر فتنازعت القبائل فيمن يضع الحجر في موضعه⁷ من الركن، فأقبلوا حتى مكثوا أربع ليال أو خمسا ثم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا فقال أبو أمية بن المغيرة وكان أمين قريش في وقته: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول رجل يدخل من باب هذا المسجد فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا: هذا محمد وهو الأمين فقالوا: قد رضينا به لما قد استقر في نفوسهم من فضله وأمانته، فلما وصل إليهم أخبروه فقال: ائتوني ثوبا فأتوه بثوب فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده وقال: ليأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب وليرفعوه جميعا ففعلوا فلما بلغ الحجر إلى موضعه وضعه فيه بيده فكان هذا الفعل من مستحسن أفعاله وآثاره والرضاء به من أمارات طاعته وكان ذلك بعد عام الفجار بخمس عشرة سنة ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة، فكان ذلك تأسيسا لما يريد الله تعالى به من كرامته وتوطئة لقبول ما تحمله من رسالته⁸، وقد كشفت الحادثة عن مكانة النبي- صلى الله عليه وسلم- الأدبية بين قريش⁹، وروى الحادثة الإمام أحمد: عن مجاهد عن مولاة أنه حدثته أنه كان فيمن يبني الكعبة في الجاهلية... حتى بلغنا موضع الحجر وما يرى الحجر أحد فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل فقال بطر من قريش نحن نضعه وقال آخرون نحن نضعه فقالوا اجعلوا بينكم حكما قالوا أول رجل يطلع من الفج فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أتاكم الأمين فقالوا له فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص111-112

² - ابن خلدون: السيرة النبوية، ص78

³ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص45

⁴ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص115

⁵ - صحيح البخاري: كتاب: الصلاة، باب: كراهية التعري في الصلاة وغيرها، رقم: 364/351

⁶ - فتح الباري: ج1، ص566

⁷ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص46

⁸ - الماوردي: أعلام النبوة [ص240]

⁹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص116

مَعَهُ فَوَضَعَهُ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ¹، وذلك أنهم حكموا بينهم أول داخل من باب بني شيبعة، فدخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم، فقالت قريش أتاكم الأمين².

وهكذا قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث، فكان بين أهلها مشركي قريش، يتعاطى فيهم التجارة ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار من أخذ وعطاء، ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء، فيتبين للناس فسادها أو صلاحها، وهي عيشة طويلة طريقها كثيرة منعطفاتها وعرة مسالكها، تعترضها وهداث، وقد اجتاز رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه السبيل الشائكة الوعرة وخلص منها سالما نقياً، لم يصبه شيء مما يصيب عامة الناس، حتى دعوته بينهم بالأمين، وإن قريشا كانوا يودعون عنده ودائعهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به، فقريش خالفوه أشد الخلاف في دعوته ولم يتركوا في ذلك سبيلاً إلا سلوكه، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئاً في أخلاقه، ولا أن يرميه بالخيانة، أو ينسب إليه الكذب في القول أو خلاف الوعد أو إخفار الذمة أو نفض العهد، وكانت كل أحواله وشعونه وهدية ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم، استوى في ذلك أحباؤه وأعداؤه، ولم يخف عليهم شيء من أمره³، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها يحمل المنقطع، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق⁴.

سادساً: إرهابات النبوة

أ/بشارات الأنبياء والكتب السماوية بنبوته: لما دنا مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالنبوة رسولا وإلى الخلق بشيرا ونذيرا، انتشر في الأمم أن الله تعالى سيبعث نبيا في هذا الزمان وأن ظهوره قد قرب وأن، فكانت كل أمة لها كتاب يعرف ذلك من كتابها والتي لا كتاب لها ترى من الآيات المنذرة ما تستدل عليه بعقولها وتنبئه عليه بهواجس فطرها إلهاما أعان به الفطن اللبيب وأنذر به الحازم الأريب⁵، وذلك مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه وأنه رسول وأنه موجود عندهم وكانوا ينتظرونه، وكان ذلك من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم للإسلام وبايعوه، فكانوا يقولون لهم، إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم⁶.

ومثل ذلك إخبار هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة، كما أخبر سلمان الفارسي في قصة إسلامه أن راهب النصراني في عمورية عندما حضرته الوفاة، طلب منه سلمان أن يوصيه، فقال الراهب: أي بني والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه أمرك أن تأتبه، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات

¹ -مسند الإمام أحمد: كتاب: مسند المكين، باب: حديث السائب بن عبد الله، رقم: 14957

² - أكرم ضياء العمري: المرجع السابق، ص 116

³ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 115-116

⁴ - المرجع نفسه، ص 137

⁵ - الماوردي: أعلام النبوة [ص 275]

⁶ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 119، 122.

نخل، وأن فيه علامات لا تخفى بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانه¹.

ب/عصمته من أفعال الجاهلية وعباداتهم: وقد عصمه الله تعالى من أمور أهل الجاهلية وأفعالهم، فلم يشارك قومه في عاداتهم القبيحة، ولم يأكل لحما مما لم يذكر إسم الله عليه² وما ذبح على النصب وغيرها ولم يقدم نسكا لصنم ولم يشارك قومه في شيء من عبادة الأصنام³، فشب محفوظا من الله تعالى بعيدا عن أقدار الجاهلية وعاداتها، عصمه الله تعالى من أن يتورط فيما لا يليق بشأنه من عادات الجاهلية وما لا يرون به بأسا⁴، لم يشارك أقرانه من شباب مكة في لهُومهم ولا عبثهم، ولم يشرب خمرا ولا لعب قمارا⁵.

ج/تحنثه في الغار: وقد حُبب إليه العزلة والتحنث (التعبد)، فكان يعتزل قومه في غار حراء في جبل حراء المطل على الكعبة، فكان يمكث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، يخلوا فيه مقدار الشهر، يفكر في آلاء الله وعظيم قدرته⁶، حتى فأجه الحق وهو في الغار، قال ابن أبي جمرة: الحكمة في تخصيصه بالتخلي فيه، أم المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع لمن يخلوا فيه ثلاث: الخلوة-التعبد-والنظر إلى البيت، قال ابن حجر: وكأنه مما بقي عندهم من أمور الشرع على سنن الاعتكاف⁷، فالتحنث من بقايا الإبراهيمية.

يجب أن يكون للداعية أوقات يخلوا فيها بنفسه، تتصل فيها روحه بالله جل شأنه، وتصفوا فيها نفسه من كدورات الأخلاق الذميمة والحياة المضطربة من حوله، هذه الخلوات تدعوه إلى محاسبة نفسه إن قصرت في خير أو زلت في اتجاه أو أخطأت في سبيل ومنهج أو طريق، من الخلوة والتهدد والقيام لله بالعبودية⁸.

ه/تسليم الحجر عليه: روى مسلم عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعرف حجرا بمكة كان يُسَلَّمُ عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن⁹، قوله صلى الله عليه وسلم: (إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن) فيه معجزة له صلى الله عليه وسلم، وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات، وهو موافق لقوله تعالى في الحجاره: {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (74)}¹⁰، وقوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (44)}¹¹،

¹-المرجع نفسه، ص121

²-الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص50، 53

³-سعيد حوى: الأساس في السنة، ص136

⁴-أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، ص95

⁵-مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص20

⁶-المرجع نفسه، ص21

⁷-أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص123

⁸-مصطفى السباعي: المصدر السابق، ص24

⁹-صحيح مسلم: كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم: 4222

¹⁰-سورة البقرة، الآية: 74

¹¹-سورة الإسراء، الآية: 44

يسبح حقيقة ويجعل الله تعالى فيه تمييزا بحسبه، وَمِنْهُ الْحَجَرُ الَّذِي فَرَّ بِشَوْبِ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَلَامُ الدَّرَاعِ الْمَسْمُومَةِ، وَمَشَى إِحْدَى الشَّجَرَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى حِينَ دَعَاهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ¹.

المحور الثاني: الفقه الحركي للسيرة المكية من البعثة إلى الهجرة

المرحلة الأولى: خصائص ومميزات الدعوة السرية [1-3] من البعثة

أولا: تهيئة الرسول-صلى الله عليه وسلم- لتلقي الوحي وأول ما نزل عليه

أ/ التمهيد لتلقي الوحي [الرؤيا الصادقة]: إذا أراد الله تعالى أمرا لأحد من خلقه هياً له أسبابه وتدرج معه رفقا به من مرحلة إلى مرحلة، وذلك لأن أمر الوحي أمر عظيم لا يتحمل بشر مهما كان هجومه المباشر دون آثار جانبية، فكان من رفق الله وعطفه على أنبيائه أن يسلك معهم أسلوب التدرج مرحلة بمرحلة يترقون فيها ويتأهلون لتلقي الوحي، فكانت الخطوة الأولى معه-صلى الله عليه وسلم- هي وحي المنام، روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ².

قال ابن حجر: والرؤيا الصالحة أو الصادقة من أقسام الوحي، وهي التي ليس فيها ضعف، وبدئ بذلك ليكون تمهيدا وتوطئة لليقظة، ثم مهد له في اليقظة أيضا رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر³، وقد استغرقت الرؤيا الصادقة مدة نصف سنة، ذكر ذلك البيهقي وقال بأن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان⁴، فكانت مرحلة الرؤيا تمهيدا لنزول الوحي⁵ المباشر عليه-صلى الله عليه وسلم.

ب/ تحنثه في الغار: مما كان يتأهل به رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أيضا لتلقي الوحي، الخلوة أو العزلة عن الناس والتعبد في غار حيراء، وهذا مهم جدا لصفاء الروح والتأمل الوجداني الذي يسهل عليه ويفتح له الطريق إلى الله لتلقي الوحي السماوي، روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ

¹ - شرح النووي على مسلم - موقع الإسلام <http://www.al-islam.com> [472/ 7]

² - صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 03

³ - فتح الباري، ج1، ص31

⁴ - المصدر نفسه، نفس الجزء، ص37

⁵ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص125

فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بَعَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي دَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ¹.

قال ابن حجر: حُبب إليه أن يخلو بنفسه في الغار من عند الله، وأنه لم يكن من باعث البشر، أو يكون ذلك من وحي الإلهام، والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له، ويتحنن بمعنى يتحنف، أي يتبع الحنفية وهي دين إبراهيم، وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة "يتحنف"، وأصل الخلوة كانت طيلة شهر رمضان كما رواه ابن إسحاق².

ج/أول ما نزل عليه في الغار: هذه هي المرحلة الثالثة التي ترقى فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- بنفسه ويتوجه من الله تعالى وإلهام حتى صار قادرا على تلقي الخطاب السماوي المباشر، روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنن فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم فجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال زملوني زملوني فرملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجني هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ثم لم ينسب ورقة أن توفي وفتر الوحي³.

قال ابن حجر: وفي التفسير: حتى فجئه الحق أي بغته، وإن ثبت من مرسل عبيد بن عمير أنه أوحى إليه بذلك في المنام أولا قبل اليقظة، أمكن أن يكون مجيء الملك في اليقظة عقب ما تقدم في المنام، وسمي حقا لأنه وحي من الله تعالى، ثم استعلن له جبريل من قبل حراء، وأقرأه: {اقرأ باسم ربك الذي خلق (1)}⁴ ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يختطفان البصر، فقال

¹ - صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 03
² - فتح الباري، ج 1، ص 31-32
³ - صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 03
⁴ - سورة العلق، الآية: 1

له ما أنا بقارئ ثلاثا، فقال له: **أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**، أي لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانتة، فهو يعلمك كما خلقتك، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية، فرجع بالآيات أو بالقصة جزع مفزوع، فقالت خديجة كلا ثم استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدا بأمر استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق، وقالت له إنك تكسب المعدوم أي الفقير، ومعناها تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر في الجاهلية خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر، وولقي من بقي من الرهبان على دين عيسى الصحيح، فتلقى منهم البشارة ببعثة نبي آخر الزمان، وكان ورقة يكتب من الإنجيل بالعبرانية والعربية، متكننا من الكتابين واللسانين، فقالت له خديجة: اسمع من ابن أخيك، لأن والده عبد الله بن عبد المطلب يلتقي في النسب مع ورقة في جده قصي بن كلاب، ولما سمع منه قال هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ثم قال ورقة يا ليتني فيها جذع أي أيام الدعوة، والجذع: هو الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شابا ليكون أمكن لنصره، وبهذا يتبين سر وصفه بكونه كان كبيرا أعمى، والمراد من هذا التنبيه على صحة ما أخبره به، والتنويه بقوة تصديقه فيما يجيء به، ثم ذكر له إخراج قومه له فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم، وذكر ورقة أن العلة في ذلك مجيئه لهم بالانتقال عن مألوفهم، ولأنه علم من الكتب أنهم لا يجيبونه إلى ذلك، وأنه يلزمه لذلك منابذهم ومعاندتهم فتنشأ العداوة التي تكون سبب إخراجهم له، ثم فتر فتر الوحي، وفتوره تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجدده من الروح، وليحصل له التشوف إلى العود، وجاء في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين وبه جزم ابن إسحاق، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان، وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين وهي ما بين نزول "اقرأ" و"يا أيها المدثر" عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخر نزول القرآن فقط¹.

د/طرق الوحي إليه-صلى الله عليه وسلم-: سئل النبي-صلى الله عليه وسلم- عن كيفية مجيء الوحي إليه، فروى البخاري الجواب عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول قالت عائشة رضي الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا².

قال ابن حجر: يحتتمل أن يكون المسئول عنه صفة الوحي نفسه، ويحتتمل أن يكون صفة حامله أو ما هو أعم من ذلك، وفيه إشارة إلى انحصار صفة الوحي أو صفة حامله في الأمرين، فإن الملك قد تمثل رجلا في صور كثيرة ولم ينفلت منه ما أتاه به

¹- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج1، ص32-36

²- صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 02

كما في قصة مجيئه في صورة دحية وفي صورة أعرابي وغير ذلك وكلها في الصحيح، وهناك على ما اقتضاه الحديث حالات أخرى: إما من صفة الوحي كمجيئه كدوي النحل، والنفث في الروح، والإلهام، والرؤيا الصالحة، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة، وإما من صفة حامل الوحي كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح، ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض وقد سد الأفق، وليس المقصود الحصر في الحالتين المتقدم ذكرهما وحملهما على الغالب، أو حمل ما يغيرهما على أنه وقع بعد السؤال، أو لم يتعرض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما، وأما فنون الوحي فدوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس، لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين - كما في حديث عمر - يسمع عنده كدوي النحل، والصلصلة بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبهه هو صلى الله عليه وسلم بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه، وأما النفث في الروح فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين، فإذا أتاه الملك في مثل صلصلة الجرس نفث حينئذ في روعه، وأما الإلهام فلم يقع السؤال عنه، لأن السؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل، وكذا التكليم ليلة الإسراء، وأما الرؤية الصالحة فقال ابن بطال: لا ترد، لأن السؤال وقع عما ينفرد به عن الناس، لأن الرؤيا قد يشركه فيها غيره، والرؤيا الصادقة وإن كانت جزءا من النبوة فهي باعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبيا وليس كذلك، ويحتمل أن يكون السؤال وقع عما في اليقظة، أو لكون حال المنام لا يخفى على السائل فاقتصر على ما يخفى عليه، وقد ذكر الحليمي أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعا¹ - فذكرها - وغالبها من صفات حامل الوحي، ومجموعها يدخل فيما ذكر، والصلصلة المذكورة صوت الملك بالوحي، وهو أشده عليه، ويفهم منه أن الوحي كله شديد، ولكن هذه الصفة أشدها، وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات².

وحديث بدأ الوحي هذا، هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته، واليقين به هو المدخل الذي لا بد منه إلى اليقين بسائر ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم -، من إخبارات غيبية وأوامر تشريعية، ومن أجل هذا يهتم محترفوا التشكيك بالإسلام بمعالجة موضوع الوحي في حياته، ويبدلون جهدا فكريا شاقا في تكلف من أجل التلبس في حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام وحديث النفس وحتى الصرع أيضا، لعلمهم بأن موضوع الوحي هو منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند الله، فإن أتيح تشكيكهم بحقيقته، أمكن تكفيرهم بكل ما قد يتفرع عنه³.

والوحي الذي جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - هو القرآن الكريم وهو معجته الخالدة، قال ابن خلدون: فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدق، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه⁴.

¹ - وذكر البعض ثمانية طرق، سعيد حوى: الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية، دار السلام القاهرة، ط1، 1409هـ/1989م، المجلد الأول، القسم الأول، ص207

² - فتح الباري، ج1، ص27

³ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص63

⁴ - ابن خلدون: المقدمة، ص40

ه/تنبئه في الأربعين من عمره: ومن الحكم المعلومة بين الأنبياء أن الله تعالى يرسل أنبائه في السن التي يكتمل فيها نموهم العقلي والنفسي والجدسي وغيره، ولذلك تذكر الروايات أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نبئ في الأربعين، روى البخاري: عَنْ رِبْعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَصِفُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَ رُبْعَهُ مِنْ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقٌ وَلَا آدَمَ لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ وَلَا سَبِطَ رَجُلٍ أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَقُبِضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ قَالَ رِبْعَةُ فَرَأَيْتُ شَعْرًا مِنْ شَعْرِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرٌ فَسَأَلْتُ فَقِيلَ أَحْمَرٌ مِنَ الطَّيِّبِ¹.

قال ابن حجر: وهذا إنما يتم على القول بأنه بعث في الشهر الذي ولد فيه، والمشهور عند الجمهور أنه ولد في شهر ربيع الأول وأنه بعث في شهر رمضان، فعلى هذا يكون له حين بعث أربعون سنة ونصف أو تسع وثلاثون ونصف، فمن قال أربعين ألغى الكسر أو جبر، وقال المسعودي وابن عبد البر: إنه بعث في شهر ربيع الأول، فعلى هذا يكون له أربعون سنة سواء، وقال بعضهم: بعث وله أربعون سنة وعشرة أيام، وعند الجعالي أربعون سنة وعشرون يوماً، فإن كان محفوظاً وضم إلى المشهور أن المبعث في رمضان فيصح أنه بعث عند إكمال الأربعين أيضاً، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان².

و/فترة الوحي: من رحمة الله تعالى بنبيه -صلى الله عليه وسلم- أنه تركه حتى يتعافى من صدمة هجوم الوحي عليه في الغار وغيره، وبعد أن استعان بأهل العلم في المسألة وحضي بؤازرة ومؤانسة زوجه وكل من استشاره، قطع عليه الوحي فترة من الزمن، وتركه يتطلع بنفسه ويستشرف لتلقي الوحي بعد استيعاب الصدمة الأولى، روى البخاري أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصْرِي فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِزَاءِ جَالِسٌ عَلَيَّ كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) {⁴، فحصى الوحي أي جاء كثيراً، وفيه مطابقة لتعبيره عن تأخره بالفتور، إذ لم ينته إلى انقطاع كلي فَاهْجُرْ فَحَمِي الْوَحْيِ وَتَتَابَعِ³.

قال ابن حجر: ودل قوله عن فترة الوحي وقوله الملك الذي جاءني بحراء على تأخر نزول سورة المدثر عن إقرأ، وفرعه منه دل على بقية بقيت معه من الفزع الأول ثم زالت بالتدرج، فنزلت: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) }⁴، فحصى الوحي أي جاء كثيراً، وفيه مطابقة لتعبيره عن تأخره بالفتور، إذ لم ينته إلى انقطاع كلي

¹ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: صفة النبي، رقم: 3283

² - فتح الباري، ج1، ص37

³ - صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 03

⁴ - سورة المدثر، الآيات: 1-5

فيوصف، ويحتمل أن يراد بجمي: قوي، وتتابع: تكاثر، وفي رواية الكشميهني وأبي الوقت "وتواتر": والتواتر مجيء الشيء يتلو بعضه بعضاً من غير تخلل¹.

وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروح، وليحصل له التشوف إلى العود²، وقد سبب ذلك للنبي-صلى الله عليه وسلم- حرج كبير، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم... وفتَرَ الوحي فترته حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كني يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكنك لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترته الوحي غداً لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك³.

وقد استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة، ريثما يطمئن محمد-صلى الله عليه وسلم- إلى أنه نبي مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو وحي من الله عز وجل، فيؤمن هو بنفسه أولاً، ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادئ ونظم وأحكام⁴.

ومدة انقطاع الوحي لم تدم طويلاً، حيث اطمأنت نفسه وتهيأ لاستقبال الوحي فتتابع وكثر⁵، واستغرق نزول الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، ثلاثة عشر سنة بمكة، وعشر سنين بالمدينة⁶.

ثانياً/سرية الدعوة والأتباع في هذه المرحلة

أ/التدرج والمرحلية في الدعوة: تحرك النبي-صلى الله عليه وسلم- بالدعوة وفق خطوات ممنهجة منذ بعثته، فكانت حركته ذات مراحل، وكل مرحلة لها وسائلها المكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، وفق تدرج ومرحلية متتالية بغية الوصول إلى الهدف النهائي، فجاءت المرحلة السرية في بداية الدعوة، واعتمد البحث عن الجماعة التي تحمل مشروع الدعوة أولاً، وفق خطوات عملية لتحقيق هذا الهدف المرحلي، فأحكم الهدف أولاً، ثم الخطة ثانياً، ومعرفة موقف العدو ثالثاً، والتحرك رابعاً⁷.

¹ - فتح الباري، ج1، ص37-38

² - المصدر نفسه، ج1، ص37

³ - صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب: أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم: 6467

⁴ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص74

⁵ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص127

⁶ - المرجع نفسه، ص129

⁷ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، دار الوفاء القاهرة، ط5، 1427هـ/2006م، ص5، 11، 65، 112

ب/مدة سرية الدعوة: استغرقت مدة السرية في الدعوة والأتباع ثلاث سنوات¹، حتى جاءه الأمر بالجهر بها²، وذلك من بداية البعثة حين نزلت عليه في الغار [أَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ أَفْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ]³ إلى نزول قوله تعالى [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ]⁴.

ج/كيفية السرية

1/السرية في وسائل الدعوة وطرقها: بدأت الدعوة سرية وفردية⁵ من بداية البعثة إلى نزول قوله تعالى [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ]⁶، وقام النبي -صلى الله عليه وسلم- بالدعوة بنفسه، أو بمن استحباب له كأبي بكر الصديق رضي الله عنه⁷، وتميزت بالسرية في كل شيء، في وسائل الدعوة والأتباع، واعتمدت على الاتصال والإقناع الشخصي لبعض الأفراد⁸، ولم تكن الدعوة موجهة لكل الناس، بل اعتمدوا على دعوة أشخاص محددين ذوي قابلية واستعداد للاستجابة وقبول الدعوة، من أي طبقة كانت، من الأحرار والعبيد والرجال والنساء والشباب والشيخو والفتيان، فالدعوة غير معلنة إلا لمن يُرجى انضمامه إليها، والحفاظة التامة على السرية التامة⁹، ما دامت الدعوة غريبة على معتقدات الجاهلية، حتى يؤمن بها عدد يضحون في سبيلها وتضمن استمرارها¹⁰.

2/سرية الأتباع: أسلم من أسلم في هذه المرحلة من الأتباع سرا، روى البخاري عن غامر بن سعد عن أبيه قال لقد رأيته وأنا ثلث الإسلام¹¹، قال ابن حجر: قال ذلك بحسب اطلاعه، والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يخفي إسلامه، ولم يكن اطلاع على أولئك، ويحمل ذلك على مقتضى ما كان اتصل بعلمه حينئذ¹²، وكان السبب في ذلك تورية النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أتباعه، روى مسلم عن أبي أمامة قال قال عمرو بن عبسة السلمي كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا فقعدت على راحلي فقدمت عليه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفيا جزاء عليه قومته فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له ما أنت قال أنا نبي فقلت وما نبي قال أرسلني الله فقلت وبأي شيء أرسلك قال أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء فقلت له فمن معك

¹- سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 68

²- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 215

³- سورة اقرأ، الآية 1-3

⁴- سورة الشعراء، الآية 214

⁵- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 214

⁶- سورة الشعراء، الآية 214

⁷- سعيد حوى: المرجع السابق، ص 215

⁸- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 17

⁹- المرجع نفسه، ص 19، 25

¹⁰- مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص 28

¹¹- صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مناقب سعد بن أبي وقاص الزهري، رقم: 3447

¹²- فتح الباري، ج 7، ص 105

عَلَى هَذَا قَالَ حُرٌّ وَعَبْدٌ قَالَ وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ قَالَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي¹ ...

قال النووي فقال له النبي-صلى الله عليه وسلم-: لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين ونخاف عليك من أذى كفار قريش، ولكن قد حصل أجرك فابق على إسلامك، وارجع إلى قومك واستمر على الإسلام في موضعك حتى تعلمني ظهرت فأتني².

فلم يخبره النبي-صلى الله عليه وسلم-، باسم أي شخص ممن أسلم معه، ولا حتى بعدد المسلمين، بل استخدم معه أسلوب التورية، وكفى عن الأحرار بحر وعن العبيد بعبء، ولم يعلمه باسم أحد منهم ولا بعددهم.

د/أول الناس إسلاما: أثمر الجهد في هذه المرحلة عن إسلام خديجة بنت خويلد وأبوبكر الصديق وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة، كما ساهم أبوبكر بجهد في هذه المرحلة فأسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمان بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله³ وغيرهم، روى البخاري عن همام بن الحارث قال قال عمارة بن ياسر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد وأمرأتان وأبو بكر⁴، قال ابن حجر: أما الأعبد فهم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر فإنه أسلم قديما مع أبي بكر، وروى الطبراني من طريق عروة أنه كان ممن كان يعذب في الله فاشتراه أبو بكر وأعتقه، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية بن خلف ذكر ابن إسحاق أنه أسلم حين أسلم بلال فعذبه أمية فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وأما الخامس فيحتمل أن يفسر بشقران، فقد ذكر ابن السكن في " كتاب الصحابة " عن عبد الله بن داود أن النبي صلى الله عليه وسلم ورثه من أبيه هو وأم أيمن، وذكر البعض بدل أبي فكيهة عمار بن ياسر وهو محتمل، وكان ينبغي أن يكون منهم أبوه فإن الثلاثة كانوا ممن يعذب في الله وأمه أول من استشهدت في الإسلام طعنها أبو جهل في قلبها بحربة فماتت، وأما المرأتان فخديجة والأخرى أم أيمن أو سمية، وفي هذا الحديث أن أبا بكر أول من أسلم من الأحرار مطلقا، ولكن مراد عمار بذلك ممن أظهر إسلامه، وإلا فقد كان حينئذ جماعة ممن أسلم لكنهم كانوا يخفونه من أقاربهم⁵، وروى مسلم عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد بن زكوة قال نزلت ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي قال نزلت في ستة أنا وابن مسعود منهم وكان المشركون قالوا له تدين هؤلاء⁶.

وانتشر الإسلام بن أفراد قلائل من بطون وفروع شتى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع، أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبوبكر الصديق من تيم، وعثمان بن عفان من بني أمية، والزبير بن العوام من بني أسد ومصعب بن عمير من بني عبد الدار، وعلي بن أبي طالب من بني هاشم، وعثمان بن مضعون من بني جمح، ومنهم

¹- صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

²- أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط2، 1392هـ، [ج6/ 116]

³- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص18-19

⁴- صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: قول النبي لو كنت متخذًا خليلا، رقم: 3387

⁵- فتح الباري، ج7، ص29

⁶- صحيح مسلم: كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضائل سعد بن أبي وقاص، رقم: 4433

من لم يكونوا قرشيين كعمار بن ياسر وزيد بن حارثة وعبد الله بن مسعود، فكان واضحاً من أول وهلة، أن الإسلام ليس خاصاً بمكة وقريش¹.

وكان المستجيبون الأوائل لدعوة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، من أصحاب مكارم الأخلاق والمضطهدين من النساء²، فكان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، يدعوا إلى الإسلام كل من وثق بعقله، حتى أسلم عدد من الرجال والنساء ممن عُرفوا برجحان الرأي وسلامة النفس³.

وقد أهدم الله تعالى رسوله-صلى الله عليه وسلم، أن يبدأ الدعوة بسرية وتكتم، وأن لا يلقي بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيؤمن بها، تعليماً للدعاة من بعده وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيلة والحذر والأسباب الظاهرة، على أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصورهِ وتفكيرهِ، لأن هذا يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام، فكان أسلوبه في الدعوة في هذه الفترة من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، ولذلك يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر، أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة، من حيث التكتم والجهر أو الدين والقوة، حسبما يقتضيه الظرف، وحال العصر الذي يعيشون فيه⁴.

ثالثاً: محتوى الدعوة ووسائلها في هذه المرحلة

أ/محتوى ما كان يدعو الناس إليه: روى مسلم عن أبي أمامة قال قال عمرو بن عبسَةَ السُّلَمِيُّ كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَطْرُقُ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بَرَجِلَ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِيًا جَرَاءً عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ أَنَا نَبِيٌّ فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ أَرْسَلَنِي اللَّهُ فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ أَرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوحَدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ قُلْتُ لَهُ فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا قَالَ حُرٌّ وَعَبْدٌ⁵...، فكان رسول الله-صلى الله عليه وسلم- يدعو الناس للتصديق بنبوته وتوحيد الله تعالى وعدم الإشراك وصللة الأرحام.

ب/القرآن الكريم: روى البخاري عن أبي هريرة قال قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ⁶، قال ابن حجر: هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره من أصر على المعاندة، والمعنى أن كل نبي أعطى آية أو أكثر

¹- أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص132-133

²- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص246

³- مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص27

⁴- سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص69

⁵- صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

⁶- صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم: 4598

من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها، أي يؤمن بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه، لكنه قد تجد من يجحد ويعاند، وإن معجزتي التي تحدت بها هي نفسه الوحي الذي أنزل علي، وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، والمراد أنها المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره، لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشيا عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه، ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك، وقيل المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، وأن معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وكانت معجزات الانبياء السابقة حسية تشاهد بالأبصار كمنافاة صالح وعصا موسى، بينما جاءت معجزة القرآن تشاهد بالبصيرة لا بالبصر، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهدته، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعده، فمعجزة القرآن مستمرة لكثرة فائدته وعموم نفعه واشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون، فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد، وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء: أحدها حسن تأليفه والتتام كلمه مع الإيجاز والبلاغة، وثانيها صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظما ونثرا حتى حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك وتقريعه لهم على العجز عنه، وثالثها ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب، ورابعها الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده، ومن غير هذه الأربعة آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا أنهم لا يفعلونها فعجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه، كتمني اليهود الموت، ومنها الروعة التي تحصل لسامعه، ومنها أن قارئه لا يمل من ترادده وسامعه لا يمجحه ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة، ومنها أنه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، ومنها جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائدها¹.

والقرآن به بدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- دعوته، وبه ربي من استجاب له وبه علمهم وبه واجه وجابه²، وكان يدعو به وإليه يقرأه على كل من رأى فيه ملامح إجابته، ويعلمه لأتباعه ويأمرهم بكاتبته وقراءته حسب نزوله.

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج9، ص7

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص212

ج/الصلاة: وقد فرضت الصلاة في البداية ركعتين في الصباح وركعتين في المساء، مع قيام الليل¹، وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يعلم أصحابه الصلاة ويحثهم عليها، وكان إذا حضر وقتها خرج إلى شعاب مكة بمن معه مستخفياً، فيصلي فيها الصلوات².

د/وسائل التربية والتكوين في هذه المرحلة: كُلف منذ البداية بالإندار والصلاة والطهارة والتوحيد والصبر وتجنب الأوثان، هذه هي التكاليف التي جاءت في هذه المرحلة³، قال ابن كثير: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتموا من أعدائهم⁴.

1/بناء العقيدة الصحيحة والسليمة: عمد النبي-صلى الله عليه وسلم- في هذه المرحلة إلى بناء العقيدة السليمة في نفوس أتباعه، بشكل هادئ، لأنها هي التي تضمن الثبات على الحق وتحمل التضحيات في سبيله عند الطلب، فطبقة العشرة المبشرون بالجنة هي التي كونت جيل القيادة للمجتمع الراشد، وهذه النواة هي التي حملت فيما بعد عبء الدعوة للإسلام وتحملت عبء المواجهة الكبرى مع أعداء الدين والدعوة⁵.

2/سائر العبادات: وتتلخص العبادة في الصلاة وقيام الليل وقراءة القرآن والذكر والفكر⁶

ه/التمايز: وتمثل في مقاطعة عبادات الوثنيين وذبائهم ونصبهم وأصنامهم وتنظيماتهم⁷.

و/موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة: كانت قريش في مكة لا تهتم بالأمر، طالما أن المسلمين لا يتعرضون لعقائدهم وأصنامهم، فلم تعري أي اهتمام بمؤلاء، الذين اعتزلوا عبادة الأصنام، قبل أن يعلنوا موقفهم منها، وطالما أنهم منكفئون على دوائهم مكتفون بأنفسهم لا يتدخلون في شؤون الحياة، فلم يقع أي صدام في هذه المرحلة بينهم وبين المسلمين، لأن الدعوة لم تكن معلنة أصلاً، ولا يتدخل المسلمون في شؤون غيرهم بنقد أو مواجهة أو مخالفة ظاهرة، وهذا من نتائج المحافظة التامة على السرية في الدعوة والأتباع⁸.

المرحلة الثانية: خصائص ومميزات الدعوة في هذه المرحلة [3-6] من البعثة

¹ - المصدر نفسه، ص214

² - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص23

³ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص214

⁴ - تفسير ابن كثير: الآية 77 من سورة النساء، ج2، ص211

⁵ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص25-26

⁶ - سعيد حوى: المرجع السابق، ص214

⁷ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص27

⁸ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص24-25

قُلْتُ لَهُ إِنَّ كَثَمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ قَالَ فَإِنِّي أَفْعَلُ قَالَ قُلْتُ لَهُ بَلَعْنَا أَنَّهُ قَدْ حَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَرْسَلْتُ أَحِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنَ الْخَبْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ فَقَالَ لَهُ أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشِدْتَ هَذَا وَجِهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعِي ادْخُلِي حَيْثُ أَدْخُلِي فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ فَمُتْ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أَصْلِحُ نَعْلِي وَامْضِي أَنْتَ فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْتُ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ اعْرِضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ فَعَرَضَهُ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي فَقَالَ لِي يَا أَبَا ذَرٍّ أَكْتُمَ هَذَا الْأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ فَقُلْتُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَصْرُخَنَّ بِمَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَقَالُوا فُؤُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ فَقَامُوا فَضْرِبْتُ لِأَمُوتَ فَأَذْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ وَيَلِكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ وَمَتَجَرِّكُمْ وَمَمْرُكُمْ عَلَى غِفَارٍ فَأَقْلَعُوا عَنِّي فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْعَدَّ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأَمْسِ فَقَالُوا فُؤُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالْأَمْسِ وَأَذْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأَمْسِ قَالَ فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان إسلامه في المرحلة التي أظهرت فيها قريش جراتها على الإسلام وآذاها للمسلمين¹، وهو دليل على أن إسلامه جاء في مرحلة الجهر بالدعوة وسرية الأتباع ولذلك أمره بإخفاء إسلامه، كما أن سماعه بخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- يكون بعد جهره بالدعوة وليس في المرحلة السابقة، وفي هذه المرحلة أعلن أمر الدين وانتهى أمر إخفائه²، وبقي إخفاء إسلام من لم يعلم بإسلامه.

كما دل على السرية التامة في إخفاء المسلمين بعضهم لبعض، فإن علي رضي الله عنه أمر أبا ذر باتباعه ومراقبته من بعيد إلى غاية المكان السري الذي يختفي فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- باتباعه، وأشار عليه بالتمويه في حالة اكتشاف أمره³.

كما دل حديث عمرو بن عبسة السلمي على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان لا يخبر أحدا ممن أسلم حديثا بمن أسلم قبله، روى مسلم عن أبي أمامة قال قال عمرو بن عبسة السلمي كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِيًا جُرْءَاءَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ أَنَا نَبِيٌّ فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ أَرْسَلَنِي اللَّهُ فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوحَدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ قُلْتُ لَهُ فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا قَالَ حُرٌّ وَعَبْدٌ قَالَ وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ قَالَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَاتَّبِعِي قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي⁴...

¹- أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص140

²- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص26

³- أكرم ضياء العمري: المصدر السابق، ص144

⁴- صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

قال النووي: قلت له: إني متبعك على إظهار الإسلام هنا وإقامتي معك، فقال: لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين ونخاف عليك من أذى كفار قريش، ولكن قد حصل أجرك فابق على إسلامك، وارجع إلى قومك واستمر على الإسلام في موضعك حتى تعلمني ظهرت فأتني¹، فلم يخبره النبي-صلى الله عليه وسلم-، باسم أي شخص ممن أسلم معه، ولا حتى بعدد المسلمين، بل استخدم معه أسلوب التورية، وكفى عن الأحرار بحر وعن العبيد بعبد، ولم يعلمه باسم أحد منهم.

وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يخفف من عدد الأتباع ولا يكدهم في مكان واحد، فيأمر من له مأوى يأوي إليه بالعودة بعد إسلامه إلى قبيلته، كما وزع سائر الأتباع حيث أمرهم بالمجرة إلى الحبشة فهاجروا، تخفيفا على الدعوة من الأعباء، وإبعاد لهم عن مواطن الخطر وسترا لقوتهم، وضمان للسرية وإعدادا للمستقبل، وضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال.²

وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يجتمع سرا بمن أسلم سرا في دار الأرقم، وبقيت السرية قائمة في هذه الدار³، وكان بها يتلوا عليهم ما ينزل من القرآن، يجتمع بهم يوميا ليثبتهم ويزيدهم إيمانا بدعوتهم ويعلمهم طرقها وأساليبها وآدابها⁴، فاختر لهم دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزا سريريا مكانا بعيدا عن الأعين، لأن الأرقم لم يكن معروفا بإسلامه من بني مخزوم، وهي القبيلة التي تحمل لواء المعارضة للدعوة، وحتى لو اكتشفوا أمر إسلامه، فلا يخطر على بالهم أن يكون اللقاء في داره، لأن ذلك يعني أنه كان يتم في قلب صفوف العدو، وكان الأرقم فتى عند إسلامه في السادسة عشر من عمره، فلا يخطر على بال قريش أن تبحث في بيوت الفتیان، وبقيت الدار مجهولة على قيادة قريش، ولم تعرف إلا بعد إسلام عمر بن الخطاب⁵، فكان اختيار المكان غاية في الحكمة من الناحية الأمنية، ولم يسمع أبدا أن قريشا داهمت يوما هذا المركز وكشفت مكان اللقاء، وأقصى ما وصلت إليه أن يكون اللقاء في دار عند الصفا⁶.

لكن قريش ما تلبث حتى تكشف أمر إسلام من أسلم مثل انكشاف إسلام أخت عمر بن الخطاب وزوجها لعمر⁷.

ج/ ما كان يجهر به في هذه المرحلة: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجهر بنبوته⁸ ويعلنها للناس، ويجهر بأنه رسول من الله، ويدعوهم لعبادة الله وحده وترك الأوثان وصلوة الأرحام، وإظهار العبادة والصلاة ويجهر بقراءة القرآن كما جهر بتسفيه عقائد المشركين¹، وسائر ما كان يخفيه في المرحلة السابقة، فصار يدعوا الناس إلى الإسلام جماعيا رغم استمرار الدعوة الفردية أيضا².

¹ - النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط2، [ج6/ 116]

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص226

³ - المصدر نفسه، ص235

⁴ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص27، 29

⁵ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص38

⁶ - المرجع نفسه، ص39

⁷ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص235

⁸ - منير الغضبان: المصدر السابق، ص31

د/طرق الدعوة ووسائلها: كان الرسول-صلى الله عليه وسلم- يرتاد المواسم وأسواق العرب، ويدعو الناس للإيمان بالله ونبذ الأصنام والأوثان³، روى الإمام أحمد عن جابر قال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمى...⁴.

ثانيا: محتوى الدعوة في هذه المرحلة: روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي-صلى الله عليه وسلم- في حديث هجرة الحبشة قالت: ... فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له أيها الملك كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجَوَارِ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَقَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنُخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمَنَا فَعَدَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيُرِدُونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْحَبَائِثِ فَلَمَّا فَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكِ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظَلَمَ عِنْدَكَ⁵، فواضح من خلال هذا النص أن هناك تشريعات فرضت في هذه المرحلة كالصلاة ركعتين في الغداة وركعتين في العشي، والزكاة بمعنى الصدقة وليست ذات النصب، لأن تشريع الزكاة ذات النصب كان في السنة الثانية بعد غزوة بدر، والصوم المذكور هنا أيضا غير رمضان لأنه فرض في السنة الثانية قبل غزوة بدر الكبرى، وإنما صوم التطوع وأيام مخصوصة مثل يوم عاشوراء روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُهُ فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تَرَكَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ⁶، فكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يدعو الناس إلى هذا كله، بالإضافة إلى ما جاء في حديث عمرو بن عبسة: فُقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ أَنَا نَبِيٌّ فُقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ أَرْسَلَنِي اللَّهُ فُقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوحِدَ اللَّهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْءٌ⁷...

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص145، 170

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص235

³ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص104

⁴ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند جابر بن عبد الله، رقم: 13934

⁵ - مسند الإمام أحمد: كتاب: مسند أهل البيت، باب: حديث جعفر بن أبي طالب، رقم: 1649

⁶ - البخاري: صحيح البخاري (طوق النجاة) [ج3، ص44]، والبيهقي: السنن الكبرى (وفي ذيله الجوهر النقي) [ج4، ص288]

⁷ - صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

أ/القرآن الكريم: كان يلقت أتباعه القرآن الكريم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ويسمعهم الحديث النبوي¹ الشريف ما يثبت به أفئدتهم.

ب/الصلاة: ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد، وذهب الحربي إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، وذكر الشافعي عن بعض أهل العلم أن صلاة الليل كانت مفروضة ثم نسخت بقوله تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} ² فصار الفرض قيام بعض الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس³، والذي يثبت أنها كانت في الغداة والعشي كما في المرحلة الأولى، فإنه صلى الله عليه وسلم كان قبل الإسراء يصلي قطعاً، وكذلك أصحابه لكن اختلف هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا؟ فيصح على هذا قول من قال: إن الفرض أولاً كان صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، والحجة فيه قوله تعالى (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) {⁴}.⁵

أما صلاة الغداة فكانوا يصلونها أحياناً في الكعبة قبل أن تلتفتهم الأنظار، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حريصاً على الصلاة في الكعبة، وإذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب مثنى وفردى، يصلون الضحى والعصر ركعتين ركعتين، في مرحلة البناء لاشيء أكبر من التركيز على العبادة، فهي التي تصل القلب بالله، وتعلمه أكبر من المحنة وأعصى على الفتنة وأثبت على الحق⁶.

ج/ما كان يدعو إليه في هذه المرحلة: كان يدعو في هذه المرحلة ويجهر بالوحدانية والرسالة وهما محور الدعوة، وتحتوي على:

-الإيمان بالله الواحد، وتعني نقض عقيدة أهل الجاهلية كلها

-الإيمان برسوله-صلى الله عليه وسلم- نبيا ورسولا

-الإيمان باليوم الآخر

-المساواة بين الناس من حيث الأصل البشري، وتعني نقض أكبر قيم الجاهلية التي تقوم على الأسياد والعبيد، وهو أكبر ما صدم الملاء من قريش وغيرها، أن يعتقدوا بأن مواليتهم وعبيدتهم من الممكن أن يكونوا خيراً منهم⁷.

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص39

² -سورة المزمل، الآية:20

³ -فتح الباري:ج1، ص553-554

⁴ -سورة ق، الآية:39

⁵ - فتح الباري، ج8، ص539

⁶ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص40-41

⁷ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص35،37،38.

د/التربية والتعليم في هذه المرحلة: كانت دار الأرقم مقرا سرىا للدعوة والتربية والتعليم والعبادة منذ السنوات الأولى من البعثة، فأسلم فيها وتعلم وحفظ من القرآن والحديث قوم كثير حتى سميت دار الإسلام¹.

ه/دور المرأة في الدعوة في هذه المرحلة: كان ربع من أسلم من الأوائل من النساء، ومعظم الشباب المتزوجين أسلمت معهم زوجاتهم، وعشن المرحلة السرية دون أن يدري بهن أحد وحافظن على السر وكنتمته، فكانت بجانب الرجل أختا وزوجا وأما تعيش هم²، وأبرزهن خديجة بنت خويلد، وسمية أم عمار بن ياسر التي استشهدت تحت التعذيب، وأسماء التي كان عمرها عند البعثة عشر سنوات، ويكفي أن يذكر تاريخ الإسلام باعتزاز أن أول خلق الله إسلاما امرأة وأول شهيد في الإسلام امرأة، فلم تكن المرأة بعيدة عن الميدان، بل تكلفت بصبر وبطولة آلام العذاب في سبيل الله، فالنهدية تلقت العذاب حتى عميت وسميت حتى استشهدت وفاطمة بنت الخطاب دافعت عن زوجها³ بكل بطولة.

أما خديجة بنت خويلد فهي التي احتضنت الدعوة والداعية من أول لحظة، ووضعت ثروتها تحت تصرفه، وصبرت على المقاطعة والفقر وهي سليلة الغنى والثروة، وكان لها موقف المواسي والمشجع لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمثبت⁴.

ثالثا: موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة: حينما صدع رسول الله -صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام، في قريش وعامة العرب، فاجأهم بما لم يكونوا يتوقعونه أو يألفونه، وذلك واضح في رد أبي لهب عليه، وفي اتفاق معظم زعمائهم على معاداته ومقاومته⁵.

أ/الاضطهاد والتكيل بالأتباع: بدأت بعد الجهر بالدعوة مرحلة الإيذاء للمؤمنين ولرسول الله -صلى الله عليه وسلم-⁶، ثم اشتدت مقاومة قريش للدعوة تدريجيا، لأن إعلان الدعوة اقتضى من المسلمين مواجهة المشركين بحقائق التوحيد وفساد الشرك، مما جعل المشركون يلحقون الأذى بالرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، واتخذ الأذى صورا شتى من السب العلني والضرر المادي⁷، روى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود قال كان أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أذراع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد وافقهم على ما أرادوا إلا

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص246، 247

² - منير الغضبان: المرجع السابق، ص22-23

³ - المرجع نفسه، ص89

⁴ - المرجع نفسه، ص89

⁵ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص73

⁶ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص27

⁷ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص146-147

بِلَا لَافِئَةٍ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ¹، أي أنهم كانوا يخفون إسلامهم خوفا من أذى المشركين وهؤلاء السبعة سبقوهم بإظهار الإسلام.

وانكفأت كل قبيلة على أبنائها تعذبهم ألوان العذاب وصنوفه لتصرفهم عن الدين وتصدهم عنه، كما فعل أمية بن خلف الجمحي ببلال بن رباح، وعمار بن ياسر مولى بني مخزوم أسلم مع أبيه وأمه فكان أبو جهل والمشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها، حتى مات أبوه تحت التعذيب وطُعن أمه برمح بصدرها واستشهدت².

ومن صور معاناتهم ما رواه بأنفسهم، حتى جعل البخاري في كتابه بابا كاملا عنونه بقوله: باب ما لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ³، أي من وجه الأذى، وروى ابن إسحاق من حديث ابن عباس وذكر الصحابة فقال (والله كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله، فيقول: نعم)⁴.

حتى شكى المسلمون ما يقع لهم لرسول الله- صلى الله عليه وسلم-، فكان يأمرهم بالثبات والصبر ويشهرهم بالفوز والتمكين لهم، روى البخاري عن خباب بن الأرت قال شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُفْتَرُّ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَنْتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ حِمِّهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهُ لَيُؤَيِّنَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ⁵.

إن طلب خباب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم على الكفار دال على أنهم كانوا قد اعتدوا عليهم بالأذى ظلما وعدوانا، ولكن الحكمة كانت تقتضي أن يتلى الذين آمنوا بأنواع من البلوى ليؤجروا عليها كما جرت به عادة الله تعالى في من اتبع الأنبياء فصيروا على الشدة في ذات الله، ثم كانت لهم العاقبة بالنصر وجزيل الأجر⁶.

ولاشك إذا كنت فيهم وكنت ضعيف الإيمان فإنك لا يمكن أن تصدق مثل هذا، اللهم إلا أن يكون صادرا عن نبي تؤمن به حق الإيمان المؤيد بالمعجزة الباهرة، عندها فقط يمكن أن تصدقه، وأنت تسمعه بمنيك بنشر الأمن والسلام في شبه جزيرة السلب

¹ - سنن ابن ماجه: كتاب: المقدمة، باب: فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، رقم: 147، ومسند أحمد: كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود، رقم: 3640

² - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 44-45

³ - صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: باب ما لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ

⁴ - فتح الباري، ج 7، ص 203

⁵ - صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3343

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ، [ج 12/ 316]

والنهب والغارة، وهو يقسم [وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتٍ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الدُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ] ¹.

وكان أبو بكر يعتقد المستضعفين من الرقيق ويحررهم من العذاب الذي كان يسلط عليهم، وأجأ ذلك المسلمين إلى الاختباء في دار الأرقم، ثم أسفر عن المهجرتين إلى الحبشة ².

ب/الصد والإعراض عن الدعوة: مواجهة قريش بالجهر بالدعوة ومفاجئتهم بها، لم تلق منه استجابة، بل لقيت صدا وإعراضا مباشرا وكيدا عنيفا ³.

ج/السخرية والتحقير والاستهزاء: وكانت السخرية والاستهزاء من الرسول-صلى الله عليه وسلم- ودعوته، والتكذيب له، أحد الأساليب التي اتبعها المشركون في الحرب الكلامية لصرف الناس عن الدعوة ⁴، وتخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية، فرموه بتهم هازلة وشتائم سفيهة، ولكن أسلوب الاستهزاء والسخرية والإيذاء لم يفلح وفشلوا ⁵ في صدده عما هو بسبيله.

د/تشويه تعاليمه: بإثارة الشبهات وبث الدعايات الكاذبة، حول تعاليم الدعوة وحول ذاته وشخصيته، قصد صد الناس عن الاستجابة لدعوته، ومعارضة القرآن الكريم بأساطير الأولين، وتشغيل الناس بما عنه، فقال بعضهم سحر وقال آخرون شعر وقال آخرون أساطير الأولين وقال آخرون كذب وسمر وقال مقاتل كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقار مكة وطرقها وقعدوا على أبوابها وأنقأها فإذا جاء الحاج قال فريق منهم لا تغتروا بالخارج منا مدعي النبوة فإنه مجنون وقالت طائفة على طريق آخر إنه كاهن وقالت طائفة إنه عراف وقالت طائفة إنه شاعر والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه كاهنا فإذا سئل عن رسول الله قال صدق أولئك ⁶.

هـ/التفاوض والعروض: لما رأت قريش ثبات المسلمين مع رسول الله-صلى الله عليه وسلم- على عقيدتهم، قررت أن تتفاوضه، ونوعوا في أساليب الإغراء تارة بالمساومات وتارة بمحاولات التوفيق، بين دعوته وبين الجاهلية في العبادة وغيرها ⁷، ذكر ابن اسحاق وغيره عن ابن عباس: أن أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأميمة بن خلف لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي جئت به خيرا مما

¹ - صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3343

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 214

³ - المرجع نفسه، ص 239

⁴ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 152

⁵ -- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 56

⁶ - بدر الدين العيني الحنفي: عمدة القاري شرح صحيح البخاري [ج 27/ 413]

⁷ -- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 56

بأيدينا كنا قد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه¹،
فأنزل الله عز وجل: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3)}².

و/ثبات المسلمون على دينهم: رغم ما تعرض له المسلمون من أصناف العذاب، فإنهم ثبتوا على الحق وصبروا، ولم يرد أحد منهم عن دينه، فهي مرحلة كف البيد والاكتفاء بالتبليغ وعدم مواجهة آذاهم المادي والمعنوي، واهتموا بإيضاح معالم الدعوة غير عابئين بغضب خصومهم أو مشاعرهم أو آرائهم³.

إن الإنسان مكلف ومطالب من قبل الله تعالى بحمل ما فيه كلفة ومشقة، وأمر الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته، من أهم متعلقات التكليف، الذي استلزم تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، وسلوك السبل الشاقة واقتحام المخاطر، وبذل المهج والمال من أجل ذلك، فما يلاقيه الدعاة إلى الله تعالى والمجاهدون في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي، سنة إلهية في الكون⁴.

رابعا: طرق ووسائل حماية الدعوة ورجالها

أ/الحفاظ على سرية الأتباع والاختباء بهم في دار الأرقم: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخفي أمر اتباعه، فلم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- يخبر باسم أي شخص ممن أسلم معه، ولا يصرح لأحد بعدد المسلمين، بل كان إذا سئل عنهم استخدم مع السائل أسلوب التورية، ولم يكن يخبر باسم أحد منهم كما سبق في حديث عمرو بن عبسة⁵، ومن جهة ثانية فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخفف من عدد الأتباع ولا يكس في مكان واحد، فيأمر من له مأوى يأوي إليه بالعودة بعد إسلامه إلى قبيلته، كما وزع سائر الأتباع حيث أمرهم بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا، تخفيفا على الدعوة من الأعباء، وإبعاد لهم عن مواطن الخطر وستر لقوتهم، وضمان للسرية وإعداد للمستقبل، وضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال⁶، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجتمع سرا بمن أسلم سرا في دار الأرقم⁷.

ب/الاستفادة من قانون الحماية والجوار: ودل حديث ابن مسعود على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في جوار عمه، ودخل بعد الطائف مكة في جوار المطعم بن عدي، وأبو بكر في جوار قومه، ثم في جوار ابن الدغنة سيد القارة ودخل مكة في جواره بعد رده من الطريق في هجرة الحبشة⁸، وكذلك من عرف إسلامه من سائر القبائل كانوا في جوار قبائلهم، روى ابن ماجه عن

¹ -- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، [ج20، ص206]

² - سورة الكافرون، الآيات: 1-3

³ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسير النبوية، ص25، 34، 35

⁴ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص78

⁵ - صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

⁶ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص226

⁷ - المصدر نفسه، ص235

⁸ - روى ذلك البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لم أعقل أبوي قط إلا وهما يديبان الدين ولم يجر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الثمار بكره وعشية فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قبل الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال أين تريد

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمَّارٌ وَأُمُّهُ سَمِيَّةُ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَالْمِقْدَادُ فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَالْبَسُوهُمْ أَذْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ¹ ...

ج/ هجرة الحبشة الأولى: بدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- يبحث عن قاعدة أخرى غير مكة في وقت مبكر من الدعوة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويفتح لها الأفق لتتخلص من التجميد الذي انتهت إليه في مكة، فكان هدف الهجرة البحث عن قاعدة حرة وآمنة للدعوة يحظى فيها الأتباع بالحماية من الاضطهاد والفتنة².

فجاءت الهجرة الأولى إلى الحبشة في شهر رجب السنة الخامسة من البعثة، خرج مهاجرا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، وقيل: امرأتان، وقيل: كانوا اثني عشر رجلا وقيل: عشرة³، وأنهم خرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار، قال ابن اسحاق فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة كانت في الإسلام⁴.

د/ هجرة الحبشة الثانية: وكان عددهم في هذه الهجرة يفوق الثمانين، روى أحمد بإسناد حسن عن ابن مسعود قال بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ نَحْوُ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَجَعْفَرُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُرْفُطَةَ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ وَأَبُو مُوسَى⁵ ...

وقد استشكل ذكر أبي موسى فيهم، ويمكن أن يكون أبو موسى هاجر أولا إلى مكة فأسلم فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم مع من بعث إلى الحبشة فتوجه إلى بلاد قومه وهم مقابل الحبشة من الجانب الشرقي، فلما تحقق استقرار النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة هاجر هو ومن أسلم من قومه إلى المدينة فألقتهم السفينة لأجل هيجان الرياح إلى الحبشة، ويحتمل أن إقامة

يَا أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ إِنَّ مِثْلَكَ لَا يُخْرَجُ وَلَا يُخْرَجُ فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّجِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّبْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ وَأَنَا لَكَ جَارٌّ فَارْجِعْ فَأَعْبُدْ رَبَّكَ بِيَلَادِكَ فَارْتَحِلْ ابْنُ الدَّغِنَةِ فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارٍ فُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يُخْرَجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ أُخْرَجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّجِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّبْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَأَنْفَذَتْ فُرَيْشُ جَوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ وَأَمَنُوا أَبَا بَكْرٍ ...

كتاب: الحوالات، باب: حوار أبي بكر في عهد النبي وعقده، رقم: 2134

¹ - سنن ابن ماجه: كتاب: المقدمة، باب: فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، رقم: 147، ومسند أحمد: كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود،

رقم: 3640

² - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 50

³ - أنظر أسماؤهم في: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري: ج 7، ص 226-227

⁴ - أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري [213هـ]: السيرة النبوية، تح: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت، 1411هـ، [ج 2 / 164]

⁵ - أحمد بن حنبل: مسند أحمد - الرسالة، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1420هـ / 1999م، [ج 7 / 408]

أبي موسى بأرض الحبشة طالت لأجل تأخر جعفر عن الحضور إلى المدينة حتى يأتيه الإذن من النبي صلى الله عليه وسلم بالقدوم، وأما عثمان بن مظعون فذكر فيهم وإن كان مذكوراً في الهجرة الأولى، فقد ذكر أهل السير أن المسلمين بلغهم وهم بأرض الحبشة أن أهل مكة أسلموا، فرجع ناس منهم عثمان بن مظعون إلى مكة فلم يجدوا ما أخبروا به من ذلك صحيحاً فرجعوا، وسار معهم جماعة إلى الحبشة وهي الهجرة الثانية، وسرد ابن إسحاق أسماء أهل الهجرة الثانية وهم زيادة على ثمانين رجلاً، وقال ابن جرير الطبري: كانوا اثنين وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم، وشك في عمار بن ياسر هل كان فيهم وبه تتكلم العدة ثلاثة وثمانين، وقيل: إن عدة نسائهم كانت ثمان عشرة امرأة، وقد كانت أسماء هاجرت فيمن هاجر إلى النجاشي¹.

فلو أنهم هاجروا مجرد النجاة بأنفسهم، لهاجر الموالى والمستضعفون، الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة، ولكن هاجر رجال ذوو عصبية- في بيئة قبلية- لهم ما يعصمهم من الأذى ويحميهم، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين... كما هاجرت نساء من أشرف بيوتات مكة، ما كان الأذى لينالهن أبداً²، وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى، كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش... في بيئة قبيلة تهرها هذه الهجرة على هذا النحو هزا عنيفاً، وخاصة عندما يكون بين المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم الجاهلية³.

هـ/ موقف قريش من هجرة الحبشة: روى الإمام أحمد عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدتين وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم فجمعوا له أدمًا كثيرًا ولم يتركو من بطارفته بطريقاً إلا أهدوا له هديته ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وأمروها أمرهم وقالوا لهما اذفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم ثم قدموا للنجاشي هداياهم ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم قالت فخرجنا فقدمنا على النجاشي ونحن عنده بجبر دار وعند خير جار فلم يبق من بطارفته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي... ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له أيها الملك إننا قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارتوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لترددهم إليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه قالت ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم فقالت بطارفته حوله صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم قال فعضب النجاشي ثم قال لا ها الله ايم الله إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاوروني ونزلوا بلادني واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ماذا يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم

¹ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري: ج7، ص227

² منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص50

³ المرجع نفسه، ص50

إِلَى قَوْمِهِمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا وَأَحْسَنْتُ جَوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي قَالَتْ ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَاهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا وَمَا أَمَرْنَا بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ فَلَمَّا جَاءُوهُ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيَّ أَسَافَقْتُهُ فَشَرُّوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلْتُهُمْ فَقَالَ مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارِقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ قَالَتْ فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسيءُ الْجَوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَقَابَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنُخَلِّعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَخْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَدَّوْنَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيُرِدُونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْحَبَائِثِ فَلَمَّا فَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جَوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظَلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ نَعَمْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ فَأَقْرَأْهُ عَلَيَّ فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كَهَيْعِصِ قَالَتْ فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَبَكَتْ أَسَافِقْتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مَشْكَاتٍ وَاحِدَةٍ انْطَلِقًا فَوَاللَّهِ لَا أَسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلَا أُكَادُ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَاللَّهِ لَأَتَّبِعَنَّ هُمْ عِدًّا عَيْبُهُمْ عِنْدَهُمْ ثُمَّ اسْتَأْصَلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ أَتَقَى الرَّحْلَيْنِ فِينَا لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ هُمْ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا قَالَ وَاللَّهِ لِأُخْرِجَنَّ عَنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ قَالَتْ ثُمَّ عَدَا عَلَيْهِ الْعَدَاةَ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا فَأُرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْتُهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ قَالَتْ فَأُرْسِلْ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ قَالَتْ وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ قَالَتْ فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا ثُمَّ قَالَ مَا عَدَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مَا قُلْتِ هَذَا الْعُودَ فَتَنَاخَرَتْ بِطَارِقَتِهِ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ فَقَالَ وَإِنْ نَحَزْتُمْ وَاللَّهِ أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي وَالسُّيُومُ الْأَمْنُونَ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمْ ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمْ فَمَا أَحِبُّ أَنْ لِي دَبْرًا ذَهَبًا وَأَيُّ آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ وَالذَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَأَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأَطِيعَهُمْ فِيهِ قَالَتْ فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَ بِهِ وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ قَالَتْ فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ يَعْني مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا حُرْثًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُرْنِ حَرْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ قَالَتْ وَسَارَ النَّجَاشِيُّ

وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ النَّبْلِ قَالَتْ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَجُلٍ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقَعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْحَبْرِ قَالَتْ فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ أَنَا قَالَتْ وَكَانَ مِنْ أَحَدِثِ الْقَوْمِ سِنًا قَالَتْ فَتَفَخُّوا لَهُ قَرِيبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ثُمَّ سَبَّحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النَّبْلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ قَالَتْ وَدَعَوْنَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ وَالتَّمَكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ وَاسْتَوَسَّقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبْشَةِ فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرٍ مَنَزِلٍ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِمَكَّةَ¹.

إن مبادرة قريش لاستعادة المهاجرين، تدل على إدراكها لخطورة الموقف، إذا حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيه، والحبشة نصرانية وملكها عُرف بالعدل وهي قريبة من مكة، وذلك يشكل خطرا على قريش في المستقبل².

المرحلة الثالثة: خصائص ومميزات هذه المرحلة [6-10] من البعثة

أولاً: إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب-رضي الله عنهما- ونتائجه

أ/ إسلام حمزة وعمر-رضي الله عنهما-

1/ إسلام حمزة

* /سبب إسلامه: وكان سبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له يا أبا عمارة ولو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفا من أبي الحكم بن هشام وجده هاهنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعى ولم يقف على أحد معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشججه شجة منكراً ثم قال أتشتتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فرد ذلك علي إن استطعت، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا، وتم حمزة رضي الله عنه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه³.

¹ -مسند الإمام أحمد: كتاب: مسند أهل البيت، باب: حديث جعفر بن أبي طالب، رقم: 1649

² - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص174

³ - ابن هشام: السيرة النبوية، [ج2، 129-128]

*سنة إسلامه: أسلم حمزة قبل إسلام عمر بن الخطاب بثلاث أيام، وأواخر السنة السادسة من النبوة، والأغلب أنه أسلم في شهر ذى الحجة¹، وجاء في ظروف أشد حالات الأزمة، حيث كانت قريش تخطط لقتل النبي-صلى الله عليه وسلم- في أكثر من خطة².

2/إسلام عمر

*عمر قبل الإسلام: كان عمر قبل إسلامه شديدا على المسلمين، يشارك في تعذيب المستضعفين منهم ليردهم عن دينهم، ولم يسلم منه حتى أخته وزوجها، روى البخاري: عَنْ قَيْسٍ قَالَ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ بْنَ عَمْرٍو بْنَ نُفَيْلٍ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ يَقُولُ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنَّ عَمْرَ لَمُوْتِقِي عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَمْرٌ وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا ارْضَى لِلَّذِي صَنَعْتُمْ بِعُمَانَ لَكَانَ³، أي ربطه بسبب إسلامه إهانة له وإلزاما بالرجوع عن الإسلام، وكان السبب في ذلك أنه كان زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، وكان إسلام عمر متأخرا عن إسلام أخته وزوجها، لأن أول الباعث له على دخوله في الإسلام ما سمع في بيتها من القرآن⁴، وقد يؤس المسلمون من مجرد الطمع في إسلامه، عن أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر فوقف وهو على شركه، فقالت: وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا، قالت فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟ قلت نعم، والله لنخرجن في أرض من أرض الله، إذ آذيتونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرج، قالت فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا، قالت فجاء عامر بحاجتنا تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر أنفا ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت قلت نعم، قال لا يسلم الذي رأيت حتى حتى يسلم حمار الخطاب⁵، وقرر ذات يوم التخلص من صاحب الدعوة نفسه فقيل بأنه خرج من بيته متوحشا سيفه، ويريد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورهطا من أصحابه، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين من بين رجال ونساء، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقية نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ قال أريد محمدا هذا الصائب الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله⁶.

¹ -المباركفوري صفي الدين: الرحيق المختوم [ص 79]

² -منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 61

³ -صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: إسلام سعيد بن زيد، رقم: 3573، وكتاب: الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم: 6429

⁴ -فتح الباري، ج 7، ص 214+ج 12، ص 330

⁵ -ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 32-33

⁶ -المصدر نفسه، ج 2، ص 34

* /دعاء النبي- صلى الله عليه وسلم- لعمر بالإسلام: روى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك يا أي جهل أو بعمر بن الخطاب قال وكان أحبهما إليه عمر¹.

* /سبب إسلام عمر بن الخطاب: روى الإمام أحمد: عن شريح بن عبيد قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبني إلى المسجد فممت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال فقلت هذا والله شاعر كما قالت قریش قال فقرأ {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)}² إلى آخر السورة قال فوقع الإسلام في قلبي كل موقِع³.

وواضح تماما أن سبب إسلام عمر هو سماعه القرآن الكريم في هذه المرة، ومرة أخرى في بيت أخته، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم له، ووردت القصة فيما أخرجه الدارقطني عن أنس قال خرج عمر متقلدا السيف فلقبه رجل من بني زهرة فذكر قصة دخول عمر على أخته وإنكاره إسلامها وإسلام زوجها سعيد بن زيد وقراءته سورة طه ورغبته في الإسلام فخرج خباب فقال أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك اللهم أعز الإسلام بعمر أو بعمر بن هشام⁴، وفي حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام، زاد أبو كريب في حديثه: فأصبح عمر فعدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم يومئذ⁵.

* /إسلام عمر في السنة السادسة من البعثة: لما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- وشرفه ربه بالرسالة، كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- في السابعة والعشرين من عمره، ودعي إلى الإسلام ولكنه لم يجب في البداية، ولما رأى بعد ذلك شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحملهم الأذى في سبيله، وهجرة البعض منهم بعد ذلك إلى الحبشة فرارا بدينهم، كما أن أخته فاطمة سبقتة إلى الإسلام مع زوجها، ولما سمع القرآن في بيتها تأثر بما سمع، ولم يتمالك نفسه حتى اضطلع على آيات مما نزل من القرآن وكان كاتبها، فأعلن إسلامه في السنة السادسة للدعوة، وقد جعل ابن إسحاق إسلام عمر بعد هجرة الحبشة⁶.

¹ - سنن أبو داود: كتاب المناقب عن رسول الله، باب: في مناقب عمر بن الخطاب، رقم: 3614

² - سورة الحاقة، الآيات: 40-47

³ - مسند أحمد: كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب، رقم: 102

⁴ - المباركفوري أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، [ج10/116]

⁵ - الطبراني: المعجم الكبير، [ج9/453]

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج7/182]

*موقف قريش من إسلام عمر بن الخطاب: لقد كان رد فعل قريش عنيفا أمام حادثة إسلام عمر بن الخطاب، حيث اجتمعوا على قتله¹، روى البخاري: عن زَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ بَيْنَمَا هُوَ فِي الدَّارِ خَائِفًا إِذْ جَاءَهُ الْعَاصِ بْنُ وَائِلِ السَّهْمِيُّ أَبُو عَمْرٍو عَلَيْهِ حُلَّةٌ حَبْرَةٌ وَقَمِيصٌ مَكْفُوفٌ بِحَرِيرٍ وَهُوَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ وَهُمْ حُلَفَاؤُنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ لَهُ مَا بِأَلَيْكَ قَالَ زَعَمَ قَوْمُكَ أَنَّهُمْ سَيَقْتُلُونِي إِنْ أَسْلَمْتُ قَالَ لَا سَبِيلَ إِلَيْكَ بَعْدَ أَنْ قَالَهُمَا أَمِنْتُ فَخَرَجَ الْعَاصِ فَلَقِيَ النَّاسَ قَدْ سَأَلَ بِهِمُ الْوَادِي فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُونَ فَقَالُوا تُرِيدُ هَذَا ابْنُ الْخَطَّابِ الَّذِي صَبَا قَالَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ فَكَّرَ النَّاسُ².

*نتائج إسلام عمر بن الخطاب: روى البخاري: عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود قَالَ مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ³، وروى الطبراني عن القاسم قال قال عبد الله: إن إسلام عمر كان فتحا وإن هجرته كانت نصرا وإن إمارته كانت رحمة والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر⁴، ومن حديث ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: اللَّهُمَّ أَيْدِ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ بِأَبِي جَهْلٍ بنِ هِشَامٍ، زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ فِي حَدِيثِهِ: فَأَصْبَحَ عُمَرُ فَعَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَ يَوْمَئِذٍ⁵.

فكانت للمسلمين به قوة، وذهب يكفر عن أخطائه ومشاركته في تعذيب المستضعفين، وليعز الإسلام والمسلمين بطريقته، فوقف في البيت الحرام متحديا كبار قادة قريش ومغيضا لهم، وأعلن على الملأ إسلامه وتصديقه بالإسلام، وتحمل الأذى في سبيل ذلك لينال ويلحق أجر من سبقه، روى الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: كان إسلام عمر عزا، وهجرته نصرا وإمارته رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر، ولا زال منذ أسلم يحث النبي -صلى الله عليه وسلم- على الظهور والخروج حتى خرج وجهه بالدعوة، عن ابن عباس قال: سألت عمر: لأي شيء سميت "الفاروق"؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدري للإسلام فقلت: الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فما في الأرض نسمة أحب إلي من نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: أين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت أختي: هو في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، فأتيت الدار وحمزة في أصحابه جلوس في الدار ورسول الله صلى الله عليه وسلم في البيت: فضربت الباب، فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع ثيابي ثم نترني نتره فما تمالكت أن وقعت على ركبتي فقال: "ما أنت بمنته يا عمر!" فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد فقلت: يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: "بلى!" "والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم!" قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن فأخرجناه في صفيين: حمزة في أحدهما

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص180

² - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مناقب عمر بن الخطاب، رقم: 3575

³ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي، رقم: 3408

⁴ - الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني: المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، ط2، 1404هـ/1983م،

[ج9/162]

⁵ - الطبراني: المعجم الكبير، [ج9/453]

وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، فنظرت إلي قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها¹، وكمل به عدد المسلمين عدتهم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار الأرقم المخزومي عند الصفا قبل كمال المسلمين أربعين رجلا بها، ولما أسلم أكملوا أربعين بعمر رضي الله عنه².

وروى ابن سعد أيضا من حديث صهيب قال: لما أسلم عمر قال المشركون انتصف القوم منا³.

وكانت له مواقفه الخاصة والتميزة في ميدان الشجاعة والعزة، وخاصة أثناء الهجرة والغزوات، ولما توفى رسول الله -ص- كان له شرف تقديم الصديق للبيعة وكان من أوائل المبايعين له بالخلافة، وأبلى في ذلك بلاء حسنا، وتولى الخلافة بعده مباشرة بعد وفاته يوم 22 من جمادى الثانية سنة 13هـ [23 أغسطس 634م]، وقد قال له ابن عباس: أليس قد دعا رسول الله أن يعز الله بك الدين والمسلمين إذ يخافون بمكة فلما أسلمت كان إسلامك عزا وظهر بك الإسلام ورسول الله وأصحابه وهاجرت إلى المدينة فكانت هجرتك فتحا ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله من قتال المشركين من يوم كذا ويوم كذا ثم قبض رسول الله وهو عنك راض فوازرت الخليفة بعده على منهاج رسول الله فضربت من أدبر بمن أقبل حتى دخل الناس في الإسلام طوعا أو كرها ثم قبض الخليفة وهو عنك راض ثم وليت بخير ما ولى الناس مصر الله بك الأمصار وجي بك الأموال ونفى بك العدو وأدخل الله بك على كل أهل بيت من توسعهم في دينهم وتوسعهم في أرزاقهم ثم ختم لك بالشهادة فهنيئا لك⁴.

ولقد عز الإسلام بعمر من حيث أنه حمل هذا الدين جهرة وتحدى به وصارع من أجله، وبإسلامه وإسلام حمزة ووجد وضع جديد بمكة⁵.

ب/ الجهر بالأتباع والخروج من دار الأرقم

1/ بلوغ المسلمين الأربعين: كان الجهر بالمسلمين وإعلانهم الإسلام نتيجة لإسلام عمر وبلوغ المسلمين به الأربعين، روى ابن أبي خيثمة من حديث عمر نفسه قال: (لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تسعة وثلاثون رجلا فكملتهم أربعين، فأظهر الله دينه، وأعز الإسلام)، وروى البزار من حديث ابن عباس وقال فيه (فنزل جبريل فقال: يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)، ويضاف إلى الأربعين المهاجرين إلى الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة⁶.

¹ - علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (975هـ): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تح: بكرى حياني - صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط5، 1401هـ/1981م، [ج12/551]

² - محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني الشهير بالبُرّي: الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة، ص576

³ - فتح الباري، ج7، ص59

⁴ - الطبراني: المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، 1415هـ، [ج1/181]

⁵ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص260

⁶ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص68

2/ الخروج من دار الأرقم بالأتباع: جاء عمر بن الخطاب إلى دار الأرقم حيث يخفي النبي -صلى الله عليه وسلم- أتباعه وأسلم بها، روى أبو جعفر بن أبي شيبه في تاريخه من حديث ابن عباس (فقلت يا رسول الله ففيم الاختفاء؟ فخرجنا في صنفين: أنا في أحدهما وحمزة في الآخر، فنظرت قريش إلينا فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها)¹

3/ بدأ مرحلة جديدة من الدعوة: وبإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، كان لهما الدور الأكبر في إنهاء مرحلة معينة وابتداء مرحلة جديدة، عندما عرض على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إعلان جهرية العبادة والقيام بتظاهرة علنية جماعية في مكة، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم -الظروف غدت مواتية، استجاب لرغبة الفاروق وخرج بالمسلمين في صنفين من دار الأرقم، وأعلن في مكة صوت الإسلام مدويا، ودخل الكعبة بالمسلمين، هذه الخطوة الحاسمة، أعطت حرية العبادة للمسلمين جميعا، وعجز المشركون أن يولوا دون ذلك، وأظهر من كان مستخفيا إسلامه، فكان إسلامهما منعظا جديدا في الدعوة الإسلامية، لأنه خطا بالدعوة من مرحلة الخوف والاضطهاد والتعذيب إلى مرحلة العلنية والحرية في العبادة².

ج/ ما كان يجهر به في هذه المرحلة

1/ الجهر بالقرآن في النوادي: جهروا في هذه المرحلة بالقرآن، ولم يكونوا قبل ذلك يقدرون على أن يجهروا به³.

2/ الجهر بالصلاة عند الكعبة: كان المسلمون لا يقدرون على الصلاة عند الكعبة حتى أسلم عمر⁴، روى الطبراني عن القاسم قال قال عبد الله: إن إسلام عمر كان فتحا وإن هجرته كانت نصرا وإن إمارته كانت رحمة والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر⁵.

3/ البحث ججها عمن ينصره ويأويه: روى الإمام أحمد عن جابر قال مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَجَنَّةٍ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِئَى يَثُورٍ مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رَسُولَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ أَوْ مِنْ مَضَرَ كَذَا قَالَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ اخَذَرُ غُلَامٌ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ وَبِمَشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ⁶.

4/ ما تم تحقيقه في هذه المرحلة: ما تحقق في هذه المرحلة هو الحصول على حرية العبادة والدعوة وإعلان ظهور من كان مستخفيا، فحصل المسلمون على حق الدخول إلى الكعبة والصلاة فيها، وحق التجمع حولها ودعوة الناس للإسلام، وكان هذا

¹ - فتح الباري، ج7، ص59

² - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص64

³ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص246

⁴ - المرجع نفسه، ص246

⁵ - الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني: المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، ط2، 1404هـ/1983م،

[ج9/ 162]

⁶ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند جابر بن عبد الله، رقم: 13934

نصرا عظيما للإسلام وخطوة على الطريق، لقد قاد هذا لانقلاب في الأمور، إلى زيادة في التميز والمفاصلة، وصار المسلمون قادرون على إعلان عبادتهم وحقيقة مبادئهم للناس جميعا، وإعلان أنفسهم وهويتهم ودينهم¹.

ثانيا: أحداث ووقائع هذه المرحلة

أ/عزم قريش على قتل النبي-صلى الله عليه وسلم- وحصار الشعب [7-10] من البعثة: ترتب على إسلام حمزة وعمر وضعا جديدا²، وفشلت قريش في استعادة المهاجرين من الحبشة³، مما جعلها تفكر في حربها على الإسلام في وسائل جديدة⁴، وأجمعت أمرها جادة على قتل رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، فأجمع بنو عبد المطلب أمرهم على أن يدخلوا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- شعبهم ويجموه فيه، فدخلوا الشعب جميعا مسلمهم وكافرهم⁵، وتعاقدت قريش على بني المطلب وبني هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم حتى يسلموهم رسول الله-صلى الله عليه وسلم- للقتل، وكتبوا في ذلك الصحيفة⁶ وعلقوها في جوف الكعبة⁷، وكان ذلك في بداية السنة السابعة للبعثة واستمر ثلاث سنوات، وانتهى في الحرم من السنة العاشرة، على يد رجال من قريش أجمعوا على نقض الصحيفة، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن الحارث العامري⁸، وكذلك المطعم بن عدي، وكان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصروهم في الشعب⁹.

ب/أثر الحصار: لما دخل بنو هاشم وبنو عبد المطلب الشعب، قطعت قريش عنهم الأسواق حتى كان يسمع صوت أبنائهم ونسائهم يضاعون من وراء الشعب من الجوع¹⁰، واشتد عليهم البلاء والجهد، روى البخاري عن سعد قال رأيتني سابع سبعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الحنبلية أو الحنبلية حتى يصنع أحدنا ما تصنع الشاة ثم أصبحت بنو أسد تغزوني على الإسلام خسرت إذا وضل سعيي¹¹.

¹ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 65

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 248

³ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 182

⁴ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 248

⁵ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 182

⁶ - المصدر نفسه، نفس الصفحة

⁷ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 83

⁸ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 263

⁹ - فتح الباري، ج 7، ص 376

¹⁰ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 83

¹¹ - صحيح البخاري: كتاب الأطعمة، باب: ما كان النبي وأصحابه يأكلون، رقم: 4992

وروى مسلم عن خالد بن عمير العدوي قال خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ... ولقد رأيته سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى فرحت أشداقنا فالتقطت بزدة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فأتزرت بنصفها وأتزر سعد بنصفها فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً فستحببون ويحربون الأمراء بعدنا¹.

ج/دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- على قريش بسبع كسبع يوسف: روى الترمذي عن مسروق قال جاء رجل إلى عبد الله فقال ... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى قريشاً استعصموا عليه قال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة فأحصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة وقال أحدهما العظام قال وجعل يخرج من الأرض كهيئة الدخان فأتاه أبو سفيان فقال إن قومك قد هلكوا فادع الله لهم قال فهذا لقوله {يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَعشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11)}² قال منصور هذا لقوله {رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12)}³ فهل يكشف عذاب الآخرة قد مضى البطشة والذخا والذخا وقال أحدهم القمر وقال الآخر الروم قال أبو عيسى والذخا يعني يوم بدر⁴.

أي أن قومه أظهروا العصيان ولم يتركوا الشرك، فدعى عليهم بسبع سنين فيها جدد وقحط، فأخذتهم سنة فستاصلت كل شيء وأذهبت، وفي رواية أخرى: فكان يقوم أحدهم فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان من الجهد والجوع، قال الحافظ: يخرج من الأرض بخار كهيئة الدخان من شدة حرارة الأرض ووهجها من عدم الغيث وكانوا يرون بينهم وبين السماء مثل الدخان من فرط حرارة الجوع، أو الذي كان يخرج من الأرض بحسب تخيلهم ذلك من غشاوة أبصارهم من فرط الجوع، فأنزل الله تعالى قوله: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10)}⁵ فقالوا: {رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12)}⁶ وهو القحط الذي أكلوا فيه الميتات والجلود⁷.

¹ -صحيح مسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب: باب، رقم: 5268

² - سورة الدخان، الآية: 10، 11

³ - سورة الدخان، الآية: 12

⁴ - سنن الترمذي: كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة الدخان، رقم: 3177

⁵ - سورة الدخان، الآية: 10

⁶ - سورة الدخان، الآية: 12

⁷ - المباركفوري: تحفة الأحوذى، ج 9، ص 96

د/عام الحزن: كانت فكرة المقاطعة محنة جديدة استمرت ثلاث سنين، أُنْهَكَ فيها أبو طالب وخديجة فتوفيا على إثرها¹، فكانت وفاة عمه مبعث حزن عميق في نفسه، ووفاة خديجة في نفس السنة وهي التي كانت تخفف عنه همومه وأحزانه، فلما ماتت حزن عليها حزنا شديدا، حتى سمي هذا العام الذي اجتمعت فيه وفاتهما بعام الحزن².

1/ وفاة عمه: وحرص النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يموت عمه على الإسلام، روى البخاري عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةَ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغْبِرَةِ فَقَالَ أَيُّ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ أَنْزَعَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُكِرْ فَانزَلَ اللَّهُ {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ (113)}³ وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ⁴ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)}⁵.

وفي هذا إشكال لأن وفاة أبي طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقا، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية، أخرج الحاكم وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فواجه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه، فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، واستأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل علي: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى (113)}⁶، وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة أبي طالب، ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم، ويكون لنزولها سببان: متقدم وهو أمر أبي طالب ومتأخر وهو أمر أمه، فإن ذلك يقتضي تأخير النزول وإن تقدم السبب، ويشير إلى ذلك أيضا قوله في حديث الباب: "وأنزل الله في أبي طالب: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ"⁷ لأنه يشعر بأن الآية الأولى نزلت في أبي طالب وفي غيره والثانية نزلت فيه وحده⁸.

¹ - سعيد جوى: الأساس في السنة، ص 261

² - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص 31

³ - سورة التوبة، الآية: 113

⁴ - صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: قوله إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، رقم: 4399

⁵ - سورة القصص، الآية: 56

⁶ - سورة التوبة، الآية: 113

⁷ - سورة القصص، الآية: 56

⁸ - فتح الباري، ج 8، ص 367-368

كانت وفاة أبي طالب وخديجة في أيام متقاربة في عام واحد في السنة العاشرة من البعثة، فتوفى في شهر رجب وجاوز الثمانين من عمره¹، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معلومات حتى أصابه مرض الوفاة، وتوفيت خديجة بعده بشهرين، والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ في نحو الخمسين.

2/ وفاة خديجة: وتوفيت خديجة بعد أبي طالب بشهرين، فكانت وفاتها في شهر رمضان من السنة العاشرة للبعثة ولها خمس

وستين سنة²، وماتت قبل أن تفرض الصلاة³، روى البخاري: عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ تُوفِّيَتْ خَدِيجَةُ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ وَنَكَحَ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ ثُمَّ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ⁴.

و/جرأة سفهاء قريش على النبي-صلى الله عليه وسلم- بعد وفاة عمه: لما توفى أبو طالب وكان يوفر الحماية لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-، تجرأ عليه من كان يهابه من سفهاء قريش⁵، وأكثر روايات الإيذاء وقعت في هذه المرحلة، مما اضطره للخروج إلى الطائف⁶، فإن موت عمه أفقده سنداً كبيراً، فلم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقديم نفس القدر من الحماية⁷.

ثالثاً: موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة

أ/ شدة الأذى لرسول الله-صلى الله عليه وسلم- وخروجه للطائف: لما توفى أبو طالب، تجرأ عليه سفهاء قريش⁸، وزادت المحنة على الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وبدأت قريش بالإيذاء المباشر له، روى أبو داود عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو بن العاصي قلت: أخبرني بأشدّ شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: نعم، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي المعيط، فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه به خنقاً شديداً، فقال: فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن رسول الله⁹، وقال: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ (28)¹⁰؟، فكان من آثار ذلك رحلة الطائف للدعوة هناك¹¹ وطلب النصرة.

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص273

² - المرجع نفسه، ص273

³ - فتح الباري، ج1، ص38

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: تزويج النبي عائشة وقدمها المدينة وبنائه بها، رقم: 3607

⁵ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص31

⁶ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص273

⁷ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص184

⁸ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص31

⁹ - محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني: الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة، ج1، ص41

¹⁰ - سرّة غافر، الآية: 28

¹¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص261

ب/تشديد الأذى بالمسلمين خارج الشعب: كما اشتدت قريش على من أسلم ممن لم يدخل الشعب وعظمت عليهم المحنة، وزلزلوا زلزالا شديدا¹.

ج/تشويه الدعوة والداعية: كانت قريش تشوه سمعة الرسول-صلى الله عليه وسلم- لدى الوافدين إلى مكة للحج أو التجارة²، فكانوا يرمونه بالسحر والجنون وغيرها، روى مسلم عن ابن عباسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَرْدِ شُنُوءَةً وَكَانَ يَرْتَقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ فَقَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَيَّ يَدِي قَالَ فَلَقِيَهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْتَقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَيَّ يَدِي مِنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَا بَعْدُ قَالَ فَقَالَ أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَ فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكُهَّانَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ وَلَقَدْ بَلَغَنَّا نَاعُوسَ الْبَحْرِ قَالَ فَقَالَ هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ قَالَ فَبَايَعَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى قَوْمِكَ قَالَ وَعَلَى قَوْمِي قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْحَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً فَقَالَ رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ ضِمَادٌ³.

د/المفاوضات والإغراء: وهذه الوسيلة لم تلجأ إليها قريش إلا بعد أن سدت عليهم المنافذ بإسلام عمر وحزمة، ووجدوا خطر المسلمين قد استفحل، فعقد المؤتمر لإنهاء المشكلة مع محمد-صلى الله عليه وسلم⁴، روى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قال أبو جهل والملاء من قريش لقد انتشر علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة: لقد سمعت بقول السحرة والكهانة والشعر وعلمت من ذلك علما، وما يخفى علي إن كان كذلك، فأتاه فلما أتاه قال له عتبة: يا محمد، أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فلم يجبه قال: فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا، فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك، فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)»⁵، فقرأ حتى بلغ {أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحُودٍ (13)}¹، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم².

¹ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص83

² - المرجع نفسه، ص90

³ - صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم: 1436

⁴ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص77

⁵ - سورة فصلت، الآيات: 1-2-3

فعرضوا عليه أن يغنوه بالأموال ويملكوه³ عليهم إن هو قبل ترك الدعوة للإسلام، واستطاع النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد مفاوضته زعماء قريش، تحييد عتبة بن ربيعة وانسحب وراءه أكبر تجمع قبلي بعد بني مخزوم هم بنو أمية، واستطاع بذلك أن يخفف من تكالب الأعداء على دعوة الإسلام⁴، ورفض النبي صلى الله عليه وسلم- كل العروض قبل الاعتراف برسالته والكتاب الذي أنزل عليه، أن يعترفوا بالإسلام شرعا وحكما، ويطبقوا مبادئه ويحكموه فيما شجر بينهم، لأنه لا يريد الحكم لشخصه هو، وإنما يريد الحكم لهذا الدين⁵ الجديد الذي بعث به.

وفي هذا تمحيص وتدقيق في حقيقة الدعوة التي قام بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتمييز لها عن كل ما قد يلتبس بها من الأهداف والأغراض التي قد يضمها في أنفسهم عادة أرباب الدعوات الجديدة والمنادون بالثورة والإصلاح، فهل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يضم من وراء دعوته الوصول إلى ملك أو الزعامة والغنى، لقد سخر الله عتبة بن ربيعة وأمثاله، لحمل هذه الدوافع والآمال ووضعها بين يديه، لينالها قريبة سائغة فلم يلب لهم، ولم يتحول إلى هذه الغنيمة التي سبقت إليه، لأنه لم تكن هي الدافع له من وراء رسالته ودعوته⁶.

ه/فرض الحصار: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم من الغد يوم النحر وهو يومئذ نخي نازلون غدا يخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر يعني ذلك المخصب وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أو بني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم⁷.

كما روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ننزل غدا إن شاء الله يخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر⁸، ومعنى تقاسموا على الكفر تحالفوا وتعاهدوا عليه، وهو تحالفهم على إخراج النبي صلى الله عليه وسلم وبني هاشم وبني المطلب من مكة إلى هذا الشعب، وكتبوا بينهم الصحيفة المشهورة، وكتبوا فيها أنواعا من الباطل وقطيعة الرحم والكفر، فأرسل الله تعالى عليها الأرضة فأكلت كل ما فيها من كفر وقطيعة رحم وباطل، وتركت ما فيها من ذكر الله تعالى، فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب فجاء إليهم أبو طالب فأخبرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فوجدوه كما أخبر⁹.

¹-سورة فصلت، الآية:13

²- البيهقي: دلائل النبوة، [ج2/ 78]

³- مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص27

⁴- المصدر نفسه، ص80

⁵- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص77-78

⁶- سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص82-83

⁷- صحيح البخاري: كتابالحج، باب: نزول النبي مكة، رقم:1487

⁸- صحيح مسلم: كتاب:الحج، باب: استحباب النزول بالمخصب يوم النفر والصلاة به، رقم:2315

⁹- النووي أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط2، 1392هـ، [ج9/ 62]

أولا/ظروف الدعوة في هذه المرحلة

أ/فقدان النبي -صلى الله عليه وسلم- الحماية بوفاة عمه: فإن موت عمه أفقده سندا كبيرا، فلم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقديم نفس القدر من الحماية¹ له، فكان عليه أن يفكر في طرق ووسائل جديدة يضمن بها الحماية والاستمرار لدعوته.

ب/وصول الدعوة إلى طريق مسدود: في العام العاشر من البعثة وصلت الدعوة إلى حد وقفت عنده، فقد استقر الوضع في مكة بين مستحيب ومعارض، وقرر النبي-صلى الله عليه وسلم- أن يحرك هذا الجمود فخرج إلى الطائف².

ج/عرض النبي-صلى الله عليه وسلم- نفسه على القبائل: كان النبي-صلى الله عليه وسلم- يستغل موسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة ويعرض نفسه عليهم، ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعد موت أبي طالب قد خرج إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى نصره فلما امتنعوا منه رجع إلى مكة فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج، وذكر أنه أتى كندة وبني كعب وبني حذيفة وبني عامر بن صعصعة وغيرهم، فلم يجبه أحد منهم إلى ما سأل، وقال موسى بن عقبة عن الزهري: (فكان في تلك السنين -أي التي قبل الهجرة - يعرض نفسه على القبائل، ويكلم كل شريف قوم، لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول: لا أكره أحدا منكم على شيء، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالة ربي، فلا يقبله أحد بل يقولون: قوم الرجل أعلم به)، وأخرج البيهقي وأحمد وصححه ابن حبان من حديث ربيعة بن عباد قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق ذي الحجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل)³

وروى الإمام أحمد عن جابر قال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ وبجدة وفي المواسم بمكة يقول من يؤوبني من ينصرتني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر كذا قال فيأتيه قومه فيقولون احذر غلام قرئش لا يفتنك ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع⁴، وكاد النبي صلى الله عليه وسلم أن يلقى الاستجابة من بعض القبائل، روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول هل من رجل يحملي إلى قومه فإن قرئشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل فأثاه رجل من همدان فقال ممن أنت فقال الرجل من همدان قال فهل عند قومك من منعة قال نعم ثم إن الرجل خشي أن يخبره قومه فأثى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قايل قال نعم فأنطلق وجاء وفد الأنصار في رجب⁵.

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 184

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 278

³ - فتح الباري، ج 7، ص 260

⁴ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند جابر بن عبد الله، رقم: 13934

⁵ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: باقي المسند السابق، رقم: 14659

د/لجونه إلى الطائف وإسلام عداس: كانت الرحلة إلى الطائف على إثر اشتداد مقاومة قريش للدعوة عقب وفاة أبي طالب، فسعى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصر من ثقيف¹، وذكر ابن سعد أن ذلك كان في شوال سنة عشر من المبعث، وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة، قال البيهقي: لما توفي أبو طالب ارتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد ما كان، فعمد لثقيف بالطائف رجاء أن يأووه، فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف يومئذ وهم إخوة: عبد ياليل بن عمرو، وحبيب بن عمرو، ومسعود بن عمرو، فعرض عليهم نفسه، وشكا إليهم البلاء وما انتهك منه قومه، فقال أحدهم: أنا أمرق أستار الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط، وقال الآخر: أعجز الله أن يرسل غيرك، وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا أبدا، والله لئن كنت رسول الله لأنت أعظم شرفا وحقا من أن أكلمك، ولئن كنت تكذب على الله لأنت أشر من أن أكلمك، وتهزءوا به وأفشوا في قومهم الذي راجعوه به، وقعدوا له صفيين على طريقه، فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفيهم جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدوها حتى أدموا رجله، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء، فعمد إلى حائط من حوائطهم، واستظل في ظل جبلة منه، وهو مكروب موجع، تسيل رجلاه دما، فإذا في الحائط عقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فلما رأهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما الله ورسوله، فلما رأياه أرسلاه إليه غلاما لهما يدعى عداسا وهو نصراني من أهل نينوى معه عنب، فلما جاءه عداس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أي أرض أنت يا عداس؟» قال له عداس: أنا من أهل نينوى، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى، فقال له عداس: وما يدريك من يونس بن متى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لا يحقر أحدا أن يبلغه رسالة ربه: «أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خير يونس بن متى»، فلما أخبره بما أوحى الله عز وجل من شأن يونس بن متى، خر عداس ساجدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء، فلما أبصر عقبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكنا، فلما أتاهما، قال: ما شأنك سجدت لمحمد، وقبلت قدميه، ولم نرك فعلته بأحد منا؟ قال: هذا رجل صالح، أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى، فضحكا به، وقالوا: لا يفتنك عن نصرانيتك، فإنه رجل خداع، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة².

وأفاد ابن سعد أن مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بالطائف كانت عشرة أيام، وذلك لما وصلت الدعوة في مكة إلى طريق مسدود، والمسلمون موزعون بين الحبشة مشردين ومكة مضطهدين، دون أمل في تغيير الواقع القائم، فكان لابد من البحث عن مكان جديد تنطلق منه الدعوة، وكان أقرب المواقع لمكة ثقيف في الطائف³، وكان هدفه الأول دعوة ثقيف إلى الإسلام، والثاني طلب الحماية والنصرة، وكانت الحماية والنصرة السابقة بناء على عرض المشركين، وليست بناء على طلبه، فأبو طالب هو الذي وفر الحماية في هذه المرحلة، وهذه المرة الأولى التي يخرج فيها خارج مكة ويفكر في تغيير مركز الانطلاق، وإن كان قد هيا له مركزا

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 184

² - البيهقي: دلائل النبوة، [ج 288/2]

³ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 99

احتياطيا في الحبشة، غير أن الحبشة لا تصلح إلا عند الضرورة القاهرة، لأن الحبشة بعيدة عن الجو العربي، ولا بد أن تكون القاعدة الصلبة للانطلاق من قومه، ليتمكن قبولهم من بقية العرب، وثقيف لا تقل أصالة عن قريش في الحسب والنسب والمنعة، وهي الأنسب كبديل عن مكة¹.

وهذا دليل على التصميم الجازم على الاستمرار في دعوته وعدم اليأس من عدم استحابة الناس لها، وبحث عن ميدان جديد للدعوة بعد أن قامت الحواجز دونها في ميدانها الأول².

ه/موقف أهل الطائف من الدعوة: كان موقف أهل الطائف محنة جديدة، جعلها النبي-صلى الله عليه وسلم- أشد من هزيمة أحد، روى البخاري: عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا³.

وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف، روى عبد بن حميد في تفسيره عن مجاهد في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ﴾⁴، قال نزلت في عتبة بن ربيعة وابن عبد ياليل الثقفي، وذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب أنه صلى الله عليه وسلم لما مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤووه، فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم وهم إخوة عبد ياليل وحبيب ومسعود بنو عمرو، فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم ما انتهك منه قومه⁵، فردوا عليه أقبح رد⁶.

و/عودته إلى مكة في جوار المطعم بن عدي: روى البخاري عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بِنِ عَدِيِّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَنِ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ⁷، والسبب في ذلك ما وقع منه حين رجع

¹ -المصدر نفسه، ص99-100

² - مصطفي السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص33

³ - صحيح البخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم: 3231

⁴ -سورة الزخرف، الآية: 31

⁵ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص143

⁶ -فتح الباري، ج6، ص363

⁷ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدرا، رقم: 3720

النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي زعيم بني نوفل بن عبد مناف، ذُكر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف من الطائف مريدا مكة مرّ به بعض أهل مكة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل أنت مبلغ عني رسالة أرسلك بها؟" قال: نعم... قال: "إئت المطعم بن عدي فقل له: إن محمدا يقول لك: هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالات ربي؟"، قال: نعم فليدخل، قال: فرجع الرجل إليه فأخبره، وأصبح المطعم بن عدي قد لبس سلاحه وهو بنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد، فلما رآه أبو جهل قال: أجبير أم متابع؟ قال: بل مجير، قال: أجزنا من أجزت، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة فأقام بها¹، والقصة أوردها الفاكهي بإسناد حسن مرسل قال فيه: (أن المطعم أمر أربعة من أولاده فلبسوا السلاح، وقام كل واحد منهم عند ركن من الكعبة، فبلغ ذلك قريشا فقالوا له: أنت الرجل الذي لا تخفر ذمتك)²، ومات المطعم بن عدي قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة، وذكر الفاكهي بإسناد مرسل أن حسان بن ثابت رثاه لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي صلى الله عليه وسلم³.

ثانيا: أحداث وفرائض وتشريعات هذه المرحلة

أ/ إسلام الجن: عقد البخاري في صحيحه باب قال فيه: باب ذكر الجن⁴ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1)}⁵، ذكر ابن إسحاق أن استماع الجن كان بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف لما خرج إليها يدعو ثقيفا إلى نصره، وذلك بعد موت أبي طالب، وكان ذلك في سنة عشر من المبعث، كما جزم ابن سعد بأن خروجه إلى الطائف كان في شوال، فكان على الراجح قبل الهجرة بستين أو ثلاث، فتكون القصة بعد الإسراء⁶، أتاه داعي الجن فذهب معه وقرأ عليهم القرآن، أخرج مسلم عن عَلْقَمَةَ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ مَسْعُودٍ هَلْ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ فَقَالَ مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ وَلَكِنَّا قَدْ فَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَعَلْنَا اغْتِيْلَ اسْتُطِيرَ مَا فَعَلَ قَالَ فَبَشَّرَ لَيْلَةَ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ أَوْ قَالَ فِي السَّحْرِ إِذَا نَحْنُ بِهِ يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ فَعَلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَذَكَّرُوا الَّذِي كَانُوا فِيهِ فَقَالَ إِنَّهُ أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَأَتَيْتُهُمْ فَفَرَأْتُ عَلَيْهِمْ قَالَ فَأَنْطَلِقُ بِنَا فَأَرَانِي آثَارَهُمْ وَأَنَارَ نِيرَانِهِمْ⁷، ثم إن الجن تعددت وفادتهم على النبي -صلى الله

¹ - محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني: الجوهر في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة، ج1، ص32

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج7/ 324]

³ - فتح الباري، ج7، ص376

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: ذكر الجن

⁵ - سورة الجن، الآية:1

⁶ - فتح الباري، ج8، ص539

⁷ - صحيح مسلم، [ج1/ 332]، ومسند الصحابة في الكتب التسعة [ج25/ 385]

عليه وسلم-، ولما انتشرت الدعوة وأسلم من أسلم منهم، قدم منهم من قدم، فسمعوا وأسلموا وكان ذلك بين المهجرتين، ثم تعدد مجيئهم حتى في المدينة¹.

ب/رحلة الإسراء والمعراج

1/توقيت حادثة الإسراء والمعراج: اختلف في تحديد وقتها على عشرة أقوال، القول الأول على أن المعراج كان قبل الهجرة بسنة ونقل عن ابن سعد وبه جزم النووي، وعن ابن الجوزي أنه كان قبلها بثمانية أشهر، وعن أبي الربيع بن سالم قبلها بستة، وعن إبراهيم الحربي أنها في ربيع الأول قبل الهجرة بسنة ورجحه ابن المنير، وعن ابن عبد البر أنها قبل الهجرة بسنة وشهرين، وعن ابن فارس أنها قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، وعن السدي والطبري والبيهقي قبلها بسنة وخمسة أشهر، وقال ابن حزم كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة، وعن ابن قتيبة وابن عبد البر أنها كانت قبلها بثمانية عشر شهرا، وعن ابن سعد في رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا، وقيل في رجب كما عند ابن عبد البر وجزم به النووي، وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين عن ابن عبد البر².

2/قصة الإسراء والمعراج في القرآن وصحيح السنة: وردت قصة الإسراء في القرآن الكريم³ في قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(1)}⁴، وجاءت مفصلة في صحيح البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِهِ بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ وَرُبَّمَا قَالَ فِي الْحَجْرِ مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَدَّ قَالَ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ فَعُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِي مَا يَعْنِي بِهِ قَالَ مِنْ تُعْرَةَ نُحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ مِنْ قَصَبِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي ثُمَّ أَتَيْتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا فَعُغِصِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ ثُمَّ أَتَيْتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَعْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ فَقَالَ لَهُ الْجَارُودُ هُوَ الْبُرَاقُ يَا أَبَا حَمْرَةَ قَالَ أَنَسُ نَعَمْ يَضَعُ حَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ فَانْطَلَقَ بِي جَبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جَبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ فَنَعِمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ فَقَالَ هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالْإِنِّ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جَبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ فَنَعِمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الْحَالَةِ قَالَ هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جَبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ فَنَعِمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ قَالَ هَذَا يُوسُفُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جَبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ

¹ - فتح الباري، ج7، ص209

² - المصدر نفسه، ج7، ص242-243

³ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: حديث الإسراء، رقم: 3886

⁴ - سورة الإسراء، الآية: 1

الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها، وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصالحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك، قال القرطبي في المفهم: لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء لأن رواته ثقات مشاهير، وقد اشتملت هذه القصة من خوارق العادة على ما يدهش سامعه فضلا عما شاهدته، فقد جرت العادة بأن من شق بطنه وأخرج قلبه يموت لا محالة، ومع ذلك فلم يؤثر فيه ذلك ضررا ولا وجعا فضلا عن غير ذلك، قال ابن أبي جمرة: الحكمة في شق قلبه -مع القدرة على أن يمتلئ إيمانا وحكمة بغير شق- الزيادة في قوة اليقين، لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس وأعلاهم حالا ومقالا، وقيل الحكمة في الإسراء به راكبا مع القدرة على طي الأرض له إشارة إلى أن ذلك وقع تأنيسا له بالعادة في مقام حرق العادة، لأن العادة جرت بأن الملك إذا استدعى من يختص به يبعث إليه بما يركبه، وإظهار المعجزة بوقوع الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة، قيل ويؤخذ من ترك تسمية سير البراق طيرانا أن الله إذا أكرم عبدا بتسهيل الطريق له حتى قطع المسافة الطويلة في الزمن اليسير أن لا يخرج بذلك عن اسم السفر وتجري عليه أحكامه، وهو مشتق من البريق، فقد جاء في لونه أنه أبيض، أو من البرق لأنه وصفه بسرعة السير، أو من قولهم شاة برقاء إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سود، ولا ينافيه وصفه في الحديث بأن البراق أبيض لأن البرقاء من الغنم معدودة في البياض، روكوب البراق كان زيادة له في تشريفه لأنه لو صعد بنفسه لكان في صورة ماش، والراكب أعز من الماشي، وللنسائي وابن مردويه عن أنس موصولا وزاد (وكانت تسخر للأنبياء قبله)، وفيه دلالة على أن البراق كان معدا لركوب الأنبياء، قال النووي قال الزبيدي في مختصر العيني وصاحب التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق، وفي كتاب مكة للفاكهي والأزرقى (أن إبراهيم كان يحج على البراق)، وفي أوائل الروض للسهيلى (أن إبراهيم حمل هاجر على البراق لما سار إلى مكة بها وبولدها)، فهذه آثار يشد بعضها بعضا، وفي رواية ابن إسحاق (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج فلم أر قط شيئا كان أحسن منه، وهو الذي يمد إليه الميت عينيه إذا حضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء)، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي (حتى أتيت بيت المقدس فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين)، وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه زاد (ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أقيمت الصلاة فأتمتهم)، وفي حديث عمر عند أحمد (لما دخل بيت المقدس قال: أصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتقدم إلى القبلة فصلى)، قال عياض يحتمل أن يكون صلى بالأنبياء جميعا في بيت المقدس، ثم صعد منهم إلى السماوات من ذكر أنه صلى الله عليه وسلم رآه، ويحتمل أن تكون صلاته بهم بعد أن هبط من السماء فهبطوا أيضا، والأظهر أن صلاته بهم بيت المقدس كان قبل العروج، وفي حديث أنس عند مسلم أن في السماء الأولى آدم وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم، وقد اختلف في الحكمة في اختصاص كل منهم بالسماء التي التقاه بها، فقيل ليظهر تفاضلهم في الدرجات، وقيل: الحكمة في الاقتصار على هؤلاء المذكورين للإشارة إلى ما سيقع له صلى الله عليه وسلم مع قومه من نظير ما وقع لكل منهم، قال القرطبي: الحكمة في تخصيص موسى بمراجعة النبي صلى الله عليه

وسلم في أمر الصلاة لعلها لكون أمة موسى كلفت من الصلوات بما لم تكلف به غيرها من الأمم فنقلت عليهم، فأشفق موسى على أمة محمد من مثل ذلك، وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم قال: انتهى بي إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط فيقبض منها)، وقال النووي سميت سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال القرطبي في المفهم: ظاهر حديث أنس أنها في السابعة، قال: وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله أو من أعلمه، وقال غيره: إليها منتهى أرواح الشهداء، وذكر أن ثمرها في الكبر مثل القلال، قال ابن دحية: اختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل ممدود، وطعام لذيذ، ورائحة زكية، عن أنس قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رفعت لي سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار)، وإنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشببها لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة، وقال الكشيميهني في البيت المعمور (يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم)، وفي شربه اللبن قال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لأنه أول شيء يدخل بطن المولود ويشق أمعائه، والسر في ميل النبي صلى الله عليه وسلم إليه دون غيره لكونه كان مألوفاً له، ولأنه لا ينشأ عن جنسه مفسدة، ووقع عرض الآنية للشرب مرتين: مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس وسببه ما وقع له من العطش، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة، ثم فرضت علي الصلاة، والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء، أنه صلى الله عليه وسلم لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة وأن منهم القائم فلا يقعد والراكع فلا يسجد والساجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصلحها العبد، بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، وفي اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بياها، ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة بل بمراجعات تعددت، ولما رده موسى في المرة الأخيرة قال: سألت ربي حتى استحييت فلا أرجع، فإني إن رجعت صرت غير راض ولا مسلم، ولكني أرضى وأسلم، فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، وهذا من أقوى ما استدل به على أن الله سبحانه وتعالى كلم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بغير واسطة، وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ما لي لم آت أهل سماء إلا رحبوا وضحكوا إلي غير رجل واحد فسلمت عليه فرد علي السلام ورحب بي ولم يضحك إلي؟ قال: يا محمد ذاك مالك خازن جهنم، لم يضحك منذ خلق، ولو ضحكك إلى أحد لضحك إليك)، وفي حديث حذيفة عند أحمد والترمذي (حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار، ووعد الآخرة أجمع)، وفي حديث أبي سعيد (أنه عرض عليه الجنة، وإذا رماها كأنه الدلاء، وإذا طيرها كأنها البخت، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها)¹.

واشتملت الرحلة على معان عميقة دقيقة كثيرة، منها أنه صلى الله عليه وسلم- نبي القبلتين وإمام المشرقين والمغربين ووارث الأنبياء، وإمام الأجيال بعده، وصلى جميع الأنبياء خلفه، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه وصلاحتها

¹ - فتح الباري، ج7، ص242-257

لاختلاف المكان والزمان¹، وقد جاءت هذه المعجزة بعد المحن التي ابتلي بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لتجدد عزيمته ولتدل على أن هذا الذي يلاقه من قومه ليس سببه تخلي الله عنه، وإنما هي سنة الله مع أحبائه في كل عصر ومصر².

3/ موقف قريش من حادثة الإسراء والمعراج: روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبني قريش فمئت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفت أحرهم عن آياته وأنا أنظر إليه³، وروى البيهقي في الدلائل: عن أبي سلمة قال (افتتن ناس كثير -يعني عقب الإسراء- فجاء ناس إلى أبي بكر فذكروا له فقال: أشهد أنه صادق، فقالوا: وتصدقه بأنه أتى الشام في ليلة واحدة ثم رجع إلى مكة، قال: نعم، إني أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، قال: فسمي بذلك الصديق)⁴، وفي حديث ابن عباس عند أحمد والبخاري بإسناد حسن قال (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة مر بي عدو الله أبو جهل فقال: هل كان من شيء؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس، قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم، قال فإن دعوت قومك أتحدثهم بذلك؟ قال: نعم، قال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال فانفضت إليه المجالس حتى جاءوا إليهما فقال: حدث قومك بما حدثني فحدثتهم، قال فمن بين مصفق ومن بين واضح يده على رأسه متعجبا، قالوا وتستطيع أن تتعت لنا المسجد)، ووقع في حديث شداد بن أوس عند البخاري والطبراني (أنه مر في رجوعه بعير لقريش فسلم عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد، وفيه أنه أعلمهم بذلك وأن عيرهم تقدم في يوم كذا، فقدمت الظهر يقدمهم الجمل الذي وصفه)، فلما أنكرت قريش الخبر فحلى الله لنبيه بيت المقدس وكشف الحجب بينهما رآه، ووقع في حيث أم سلمة عند مسلم: (قال فسألوني عن أشياء لم أثبتها، فكرت كريا لم أكره مثله قط، فرفع الله لي بيت المقدس أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم به)، وفي حديث ابن عباس (فجاء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه) وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين لسليمان، وهو يقتضي أنه أزيل من مكانه حتى أحضر إليه، وما ذلك في قدرة الله بعزير، وفي حديث أم هانئ أيضا أنهم (قالوا له كم للمسجد باب؟ قال: ولم أكن عدتها، فجعلت أنظر إليه وأعدتها بابا بابا)، وفيه عند أبي يعلى أن الذي سأله عن صفة بيت المقدس هو المطعم بن عدي والد جبير بن مطعم، وفيه من الزيادة (فقال رجل من القوم: هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم والله، قد وجدتم قد أضلوا بعيرا لهم فهم في طلبه، ومررت بإبل بني فلان انكسرت لهم ناقة حمراء، قالوا فأخبرنا عن عدتها وما فيها من الرعاة، قال: كنت عن عدتها مشغولا، فقام فأتى الإبل فعدتها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قريشا فقال: هي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، فكان كما قال)، قال أبو محمد بن أبي حمزة: الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء إرادة إظهار الحق لمعادنة من يريد إخماده، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعادنة الأعداء سبيلا إلى

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 292

² - سليمان بن محمد اللهميد: الأنوار في سيرة النبي المختار [ص 30]

³ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: حديث الإسراء، رقم: 3886

⁴ - سليمان بن محمد اللهميد: الأنوار في سيرة النبي المختار [ص 30]

البيان والإيضاح، فلما ذكر أنه أسري به إلى بيت المقدس سأله عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بما حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة، وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره، فكان ذلك زيادة في إيمان المؤمن، وزيادة في شقاء الجاحد والمعاند¹.

ج/فرائض وتشريعات هذه المرحلة

1/فرض الصلوات الخمس: روى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ حِينَ فَرَضَهَا رُكْعَتَيْنِ رُكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ فَأُفِّرَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ²، زاد ابن إسحاق إلا المغرب فإنها كانت ثلاثاً، وللبخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ فُرِضَتْ الصَّلَاةُ رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا وَتُرِكَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ عَلَى الْأُولَى³، فعين في هذه الرواية أن الزيادة وقعت بالمدينة، والذي يظهر وبه تجتمع الأدلة السابقة، أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب⁴.

11/الفرائض والتشريعات السابقة: وقد جمع شمل الفرائض وتشريعات المراحل المكية الأولى حديث أم سلمة عند الإمام أحمد في هجرة الحبشة قالت: ... فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفُؤَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجُؤَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجُؤَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفُؤَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ⁵، وقد وذكر الشافعي أن صلاة الليل كانت مفروضة ثم نسخت بقوله تعالى: {فَأَقْرَهُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}⁶ فصار الفرض قيام بعض الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس⁸⁷.

ثالثاً: مقدمات الهجرة

¹ - فتح الباري، ج7، ص239-241

² - صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء، رقم: 350

³ - صحيح البخاري (طوق النجاة) [ج5/68]

⁴ - فتح الباري: ج1، ص553-554

⁵ - مسند الإمام أحمد: كتاب: مسند أهل البيت، باب: حديث جعفر بن أبي طالب، رقم: 1649

⁶ - سورة المزمل، الآية: 20

⁷ - فتح الباري: ج1، ص553-554

⁸ - فتح الباري، ج8، ص539

أ/لقاءه وفد الأوس: قدم وفد الأوس إلى مكة باحثين عن تحالفات ضد الخزرج¹، وهؤلاء أول من طرق الإسلام سمعهم وأسلم فرد واحد منهم، وهو في المغازي مختلف في إسلامه واسمه سويد بن الصامت²، فقد ذكر ابن إسحاق أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تلقاه الأنصار في العقبة، فعرض عليه الإسلام فقال: إن هذا القول حسن، وانصرف إلى المدينة فقتل بها في وقعة بعثت وكانت قبل الهجرة قال فكان قومه يقولون: لقد قتل وهو مسلم³، ثم جاء وفد معتمرين في رجب، فاجتمع بهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعرض عليهم الدعوة فأسلموا ثم رجعوا إلى قومهم فدعاهم فاستجاب لهم عدد⁴ منهم.

ب/لقاءه وفد الخزرج: وفي السنة الحادي عشر من البعثة التقى بوفد من الأنصار يتكون ستة أفراد، فدعاهم للإسلام فأسلموا، وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن عن علي بن أبي طالب قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا منه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، وتقدم أبو بكر وكان نسابة فقال: من القوم؟ فقالوا: من ربيعة، فقال من أي ربيعة أنتم؟ قالوا: من ذهل، ذكروا حديثا طويلا في مراجعتهم وتوقفهم أخيرا عن الإجابة، قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، وهم الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره، قال: فما نهضوا حتى بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قال لما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أنتم؟ قالوا من الخزرج، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: نعم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم أن اليهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبينا سيبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم⁵، فلما كلمهم النبي صلى الله عليه وسلم عرفوا النعت، فقال بعضهم لبعض: لا تسبقنا إليه يهود فآمنوا وصدقوا، وانصرفوا إلى بلادهم ليدعوا قومهم، فلما أخبروهم لم يبق دور من قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان الموسم وافاه منهم اثنا عشر رجلا⁶.

وقاموا بدورهم في الدعوة في صفوف الأوس والخزرج حتى فشا الإسلام في المدينة⁷، روى الإمام أحمد عن جابر قال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ وبجدة وفي المواسم بمكة يقول من يؤوبني من ينصربي حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر كذا قال فيأتيه قومه فيقولون احذر غلام قريش لا يفتنك ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يشرب فأويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 288

² -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 145

³ - فتح الباري، ج 1، ص 120، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 145

⁴ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 214

⁵ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 147

⁶ - فتح الباري، ج 7، ص 261

⁷ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 114

وَيُفَرِّقُهُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسَلِّمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ
الإِسْلَامَ¹.

فهؤلاء الستة أحدثوا منعطف جديد في الدعوة، بعد جهاد مضمّن وصبر طويل، تحقّق على يد هؤلاء النفر الستة، حين
وجدوا المناخ المناسب والجو الملائم للدعوة الجديدة².

ج/بيعة العقبة الأولى: ذكر ابن إسحاق أن أهل العقبة الأولى كانوا ستة نفر وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة النحاري ورافع ابن
مالك بن العجلان العجلاني وقطبة بن عامر بن حديدة، وجابر بن عبد الله بن رثاب، وعقبة بن عامر، وهؤلاء الثلاثة من بني
سلمة، وعوف بن الحارث بن رفاعة من بني مالك بن النجار، وقال موسى بن عقبة عن الزهري وأبو الأسود عن عروة: هم أسعد
بن زرارة ورافع بن مالك ومعاذ بن عفراء ويزيد بن ثعلبة وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة، ويقال كان فيهم عبادة بن
الصامت وذكوان³.

وروى البخاري عن عبادة بن الصّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النَّبِيَّاءِ لَيْلَةَ الْعَقْبَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِفُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا
بِهُتَانٍ تَقْتُلُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي
الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فَبَايَعَنَا عَلَى ذَلِكَ⁴.

حديث عبادة هذا كان بمكة ليلة العقبة لما بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة الأولى بمضى، وكان ليلة العقبة
ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن حضر من الأنصار (أبايعكم على أن تمنعوني مما
تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) فبايعوه على ذلك، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه، ومن حديث عبادة أيضا قال: بايعنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وقد وضع أن هذا هو الذي وقع في البيعة الأولى،
وهي قبل الهجرة إلى المدينة، ونظيره ما أخرجه أحمد من طريق محمد بن إسحاق عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه
عن جده - وكان أحد النقباء - قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب، وكان عبادة من الإثني عشر الذين بايعوا في
العقبة الأولى (على بيعة النساء وعلى السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا)، وقد صرح أنها كانت قبل أن يفرض الحرب في رواية
الصنابحي عن عبادة عند أحمد⁵، وذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل مصعبا مع أهل العقبة يعلمهم⁶، بطلب

¹ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند جابر بن عبد الله، رقم: 13934

² - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 114

³ - فتح الباري، ج 7، ص 261

⁴ - صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب: علامة الإيمان حب الأنصار، رقم: 17

⁵ - فتح الباري: 1، ص 84

⁶ - المصدر نفسه، ج 7، ص 306

منهم حيث أنهم سألوه أن يبعث معهم من يصلي بهم ويعلمهم القرآن، فأرسله معهم يمدعو إلى الإسلام، فأسلم بدعائه بشر كثير منهم سعد بن معاذ أسيد بن حضير سيدا الأوس والخزرج¹، فكان الممثل الشخصي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ليشرف بنفسه على تطور الموقف²، ثم عاد قبل حلول موسم الحج التالي ليلبغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما حدث ويهيئ لبيعة العقبة الثانية³، وكان دخول الإسلام إلى المدينة على مدار ثلاث سنين قبل الهجرة، وفشا الإسلام في المدينة حتى سيطر⁴، فكان انتشار الإسلام في المدينة أكثر بكثير من انتشاره في مكة خلال عشرة أعوام⁵.

د/بيعة العقبة الثانية: فلما كانت سنة 13 من البعثة قدم من الأنصار سبعون رجلا وامرأتان رئيسهم البراء بن معرور، فجاءهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند العقبة وبايعوه على المنع والنصرة⁶، وفي مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال... ثم اتتمروا جميعاً فقلنا حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويحاف فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافقنا فقلنا يا رسول الله نبايعك قال تبايعوني على السمع والطاعة في الشاطئ والكتف والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة قال فقمنا إليه فبايعناه وأخذ بيده أسعد بن زرارته وهو من أصغرهم فقال رويداً يا أهل يثرب فإننا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن إخراجنا اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعصمكم السيوف فيما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبيناً فبينوا ذلك فهو غدر لكم عند الله قالوا أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً قال فقمنا إليه فبايعناه فأخذ علينا وشرطاً ويعطينا على ذلك الجنة⁷.

فكان مضمون ومحتوى البيعة⁸ على الطاعة والنصرة والحرب، ولذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب⁹، فكانت

البيعة هذه المرة على التعبئة المسلحة¹، وقد أنزل الله تعالى في أهل هذه البيعة قوله: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا

¹ - البلخي أبو زيد أحمد بن سهل [322هـ]: كتاب البدء والتاريخ، تح: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، ج2، ص62

² - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص115

³ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص288

⁴ - المرجع نفسه، ص214

⁵ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص114

⁶ - البلخي أبو زيد أحمد بن سهل: كتاب البدء والتاريخ، ج2، ص62

⁷ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند جابر بن عبد الله، رقم: 13934، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص151-152

⁸ - راجع أسماء من حضر هذه البيعة في: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص156-157

⁹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص199

بَيِّعَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ²، قال ابن كثير: قالوا: ربح البيع لا نقييل ولا نستقيل، عندما اشترط لهم الجنة، فنزلت: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ]، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم³.

و/بداية هجرة المسلمين إلى المدينة

أ/أوائل المهاجرين إلى المدينة: تتفق الروايات⁴ على أن أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي زوج أم سلمة أول من هاجر إلى المدينة قبل العقبة الثانية⁵، وذلك أنه أودي لما رجع من الحبشة، فعزم على الرجوع إليها، فبلغه قصة الاثني عشر من الأنصار فتوجه إلى المدينة، وعن أم سلمة أن أبا سلمة أخذها معه فردها قومها فحبسوها سنة، ثم انطلقت فتوجهت في قصة طويلة وفيها "فقدم أبو سلمة المدينة بكرة، وقدم بعده عامر بن ربيعة حليف بني عدي عشية"، ثم هاجر بين العقبتين جماعة منهم ابن أم مكتوم، ثم توجه مصعب بن عمير ليفقه من أسلم من الأنصار، ثم كان أول من هاجر بعد بيعة العقبة عامر بن ربيعة حليف بني عدي، ثم توجه باقي الصحابة شيئاً فشيئاً، ثم لما توجه النبي صلى الله عليه وسلم واستقر بها خرج من بقي من المسلمين، وكان المشركون يمنعون من قدروا على منعه منهم، فكان أكثرهم يخرج سرا إلى أن لم يبق منهم بمكة إلا من غلب على أمره من المستضعفين⁶، وقيل أول من قدم المدينة من المهاجرين عامر بن ربيعة ومعه امرأته⁷ أم عبد الله بنت أبي حثمة، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وشماس بن عثمان بن الشريد، وعبد الله بن جحش⁸.

وقد روى البخاري قصة أول المهاجرين إلى المدينة من الصحابة، وكان أكثرهم عدداً من خرج رفقة عمر بن الخطاب، والحديث رواه البراء بن عازب رضي الله عنهما قال أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثم قدم النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعل الإمام يقول قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فما قدم حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى في سور من المفضل⁹، قال ابن حجر فمن أقبلوا مع عمر ابن الخطاب، وقد سمي ابن إسحاق منهم: زيد بن الخطاب وسعيد بن زيد بن عمرو وعمرو بن سراقه وأخاه عبد الله وواقد بن عبد الله وخالدا وإياسا وعامرا وعاقلا بني البكير وخنيس بن حذافة وعياش بن ربيعة وحولي بن أبي حولي وأخاه، هؤلاء كلهم من أقارب

¹ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 117

² - سورة التوبة الآية 111

³ - ابن كثير: تفسير ابن كثير، ج 3، ص 295

⁴ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 202

⁵ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 158

⁶ - فتح الباري، ج 7، ص 268

⁷ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 159

⁸ - فتح الباري، ج 7، ص 306

⁹ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مقدم النبي - صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة، رقم: 3924

عمر وخلفائهم، قالوا: فنزلوا جميعا على رفاعة بن عبد المنذر بقباء، وروى ابن عائذ في المغازي عن ابن عباس قال: خرج عمر والزبير وطلحة وعثمان وعياش بن ربيعة في طائفة، فتوجه عثمان وطلحة إلى الشام، فهؤلاء ثلاثة عشر من ذكر ابن إسحاق، وذكر موسى بن عقبة أن أكثر المهاجرين نزلوا على بني عمرو بن عوف بقباء إلا عبد الرحمن بن عوف فإنه نزل على سعد بن الربيع وهو خزرجي، وأن سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة كان يوم المهاجرين الأولين في مسجد قباء، منهم أبو سلمة بن عبد الأسد، وروى الحاكم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: (وزعموا أن من آخر من قدم سعد بن أبي وقاص في عشرة فنزلوا على سعد بن خيثمة)¹.

11/موقف قريش من هجرة المسلمين: سعت قريش بشتى الطرق لعرقلة الهجرة، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم²، كما روي عن أم سلمة أن أبا سلمة أخذها معه فردها قومها³ فحبسوها سنة⁴، ولما لم يجدي هذا الأسلوب نفعا في صد المهاجرين عن قصدهم، جعلت لمن يخرج مهاجرا أن يعطيهم عهدا بأن لا يقاتلهم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، روى ذلك الإمام مسلم من حديث حذيفة بن اليمان قال ما منعني أن أشهد بدرا إلا أبي خرجت أنا وأبي حنيفة قال فأخذنا كفار قريش قالوا إنكم تريدون محمدا فقلنا ما نريد ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لئنصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر فقال انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم⁵.

فلما رأت قريش أن شيعة النبي -صلى الله عليه وسلم- قد خرجوا فرعوا من ذلك، وعلموا أنه إن خرج واقع بهم، فاجتموا في دار الندوة وتشاوروا في أمره⁶، وعقدوا العزم على قتله.

المحور الثالث: الفقه الحركي للسير المدنية [1-11هـ]

أولا: خصائص ومميزات المرحلة المدنية الأولى [1-2هـ]

أ/ انتصار الإسلام في المدينة

¹ - فتح الباري، ج7، ص307

² - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص202

³ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص159

⁴ - فتح الباري، ج7، ص268

⁵ - صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: الوفاء بالعهد، رقم: 3342

⁶ - البلخي أبو زيد أحمد بن سهل: كتاب البدء والتاريخ، ج2، ص63

1/أسباب قبول أهل المدينة للإسلام: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت كان يوم بُعث يومًا قدّمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلّم فقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا فقدّمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلّم في دُخولهم في الإسلام¹.

بُعث وهو مكان- ويقال حصن أو مزرعة- عند بني قريظة على ميلين من المدينة، كانت به وقعة بين الأوس والخزرج، فقتل فيها كثير منهم، وكان رئيس الأوس فيه حضير والد أسيد بن حضير وكان يقال له حضير الكتائب، وكان رئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي فقتل فيها أيضا، وكان النصر فيها أولا للخزرج ثم ثبتهم حضير فرجعوا وانتصرت الأوس وجرح حضير يومئذ فمات فيها، وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن سبب ذلك أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف، فقتل رجل من الأوس حليفا للخزرج، فأرادوا أن يقيدوه فامتنعوا، ف وقعت عليهم الحرب لأجل ذلك، فقتل فيها من أكابريهم من كان لا يؤمن، أي يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبي بن سلول، وقتل في هذه الحرب قادتهم وخيارهم²، وروى ابن سعد أن النفر الستة أو الثمانية الذين لقوا النبي -صلى الله عليه وسلم- بمنى أول من لقيه من الأنصار الذين قدموا مكة ليحالفوا قريشا، كان في جملة ما قالوه له لما دعاهم إلى الإسلام والنصر له: واعلم إنما كانت وقعة بعث عام الأول، فموعدك الموسم القابل، فقدموا في السنة التي تليها فبايعوه، وهي البيعة الأولى، ثم قدموا الثانية فبايعوه وهم سبعون، وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم في أوائل التي تليها، فدل ذلك على أن وقعة بعث كانت قبل الهجرة بثلاث سنين، وهو المعتمد³، وقيل كان ذلك قبل الهجرة بخمس سنين وقيل: بأربع وقيل: بأكثر والأول أصح⁴.

وقيل بأن الحرب دامت مائة وعشرين سنة بين الحيين الأوس والخزرج في أيام كثيرة شهيرة، وكان أولها فيما ذكر ابن إسحاق أن الأوس والخزرج لما نزلوا المدينة وجدوا اليهود مستوطنين بها فحالفوهم وكانوا تحت قهرهم، ثم غلبوا على اليهود في قصة طويلة بمساعدة أبي ثعلبة نزل على مالك بن عجلان الخزرجي فحالفه، فقتله رجل من الأوس يقال له سمير فبينهم حرب و وقعت بينهم حرب سمير، بسبب رجل يقال له كعب من بني ثعلبة نزل على مالك بن عجلان الخزرجي فحالفه، فقتله رجل من الأوس يقال له سمير فكان ذلك سبب الحرب بين الحيين، ثم كانت بينهم وقائع من أشهرها يوم السراة ويوم فارح ويوم الفجار الأول والثاني، وحرب حصين بن الأسلت، وحرب حاطب بن قيس، إلى أن كان آخر ذلك يوم بعث⁵.

بالإضافة إلى الحروب الداخلية التي أنهكتها معا، هناك أسباب أخرى تضاف إلى ما سبق، منها ما طبعهم الله عليه من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء و جحود الحق، ورغبتهم في الاجتماع ولم الشمل، بعد الفرقة التي مزقت مجتمعهم، ومنها

¹ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مناقب الأنصار، رقم: 3777

² - فتح الباري، ج 7، ص 138-139

³ - المصدر نفسه، ج 2، ص 512

⁴ - المصدر نفسه، ج 7، ص 138-139

⁵ - فتح الباري، ج 2، ص 512

مخالطتهم لأهل الكتاب من اليهود وما كانوا يسمعون منهم وهم يتحدثون عن النبوة والأنبياء، بل أنهم كانوا يتوعدونهم عند الاختلاف بنبوته¹.

|| هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة

1/ أسباب الهجرة

* /البحث عن قاعدة حرة وآمنة للدعوة الجديدة: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يعرض نفسه على القبائل²، يبحث عن قاعدة أخرى غير مكة، تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح لها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وحماية الأتباع من الاضطهاد والفتنة، وهو السبب الأهم للهجرة³.

* /موقع المدينة وسكانها المناسبين للدعوة: وذلك أنها امتازت بتحصن طبيعي حربي، لا تزاخمها في ذلك مدينة في الجزيرة، فكانت حرة الورة مطبقة على المدينة من الناحية الغربية، وحررة واقم من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية هي الوحيدة المكشوفة، وهي التي حصنها بالخندق سنة 5هـ، وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري وترتيب الصفوف، وكذلك سكانها كانوا أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكيمة، ألفوا الحرية ولم يخضعوا لأحد، فكانت مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، واتخاذهم لها دارا وقرارا، حتى يقوى الإسلام⁴ ويتقدم.

* /خطة قريش لقتل النبي -صلى الله عليه وسلم- ليلة الهجرة: لما اجتمع كبراء قريش بدار الندوة يتشاورون في أمره -صلى الله عليه وسلم- بعد هجرة أصحابه إلى المدينة، أجمعوا على رأي أبي جهل بأن يجمعوا من كل قبيلة فتي شبيبا نشيطا، ويعطى لكل واحد منهم سيفا صقيلا، فيعمدون إليه ويضربونه ضربة رجل واحد، ويفرقون دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على الإقادة بجميع الناس، فافترقوا على هذا، وجمعوا من فتيان قريش أربعين شابا وأعطوهم السيوف وأمروهم أن يغتالوه، فأتوا داره وأحاطوا به يرصدونه حتى ينام فيبيتون به، وآتاه الخبر من السماء، فثبت حتى أمسى، فدعا عليا وقال: نم على فراشي فإنه لا يخلص إليك شيء

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 315-316

² - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 142

³ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 15

⁴ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 332

تكرهه، وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد أخذ حفنة من التراب فجعل ينثر على رؤوسهم¹ وهو يتلوا أوائل سورة ياسين إلى قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)}².

وقد سجل القرآن الكريم مؤامرة قريش في دار الندوة ليلة الهجرة في قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِحُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}³، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس في سبب نزولها، قَالَ تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةَ بَمَكَّةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا أَصْبَحَ فَأَنْبِئُوهُ بِالْوَثَاقِ يُرِيدُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ افْتُلُوهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ أَخْرِجُوهُ فَأُطْلِعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ فَبَاتَ عَلَيَّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى لَحِقَ بِالْعَارِ⁴.

واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة، وكان بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، لما تمكنوا منه واجترأوا عليه بسبب موته، وهو الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه⁵.

2/ الاستعداد للهجرة: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق النهار بكرة وعشيّة... والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحزتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامه من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فإني أرحو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بإبي أنت قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبته وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السم وهو الحبط أربعة أشهر⁶، وفيه بيان المدة التي كانت بين ابتداء هجرة الصحابة بين العقبة الأولى والثانية وبين هجرته صلى الله عليه وسلم شهرين وبعض شهر⁷.

3/ تاريخ الهجرة النبوية إلى المدينة: أما عن هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- ف جاء عن ابن عباس أنه أذن له في الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80)}⁸، وذكر الحاكم أن خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر أو قريبا منها، وجزم ابن إسحاق بأنه خرج أول

¹ - البلخي أبو زيد أحمد بن سهل: كتاب البدء والتاريخ، ج 2، ص 64

² - سورة يس، الآية 9

³ - سورة الأنفال، الآية (30)

⁴ - مسند الإمام أحمد: كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: باقي المسند السابق، رقم: 3081

⁵ - ابن كثير: تفسير ابن كثير، ج 3، ص 199

⁶ - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3905

⁷ - فتح الباري، ج 7، ص 276-277

⁸ - سورة الإسراء الآية 80

يوم من ربيع الأول، فعلى هذا يكون بعد البيعة بشهرين وبضعة عشر يوماً، وكذا جزم به الأموي في المغازي عن ابن إسحاق فقال: كان مخرجه من مكة بعد العقبة بشهرين وليال، قال وخرج للال ربيع الأول وقدم المدينة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، وعلى هذا خرج يوم الخميس، ورافقه من أصحابه في هجرته أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة¹.

4/أحداث يوم الهجرة

* /نوم علي في فراش النبي - صلى الله عليه وسلم-: ذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: "فرقد علي على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يوري عنه، وباتت قريش تختلف وتآمر أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه، حتى أصبحوا فإذا هم بعلي فسألوه، فقال: لا علم لي فعلموا أنه فر منهم"، وذكر ابن إسحاق "أن جبريل أمره لا يبيت على فراشه، فدعا علياً فأمره أن يبيت على فراشه ويسجي ببرده الأخضر ففعل، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم على القوم ومعه حفنة من تراب، فجعل ينثرها على رءوسهم وهو يقرأ يس إلی: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)}²، وذكر نحو ذلك موسى بن عقبة عن الزهري قال: (مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إلى بقية ذي الحجة والحرم وصفر، ثم إن مشركي قريش اجتمعوا... وبات علي فراش النبي صلى الله عليه وسلم يوري عنه، وباتت قريش يختلفون ويأتمرون أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه، فلما أصبحوا إذا هم بعلي... فخرجوا في كل وجه يطلبونه)، وذكر الواقدي أن قريشا بعثوا في أثرهما قائفين: أحدهما كرز بن علقمة، فرأى كرز بن علقمة على الغار نسح العنكبوت فقال: ها هنا انقطع الأثر³.

* /توديع النبي - صلى الله عليه وسلم- لمكة

لاشك أن لحظة مفارقة الوطن المألوف صعبة للغاية، فلحب الوطن سلطة على النفس يشتعل لهيها عند المفارقة، وهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يشرح ذلك بموقف عملي وهو يودع مكرها موطنه مكة، جاء في كتاب أخبار مكة عن عبد الرحمن بن سابط قال: لما أراد النبي - صلى الله عليه وسلم- أن ينطلق إلى المدينة واستلم الحجر، وقام وسط المسجد التفت إلى البيت فقال: "إني لأعلم ما وضع الله عز وجل في الأرض بيتاً أحب إليه منك، وما في الأرض بلد أحب إلي منك، وما خرجت عنك رغبة، ولكن الذين كفروا هم أخرجوني، ثم نادى: يا بني عبد مناف لا يحل لعبد منع عبداً صلى في هذا المسجد أية ساعة شاء من ليلة أو نهار"⁴، بينما حددت كتب السنة المكان بالضبط الذي وقف فيه مودعاً لمكة فيما رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفًا عَلَى الْحُزُورَةِ⁵ فَقَالَ: (وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيِّرٌ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى

¹ -فتح الباري، ج7، ص268

² -سورة يس، الآية 9

³ -فتح الباري، ج7، ص278-279

⁴ -الأزقي أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، ج2/148

⁵ -الحزورة: كانت سوق مكة، وهي تقع بفناء دار أم هانئ ابنة أبي طالب، التي كانت عند الحنطين، فدخلت في المسجد الحرام، كانت في أصل المنارة إلى الخيمة، والجزوار والجباجب: الأسواق، وقال بعض المكين: بل كانت الحزورة في موضع السقاية، التي عملت الخيزران بفناء دار الأرقم، وقال بعضهم: كانت بحذاء الودم في الوادي، والأولى أنها كانت عند الحنطين أثبت وأشهر عند أهل مكة، قال سفيان: وقد دخلت الحزورة في المسجد الحرام، المصدر نفسه، ج2/294

اللَّهُ وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح، ورواه يونس عن الزهري نحوه، وفي مسند الإمام أحمد عن أبي سلمة، وحديث الزهري أصح، وصححه الألباني، وفي رواية أيضا للترمذي عن ابن عباسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَكَّةَ: (مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ وَلَوْلَا أَنْ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ)، قال الأستاذ الدكتور كمال لدرع في تعليقه على هذا الحديث: وهو تعبير منه صلى الله عليه وسلم على حبّ وطنه وشدة ارتباطه به؛ وليس هناك شيء يحزن قلب الإنسان مثل الخروج من الوطن والبعد عنه، وهو صلى الله عليه وسلم بذلك يُعَلِّمُ البشرية التعلق بأوطانها والمحافظة عليها، إن الولاء للوطن لا يتعارض مع الولاء للعقيدة، ولا تناقض بين أن يعتر المؤمن بأنه مسلم، وبين أن يحترم وطنه الذي يعيش فيه ويدافع عنه، بل إن حبّ الوطن من صميم الإيمان، ويبقى الدين فوق كل اعتبار، والدفاع عن الوطن والتضحية بالمال والنفس من أجله هو دفاع عن الدين، لأن إقامة شرائع الدين وأحكامه يكون بوجود وطن يعيش فيه المسلم آمنا يعبد فيه ربّه ويقوم عليه شرعه؛ ومن خَدَمَ وطنه فقد خدم دينه ومكّن له، ولذلك شرع للمسلمين أن يدافعوا عن أوطانهم في كل عصر ومصر.

قال المباركفوري: فيه دلالة على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يخرج من مكة إلا أن يخرج منها حقيقة أو حكما وهو الضرورة الدينية أو الدنيوية¹، فما كان لمؤمن أن يهجر وطنه إلا لضرورة أو مصلحة مقدره شرعا ومعتبرة كذلك عند أهل العلم والله أعلم.

* /خروجهما إلى غار ثور: روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ بإسناد حسن، قَالَ تَشَاوَرْتُ فُرَيْشَ لَيْلَةَ مَكَّةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا أَصْبَحَ فَأَتَيْتُوهُ بِالْوَثَاقِ يُرِيدُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ اقْتُلُوهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ أَخْرِجُوهُ فَأُطْلِعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ فَبَاتَ عَلَيَّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى لَحِقَ بِالْغَارِ وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَجْرُسُونَ عَلَيَّا يَحْسَبُونَ أَنِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا نَازُوا إِلَيْهِ فَلَمَّا رَأَوْا عَلَيَّا رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ فَقَالُوا أَيَّنَ صَاحِبُكَ هَذَا قَالَ لَا أَذْرِي فَاقْتَصُوا أَثْرَهُ فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ خُلِطَ عَلَيْهِمْ فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ فَمَرُّوا بِالْغَارِ فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ فَقَالُوا لَوْ دَخَلْ هَاهُنَا لَمْ يَكُنْ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ فَمَكَتْ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ².

وكان مكث النبي-صلى الله عليه وسلم- في الغار تلك المدة، ليتوارى عن الطلب لأن قريش أعلنت دية لمن يأتي به أو يخبره، روى الإمام البخاري عن عروة بن الزبير أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ... فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَقَنَّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ قَالَتْ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَمْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالثَّمَنِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحْتَّ الْجِهَارِ وَصَنَعْنَا لَهُمَا سَفْرَةً فِي جِرَابٍ فَفَقَطَعْتُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرِطَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ فَبَدَّلَكَ سُمَيْتِ ذَاتِ النَّطَاقَيْنِ قَالَتْ ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمْنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ بَيْتٌ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ

¹ - المباركفوري أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، ج 10 / 294

² - مسند الإمام أحمد: كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: باقي المسند السابق، رقم: 3081

وَهُوَ عَلَامٌ شَابٌ تَقِفُ لَقَيْنٌ فَيُدَلِّجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ فُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِحَيْرٍ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ وَيَرَعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنْ الْعِشَاءِ فَيَبِيَّتَانِ فِي رِسْلٍ وَهُوَ لَبَنٌ مِنْحَتَهُمَا وَرَضِيْفَهُمَا حَتَّى يَنْعَقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بَعْلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ¹ ...

* /الهجرة عبر طريق الساحل: روى الإمام البخاري حديث الهجرة بطوله عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ... وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا حَرِيَّتًا وَالْحَرِيَّتُ الْمَاهِرُ بِالْهُدَايَةِ قَدْ عَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلِ السَّهْمِيِّ وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ فُرَيْشٍ فَأَمَانَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثِ وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالِدَيْهِمَا فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاخِلِ².

وخرج مهاجرا رفقة أبي بكر الصديق-رضي الله عنه-، ومولى أبي بكر عامر بن فُهيرة، ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثي وهو كافر ولا يُعلم له إسلام³، وفي لرسول الله بعده رغم قيمة الجائزة التي جعلتها قريش فيمن يأتيها بمحمد وهي مائة من الإبل.

* /لحوق سراقه بن مالك بالنبي-صلى الله عليه وسلم- في طريق الهجرة: قال البخاري: قَالَ ابْنُ شَهَابٍ وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكِ الْمُدَلِّجِيُّ وَهُوَ ابْنُ أُخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشَمٍ يَقُولُ جَاءَنَا رَسُولُ كُفَّارِ فُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسْرَهُ فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدَلِّجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ فَقَالَ يَا سُرَاقَةَ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْفَا أَسْوَدَةَ بِالسَّاحِلِ أَرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ قَالَ سُرَاقَةَ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَقُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَّتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكْمَةِ فَتَحْسِبَهَا عَلَيَّ وَأَخَذْتُ رُحْمِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِرُجْحِهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَفَعَنْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ فَعَثَرْتُ بِي فَرَسِي فَخَرَزْتُ عَنْهَا فَفَمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي فَاسْتَخَرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ فَاسْتَفْسَمْتُ بِهَا أَضْرَهُمْ أَمْ لَا فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ لَا يَلْتَمِثُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْتَرُ الْإِلْتِفَاتِ سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغْنَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَزْتُ عَنْهَا ثُمَّ رَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكُدْ تُخْرِجْ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأُتْرَ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ فَاسْتَفْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ فَوْقُوا فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقَيْتُ مَا لَقَيْتُ مِنَ الْحُبْسِ عَنْهُمْ أَنَّ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ

¹ - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي-صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3905

² - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي-صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3905

³ -النووي يحيى بن شرف الدين: تهذيب السيرة النبوية، بيت الحكمة، ط1، 2010م، ص20

جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَّةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَزْرَأْنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ أَحْفِ عَنَّا فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابٌ أَمِنْ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فَهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُفْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ¹.

* /لقاء النبي- صلى الله عليه وسلم- الزبير في ركب الشام: قال البخاري: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بِيَاضٍ² ...

5/ وصوله إلى المدينة

* /استقبال أهل المدينة لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- عند وصوله: قال البخاري: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بِيَاضٍ وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ فَكَانُوا يَعْذُونَ كُلَّ عِدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ فَاثْقَلُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ فَلَمَّا أَوْوَأُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ عَلَى أُطْمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يُزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ فَتَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السَّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ يَمْنًا لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجِيبِي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ³.

وفي رواية عبد الله بن رجاء (فخرج الناس حين قدم المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم جاء محمد رسول الله، الله أكبر، جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وأخرج الحاكم عن أنس (فخرجت جوار من بني النجار يضرين بالدفع وهن يقلن: نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار، وأخرج أبو سعيد في شرف المصطفى وفي فوائد الخلمي: من طريق عبيد الله بن عائشة منقطعاً: لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جعل الولائد يقلن: طلع البدر علينا من ثنية الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع⁴، فكان نزوله الأول بقاء من عوالي المدينة، عند بنو عمرو بن عوف ابن مالك بن الأسود بن حارثة¹.

¹ - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

² - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

³ - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

⁴ - فتح الباري، ج 7، ص 307

*/نزول النبي- صلى الله عليه وسلم- بقباء وبناء مسجدها: قال البخاري: قَالَ ابْنُ شَهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الرُّبَيْرِ قَالَ... أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أَطْمٍ مِنْ أَطْمِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مُبَيِّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ فَتَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السَّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ يَمْنُ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْيِي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.²

وروى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف قال فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى مالا بني النجار قال فحاءوا متقلدي سيوفهم قال وكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وأبو بكر ردفه ومالا بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب³...

عند أول وصوله المدينة نزل بهم في بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة وبناتهم بقباء، وهي على فرسخ من المسجد النبوي بالمدينة، وكان نزوله على كلثوم بن الهرمو كان مشركا، ونزلها يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، وفي رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق (قدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول)، وحزم ابن حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقين من صفر، وهذا يوافق قول هشام بن الكلبي إنه خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول فإن كان محفوظا فلعل قدومه بقاء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول، وإذا ضم إلى قول أنس إنه أقام بقباء أربع عشرة ليلة خرج منه أن دخوله المدينة كان لاثنين وعشرين منه، لكن الكلبي حزم بأنه دخلها لاثنتي عشرة خلت منه فعلى قوله تكون إقامته بقباء أربع ليال فقط وبه حزم ابن حبان فإنه قال: (أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس) يعني وخرج يوم الجمعة، فكأنه لم يعتد بيوم الخروج، وكان القدوم كان آخر الليل فدخل نهارا⁴.

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن الحكم بن عتيبة قال: (لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم فنزل بقباء قال عمار بن ياسر: ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم بد من أن يجعل له مكانا يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه، فجمع حجارة فبني

¹ - فتح الباري، ج7، ص312

² - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

³ - صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: مقدم النبي وأصحابه المدينة، رقم: 3932

⁴ - فتح الباري، ج7، ص287

مسجد قباء، فهو أول مسجد بني) يعني بالمدينة، وهو في التحقيق أول مسجد صلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه بأصحابه جماعة ظاهرا، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة¹.

* /نزول الرسول- صلى الله عليه وسلم- في دار أبي أيوب الأنصاري: نزل النبي- صلى الله عليه وسلم- في دار أبي أيوب الأنصاري، وهو من أحوال أبيه بني النجار²، لأن الأنصار أقاربه من جهة الأمومة، لأن أم جده عبد المطلب بن هاشم منهم، وهي سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وإنما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة على إخوانهم بني مالك بن النجار³، روى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف قال فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى ملا بني النجار قال فجاءوا متقلدي سيوفهم قال وكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وأبو بكر ردفه وملا بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب⁴...

وركب من قباء يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فقالوا: يا رسول الله هلم إلى العدد والعدد والقوة، أنزل بين أظهرنا، وعند أبي الأسود عن عروة: وصاروا يتنازعون زمام ناقته، وهم بني ساعدة وبني عدي، يقول لكل منهم (دعوها فإنها مأمورة)، وعند الحاكم عن أنس (جاءت الأنصار فقالوا إلينا يا رسول الله، فقال: دعوا الناقة فإنها مأمورة، فبركت على باب أبي أيوب)، وعند ابن عائذ عن عطاء بن خالد (أنها استناخت به أولا فجاءه ناس فقالوا: المنزل يا رسول الله فقال دعوها، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد، ثم تحلحت فنزل عنها فاتاه أبو أيوب فقال: إن منزلي أقرب المنازل فأذن لي أن أنقل رحلك، قال: نعم، فنقل وأناخ الناقة في منزله)، وذكر ابن سعد أن أبا أيوب لما نقل رحل النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (المرء مع رحله)، وأن سعد بن زرارة جاء فأخذ ناقته فكانت عنده، وذكر أيضا أن مدة إقامته عند أبي أيوب كانت سبعة أشهر⁵.

* - نحره جزورا أو بقرة

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة، نحر جزورا أو بقرة»، زاد معاذ، عن شعبة، عن محارب، سمع جابر بن عبد الله «اشترى مني النبي صلى الله عليه وسلم بعيرا بوقيتين ودرهم أو درهمين، فلما قدم صرارا- موضع بظاهر المدينة- أمر ببقرة، فدبحت فأكلوا منها، فلما قدم المدينة أمرني أن آتي المسجد، فأصلي ركعتين

¹ - فتح الباري، ج 7، ص 288

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 333

³ - فتح الباري، ج 1، ص 119

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مقدم النبي وأصحابه المدينة، رقم: 3932

⁵ - فتح الباري، ج 7، ص 289

وَوَزَّنَ لِي تَمَنُّ الْبَعِيرِ¹، وهذا إنما يدل على مشروعية عمل طعام الوليمة بعد الوصول من السفر سالمًا، قال شمس الحق أبادي رحمه الله: والحديث يدل على مشروعية الدعوة عند القدوم من السفر ويقال لهذه الدعوة النعيقة مشتقة من النقع وهو الغبار²، فذبح شاة أو أية ذبيحة أو عمل طعام لمناسبة سارة أو لنعمة أنعم الله بها على الشخص لا بأس به ولا حرج فيه شرعًا، وهو سنة على وجه العموم، فإن في الشريعة ما يدل على ذبح شيء أو دعوة الناس إلى طعام بمناسبة حدوث أمر سار³.

ب/وضع النبي -صلى الله عليه وسلم- قواعد بناء الدولة الإسلامية بالمدينة

1/ بناء المسجد: روى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف قال فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى مالا بني النجار قال فجاءوا متقلدي سيوفهم قال وكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وأبو بكر ردفه وملا بني النجار حوله حتى ألقى بيناء أبي أيوب قال فكان يصلي حيث أذركته الصلاة ويصلي في مرائب الغنم قال ثم إنه أمر ببناء المسجد فأرسل إلى مالا بني النجار فجاءوا فقال يا بني النجار ثامنوني حائطكم هذا فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله قال فكان فيه ما أقول لكم كانت فيه قبور المشركين وكانت فيه حرب وكان فيه نخل فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل ففطع قال فصفوا النخل قبلة المسجد قال وجعلوا عضادتيه حجارة قال قال جعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون اللهم إنه لا خير إلا خير الأجره فانصر الأنصار والمهاجرة⁴.

وفي حديث آخر أنه أمر ببناء المسجد حيث بركت ناقته، قال البخاري: قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير... ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مرتدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا إن شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتجده مسجدا فقالا لا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن هذا الحمال لا حمال خبير هذا أبر رتنا وأطهر ويقول اللهم إن الأجر أجز الأجره فارحم الأنصار والمهاجرة فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي⁵.

¹ - البخاري أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، ج(4/77)

² - أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1415هـ، ج(10/152)

³ - <http://audio.islamweb.net>

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مقدم النبي وأصحابه المدينة، رقم: 3932

⁵ - صحيح البخاري: كتاب المناقب الأنصار، باب: هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

وكان موضع المسجد مريداً: وهو الموضع الذي يجفف فيه التمر، وقال الأصمعي: المرید كل شيء حبست فيه الإبل أو الغنم، وبه سمي مرید البصرة لأنه كان موضع سوق الإبل، وعند ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل: (لمن هذا؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو لسهيل وسهل ابني عمرو يتيمان لي وسأرضيهما منه)، وكانا في حجر أسعد بن زرارة، كان أسعد من السابقين إلى الإسلام من الأنصار، وذكر ابن سعد أن أسعد بن زرارة كان يصلي فيه قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم¹، ووقع عند موسى بن عقبة عن الزهري أنه اشتراه منهما بعشرة دنانير، وزاد الواقدي أن أبا بكر دفعها لهما عنه من غلامين من بني النجار²، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاث أبواب: باب في مؤخره، وبابا يقال له باب الرحمة وهو الذي يدعى باب عاتكة، والباب الثالث الذي يدخل فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وجعل عمده الجذوع، وسقفه جريداً، وبنا بيوتا إلى جنبه باللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد³.

عن نافع أن عبد الله أخبره: أن المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنيا باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة وبني جداره بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عمده حجارة منقوشة وسقفه بالساج، قال الأعظمي: إسناده صحيح⁴.

||/ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: في توقيتها اختلاف فقيل بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل بتسعة، وقيل: وهو بيني المسجد، وقيل قبل بنائه، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر، وعند أبي سعيد في شرف المصطفى: كان الإخاء بينهم في المسجد، وكان ابتداء المؤاخاة أوائل قدومه المدينة، واستمر يحددها بحسب من يدخل في الإسلام أو يحضر إلى المدينة، وذكر محمد بن إسحاق المؤاخاة فقال (قال رسول الله لأصحابه بعد أن هاجر: تأخوا أخوين، فكان هو وعلي أخوين، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين، وجعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين)، وكان جعفر بالحبشة فأرصدته لأخوته حتى يقدم، وسمى ابن عبد البر جماعة آخرين⁵.

قال ابن عبد البر كانت المؤاخاة مرتين: مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار، وقيل لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام⁶، وذكر ابن سند بأسانيد الواقدي إلى جماعة من التابعين قالوا: لما قدم النبي صلى الله عليه

¹- فتح الباري، ج7، ص289-290

²- فتح الباري، ج7، ص312

³- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص163

⁴- ابن خزيمة أبو بكر محمد بن إسحاق السلمى النيسابوري: صحيح ابن خزيمة، نج: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي-بيروت، 1390هـ/1970م، (ج2/

⁵- فتح الباري، ج7، ص317

⁶- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص162

وسلم المدينة آخى بين المهاجرين، وآخى بين المهاجرين والأنصار على الموساة، وكانوا يتوارثون، وكانوا تسعين نفسا بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار، وقيل كانوا مائة، فلما نزل قوله تعالى: {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (75)¹، بطلت الموارث بينهم بتلك المؤاخاة، ومن حديث ابن عباس (لما قدموا المدينة كان يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فنزلت)، قال السهيلي: آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل الموارث وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (10)² يعني في التوادد وشمول الدعوة³.

وبعد الهجرة واجه المهاجرون مشاكل متنوعة اقتصادية واجتماعية وصحية، وكان معظم المهاجرين قد تركوا أهليهم وثروتهم بمكة، وأن مهارتهم كانت في التجارة التي نمرست بها قريش، ولم تكن في الزراعة والصناعة التي يقوم عليهما اقتصاد المدينة، فكان وضع المهاجرين بحاجة إلى علاج سريع وحل مؤقت واستثنائي، وكانت أنفة المهاجرين ومكانتهم تقتضي معالجة أحوالهم بتشريع، يبعد عنهم أي شعور بأنهم عالة على الأنصار، فشرع المؤاخاة⁴.

111/ إصدار الوثيقة أو دستور المدينة

1/نصوص الوثيقة في كتب السنة: روت كتب السنة أجزاء من وثيقة المدينة غير مرتبة في أبواب مختلفة، روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقبتهم وأن يقدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين⁵.

وروى البخاري عن علي رضي الله عنه قال ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرّف

¹ - سورة الأنفال، الآية: 75

² - سورة الحجرات، الآية: 10

³ - فتح الباري، ج7، ص317-318

⁴ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص242، 242، 243

⁵ - مسند الإمام أحمد، كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن عباس، رقم: 2317

وَلَا عَدْلٌ وَقَالَ ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ فَمَنْ أَحْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بَعِيرٍ إِذْ نِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ¹.

وذمة المسلمين واحدة، أي أماهم صحيح فإذا أمن الكافر واحد منهم حرم على غيره التعرض له، ويسعى بها: أي يتولاها ويذهب ويحیی، والمعنى أن ذمة المسلمين سواء صدرت من واحد أو أكثر شريف أو وضيع، فإذا أمن أحد من المسلمين كافراً وأعطاه ذمة لم يكن لأحد نقضه، فيستوي في ذلك الرجل والمرأة والحر والعبد، لأن المسلمين كنفس واحدة².

وللبزار من طريق أبي الطفيل (قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَلِيٍّ فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسِرُّ إِلَيْكَ؟ فَعَضِبَ، فَقَالَ: مَا كَانَ يُسِرُّ إِلَيَّ شَيْئًا يَكْتُمُهُ عَنِ النَّاسِ غَيْرَ أَنَّهُ حَدَّثَنِي كَلِمَاتٍ أَرَبَعًا، قَالَ: مَا هُنَّ؟ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ، قَالَ مَرْوَانُ: مَنْ أَخَذَ مِنْ أَرْضِ غَيْرِهِ)³، وفي رواية (سُئِلَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَلْ خَصَّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِشَيْءٍ؟ قَالَ: مَا خَصَّنَا بِشَيْءٍ لَمْ يَغْمَّ بِهِ النَّاسَ كَافَّةً إِلَّا مَا كَانَ فِي قِرَابِ سَيْفِي هَذَا قَالَ فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً فَإِذَا فِيهَا: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ دَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ سَرَقَ مَنَارَ الْأَرْضِ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُخْدِتًا»⁴، ومن طريق أبي جحفية (قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر)، والجمع بين هذه الأخبار أن الصحيفة المذكورة كانت مشتملة على مجموع ما ذكر، فنقل كل راو بعضها⁵.

وذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم وادع اليهود لما قدم المدينة وامتنعوا من اتباعه، فكتب بينهم كتابا، وكانوا ثلاث قبائل: قينقاع والنضير وقريظة، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة، فمن على بني قينقاع وأجلى بني النضير واستأصل بني قريظة⁶.

وقد جدد النبي -صلى الله عليه وسلم- الصحيفة مع اليهود بعد قتل كعب بن الأشرف، روى أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ويحرض عليه كفار قريش وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون والمشركون يعبدون الأوثان واليهود وكانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأمر الله عز وجل نبيه بالصبر والعفو فبيهم أنزل

¹- صحيح البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب: حرم المدينة، رقم: 1870

²- فتح الباري، ج4، ص103

³- البراء أبو بكر أحمد بن عمرو البصري [292هـ]: مسند البزار، تح: علي بن نايف الشحود، [ج1/ 104]

⁴- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي: السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي لعلاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن الترمذاني، مجلس دائرة المعارف النظامية

الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، ط1، 1344هـ، [ج9/ 250]، وأخرجه مسلم في الصحيح من حديث غندر عن شعبة

⁵- فتح الباري، ج4، ص102

⁶- فتح الباري، ج7، ص322

اللَّهُ {وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا} ¹ الْآيَةَ فَلَمَّا أَبَى كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ أَنْ يَنْزِعَ عَنِ أَذَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ أَنْ يَبْعَثَ رَهْطًا يَفْتُلُونَهُ فَبَعَثَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَذَكَرَ قِصَّةَ قَتْلِهِ فَلَمَّا قَتَلُوهُ فَرَعَتْ الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ فَعَدَوْا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا طَرِقَ صَاحِبُنَا فَقُتِلَ فَذَكَرَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ وَدَعَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ كِتَابًا يَنْتَهُونَ إِلَى مَا فِيهِ فَكَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَيَّنَ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً صَحِيفَةً ².

والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود والمشركين إن أنتم تنتهون عن السب والأذى فلا يتعرض لكم المسلمون ولا يقتلوكم، فكتب كتاب العهد والميثاق بين الفريقين، ثم لما فتح الله تعالى خير سنة 6هـ خربت اليهود وضعفت قوتهم، ثم أجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته من جزيرة العرب ³.

2/ نص الوثيقة كما وردت في كتب السير: أصدر النبي -صلى الله عليه وسلم- الصحيفة لتدعيم بناء الدولة الإسلامية، وأصدر وثيقة تنظم بموجبها العلاقات بين أفراد المجتمع الجديد-الكتل البشرية التي تعايشت في المدينة وخاصة اليهود-، أما عن محتوى الوثيقة فلم يتوفر نص كامل ببينوده -مثل صلح الحديبية-، وإنما هي مجرد أوامر صدرت عبر الزمن، جمعها أهل السير في كتاب واحد وأطلقوا عليها اسم الوثيقة.

قال ابن كثير ⁴: قال محمد ابن إسحاق: كتب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم: بسم الله الرحمن الرحيم [هذا كتاب من محمد النبي الأمي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ريعتهم -حالهم التي أتى الإسلام وهم عليها- يتعاقلون بينهم، وهم يفتدون عانيهم بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون وعاقلهم الأولى، وكل طائفة تفتدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار: بني ساعدة، وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني التيب... إلى أن قال: وإن المؤمنين لا يتركون مفرجا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل، ولا يخالف مؤمناً مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة-عظيمة- ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعهم، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمناً مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً مؤمناً، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدانهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

¹ - سورة آل عمران، الآية: 186

² - سنن أبو داود: كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: كيف كان إخراج اليهود من المدينة، رقم: 2066

³ - أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1415هـ، [ج8/ 160]

⁴ - ابن كثير: السيرة النبوية، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة لبنان، 1402هـ/1982م، ج2، ص319

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غي مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضا.

وإن المؤمنين يُبئ بعضهم بعضا بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيته فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ -يهلك- إلا نفسه وأهل بيته.

وإن لليهود بني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وحفنة وبني الشطيبة مثل ليهود بني عوف، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، ولا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وبأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يُخاف فساد، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يشرب، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإثم يصلحونه، وأثم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظالم أو آثم، وإن الله جاز لمن برّ واتقى¹.

3/ بنود الوثيقة

1- هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم

¹ - ابن كثير: السيرة النبوية ج 2، ص 319

2- إنهم أمة واحدة من دون الناس

3- المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين

4- وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

5- وبنو الحارث بن الخزرج على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف

6- وبنو ساعدة على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

7- وبنو جشم على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

8- وبنو النجار على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

9- وبنو عمرو بن عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

10- بنو النبيت على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

11- وبنو الأوس على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

12- وإن المؤمنين لا يتركوا مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف، من فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه

13- وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم

14- ولا يقتل مؤمنا مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن

15- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أداناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس

16- وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم

17- وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم

18- وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا

19- وإن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله

20- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن

- 21- وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة، فإنه قو دبه إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه
- 22- وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل
- 23- وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد
- 24- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين
- 25- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته
- 26- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بن عوف
- 27- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بن عوف
- 28- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بن عوف
- 29- وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بن عوف
- 30- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بن عوف
- 31- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بن عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته
- 32- وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم
- 33- وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بن عوف وإن البر دون الإثم
- 34- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم
- 35- وإن بطانة يهود كأنفسهم
- 36- وإنه لا يخرج منهم أحدا إلا بإذن محمد، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا

- 37- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لا يأثم أمرؤ بجلفه وإن النصر للمظلوم
- 38- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين
- 39- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة
- 40- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم
- 41- وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها
- 42- وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره
- 43- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها
- 44- وإن بينهم النصر من دون يثرب
- 45- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم
- 46- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره
- 47- وإنه لا يجوز هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وآثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-¹.

4/تحليل مضمون الوثيقة

وهي كما نلاحظ وثيقة تنظم الحياة المدنية والعلاقات الداخلية بين سكن المدينة من جهة، وتنظم العلاقات الخارجية والسياسية مع المحاربين والمسلمين لأهل المدينة، وبصفة عامة يمثل إصدار الوثيقة تطورا كبيرا في مفاهيم الاجتماع والسياسة، فهذه جماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم.

¹ -أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص282-285

واحتوت الوثيقة على مواد متعلقة باليهود وعلاقتهم بالمسلمين، والمواد التي تتضمن موادة اليهود تبدأ من المادة 24 إلى المادة 47، ونصت المادة 24 على أن اليهود التزموا بدفع قسط من نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة¹، أما البنود من 25 إلى 35 فحددت العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج، ونسبتهم إلى عشائرتهم العربية، وأقرت حلفهم مع المسلمين، وكفلت المادة 25 لليهود حريتهم الدينية، وأقرت الصحيفة مفهوم الحرية الدينية بأوسع معانيها، وضربت عرض الحائط بمبدأ التعصب ومصادرة الآراء والمعتقدات، كما حددت مسؤولية الجرائم وحصرتها في مرتكبيها، كما منع البند 43 اليهود من إجارة قريش أو نصرها، كما منع البند 36 اليهود من الخروج من المدينة إلا بعد استئذان الرسول -صلى الله عليه وسلم-، واعترف اليهود في المادة 42 بسلطة قضائية يرجعون إليها، وشملت المادة 45 حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من سائر القبائل باستثناء قريش، والمادة 39 اعتبرت المدينة حرماً لا يحل انتهاكه، فلا يقتل صيده ولا يقطع شجره، وحدد حرم المدينة بين الحرة الشرقية والحرة الغربية، وبين جبل ثور في الشمال وجبل عير في الجنوب، ويدخل وادي العقيق في الحرم، فحل الأمن بهذه المادة داخل المدينة ومنعت الحروب الداخلية².

كما تضمنت الوثيقة مواد متعلقة بعلاقة المسلمين ببعضهم وتحدد واجباتهم وحقوقهم، وفي المادة الأولى تعريفاً بالأطراف المتحالفة وهو المهاجرين والأنصار، ونصت المادة الثانية على أنهم أمة واحدة تربطهم رابطة العقيدة، يتميزون بها عن كل الناس، وقد جاءت هذه موافقة تماماً لما ورد في القرآن الكريم، من المبادئ العامة من حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس، ومن حيث التعاون والتراحم بينهم، ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار، وذكرت البنود من 3 إلى 11 العشائر، واعتبرت المهاجرين كتلة واحدة لقلة عددهم، أما الأنصار فنسبتهم إلى عشائرتهم وهذا لا يعني الإبقاء على العصبية القبلية، بل اعتراف بالروابط الأخرى بعد رابطة العقيدة، وجعل أفراد العشيرة الواحدة متضامنين في دفع الديات وفكك الأسرى وإعانة المحتاج، وفي المادة 13 الأخذ على يد البغاة والمعتدين والمفسدين، أما البند 21 فنص على جناية القتل دون سبب يوجب إن القاتل يقاد به، ويعاون المؤمنون في تطبيق الحكم عليه وعدم حماية الجاني مهما بلغت درجت قرابته، وفي المادة 17 نص على أن السلم والحرب جميعاً المؤمنون فيه سواء لا يعد أحدهم سلماً ولا حرباً دون الآخر، وفي المادة 23 يقرر البند أن المرجع عند الخلاف هو النبي -صلى الله عليه وسلم-³.

ج/ فريضة الجهاد

أ/ الإذن في القتال: بعد أن قاربت مرحلة بناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة على نهايتها، ووضع النبي -صلى الله عليه وسلم- خطواته الأولى نحو بناء الدولة الإسلامية في يثرب، وصعدت قريش اضطرها ومقاومتها لأتباع الدين الجديد، نزل عندها الإذن

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 285-286

² - المرجع نفسه، ص 290-292

³ - المرجع نفسه، ص 292-298

بالقتال، روى النسائي والترمذي عن ابن عباس قال: (لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن؛ فأنزل الله تعالى: [أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ] ¹، فقال أبو بكر: لقد علمت أنه سيكون قتال) ².

قال ابن كثير: وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددا فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقيين لثقت عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نيفا وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي يعنون أهل ليالي مني فنقتلهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لم أؤمر بهذا)، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم وهما يقتله وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهبت منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة فلما استقروا بالمدينة وافهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعوا عليه وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلا يلجئون إليه، شرع الله جهاد الأعداء فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك ³.

||/ شرع الجهاد لرد العدوان وليس للعدوان: قال ابن كثير في تفسيره الآية 77 من سورة النساء: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبا لأسباب كثيرة، منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار ⁴.

إن الجهاد الذي أذن فيه الله -عز وجل- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- هو حربا دفاعية، يمكن أن تعلنها أية أمة تعرضت للخطر الذي تعرضت له دولته الناشئة في المدينة في أي زمان أو مكان، ولذلك كانت غزوات النبي -ص- كلها دفاعية فعلا، لرد مؤامرة أو عدوان بدأ به المشركون، ولذلك فهي تمثل مرحلة من الدعوة الجديدة تطلبت وسائل جديدة، مثل مرحلة الدعوة السرية، ثم مرحلة الجهر المسالم بالدعوة ⁵.

||/ وقفة لا بد منها: إن فريضة الجهاد في سبيل الله، تعرضت إلى هجوم عنيف، من قبل أعداء الإسلام وبعض أصدقائه وحتى بعض أبنائه في بعض الأحيان، ونرى أن الحامل على ذلك، إما العداء التقليدي للإسلام من خصومه الأقدمين بداية من المشركين وغيرهم، وهؤلاء لا نحاكمهم إلا بالتاريخ الإسلامي الناصع وخاصة في فتوحاته الأولى، أو يكون الدافع عند البعض غموض مفهوم الجهاد

¹ - سورة الحج، الآية (39)

² - سنن الترمذي: كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة الحج، رقم: 3095

³ - تفسير ابن كثير، ج 4، ص 304

⁴ - تفسير ابن كثير، ج 2، ص 211

⁵ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر الجزائر، ط 11، 1412هـ/1991م، ص 155

لديه، فيحتاج إلى تبيان، أو البعض الآخر أصدر حكمه عليه جاهزا متأثرا بكيد الأعداء، فيحتاج إلى تصحيح، أو نتج عن ذلك تصرفات بعض الجهلة بأحكام الجهاد وتصرفهم الخاطى به، والإساءة إليه بتشويه سمعته والإضرار به، أو غير ذلك فيحتاج تفصيل وتدليل!

إن الجهاد ليس إعلان الحرب على كل مخالف لما يحمله هذا الدين من اعتقاد، أو نظرة أخرى مخالفة لأحكامه وتشريعاته وآدابه، وإنما هو حالة من دفاع المسلمين عن دينهم وأنفسهم وأرضهم وعرضهم والمستضعفين منهم، وإذا كان الجهاد هو إعلان الحرب من المسلمين على مخالفيهم، فلماذا لم يؤذن به لهم وهم في أمس الحاجة إليه والدفاع عن أنفسهم بدل إخراجهم وتركهم أوطانهم ومفارقتهم لأبنائهم وأعز أصدقائهم وكل أملاكهم وأموالهم.

ولفهم حقيقة الجهاد لا بد من تعريفه وإبراز غاياته وأهدافه وتحديد مراحلها التي مر بها منذ ظهور الدعوة في مكة إلى غاية الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا.

1/ مفهوم الجهاد: معناه بدل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة المجتمع الإسلامي، والقتال نوع من أنواعه

2/ غايته: أما غايته فهي إقامة المجتمع الإسلامي وتكوين الدولة الإسلامية بمبادئها السامية وغايتها النبيلة.

3/ المراحل التي مر بها: كان الجهاد في صدر الإسلام مقتصرًا على نشر الدعوة سرا وسلما، لكسب أول الأنصار وتأسيس القاعدة الأساسية للانطلاق، ثم الجهر بالدعوة مع الإبقاء على سلمية وسائلها، والصمود في سبيلها للمحن والشدائد، ثم جاءت مرحلة جديدة مع بدء الهجرة وشرع إلى جانبها القتال الدفاعي، أي رد كل قوة يمثلها، بعد أن صارت للمسلمين في المدينة دولة تحتضنه وتوفر له شروط القيام والبناء وغيرها، ثم شرع بعد ذلك بعد غزوة الأحزاب القتال الدفاعي خارج المدينة-أو الحرب الاستباقية-، يعني مهاجمة العدو ومباغتته في عقر داره قبل أن يهاجم المسلمين في المدينة، وذلك بقتال كل من وقف عقبة في طريق الدعوة الإسلامية، أو هدد أمن الدولة الإسلامية، ومن تم كان الجهاد مجرد مرحلة فقط، ومن هنا تعلم أنه لا معنى لتقسيم الجهاد في سبيل الله إلى حرب دفاعية وأخرى هجومية، إذ أن مناط شرعة الجهاد ليس الدفاع لذاته ولا الهجوم لذاته، وإنما مناطه الحاجة إلى إقامة المجتمع الإسلامي، بكل ما يتطلبه من النظم والمبادئ الإسلامية، ولا عبء بعد ذلك بكونه جاء هجوما أم دفاعا¹، وذلك رغم أن المعاصرين يشنون الحروب على بلدان تشكل في نظرهم خطرا عليهم تبعد عنهم بالآلاف الأميال، ولا يسمونه حربا هجوميا بل يقولون بأنها دفاعية لحماية الديمقراطية أو شيء من هذا السبيل.

فسيبيل الدعوة هي الحكمة والموعظة الحسنة، ولم تكن الحرب يوما هي السبيل لنشر الإسلام، وأما الحروب التي نشبت بين

المسلمين والفرس والروم وغيرهم، فقد اضطر إليها المسلمون اضطرارا

¹ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، 126، 127

- إما للدفاع عن أنفسهم

- وإما للدفاع عن حرية نشر عقيدتهم لا لنشرها، والفرق كبير بين الأمرين¹

فكانوا لا يقاتلون أحدا إلا دفاعا عن الدعوة الإسلامية إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن بإجباره بأنواع التعذيب والإكراه حتى يرجع عما اختاره لنفسه كما تقدم، أو وبصد من أراد الدخول في الإسلام عنه، أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته².

4/الجهاد في مرحلة الفتوحات الإسلامية: أما الفرية الأخرى بأن دافع الجهاد عند المسلمين كان ماديا بحتا، وإنما الغرض منه التقليل من أهمية العامل الروحي في الإسلام، وإضعاف فريضة الجهاد في نفوس المسلمين، وإماتة روح القوة لديهم، تأثرا بالاتجاه المادي في تفسير التاريخ، والذي يحاول أن يفسر كل حادثة تفسيراً مادياً، ينفي أي أثر للإيمان بالله والجهاد في سبيل إعلاء كلمته، وقد كان العرب قبل الإسلام أحوج لهذه الفتوحات على هذا المبدأ ولم يفعلوا، وإنما هو دور العقيدة في إيقاظ الهمم وتحريك القيم، وإزالة الخصومات والعصبيات التي كانت تفرقهم ولا توحدهم، وتعلموا من الإسلام معنى الأرض والوطن والأمة والدفاع عن المكتسبات، ونشر المبادئ والقيم والدعوة إلى الله.

5/سماحة الإسلام في فتوحاته ومبادئ القتال عند المسلمين: وخير دليل على ذلك انتشار الإسلام في إفريقيا، فلم يكن استنزافاً للموارد- كما فعل الاستعمار الأوروبي- بل كان تعميراً، والإسلام لم يسترق الإنسان الإفريقي بل حرره بعيداً عن إرهاب السياط- كما حدث في أمريكا-³.

وعندما دخل الإسلام بيت المقدس فاتحاً لها سنة 15هـ/638م، فقد كان فاتحها المسلمين متسامحين على نحو مدهش مع تابعيهم المسيحيين، وفي الواقع رحب بعض المسيحيين هناك بجرارة بالحياة تحت قيادة حاكميهم الجدد، وفضلوها على تلك التي توجب تحملها لقرون تحت سيطرة الأباطرة البيزنطيين، الذين لم يرهقوهم بالضرائب الكثيرة فحسب، بل كانوا يضطهدونهم لعقائدهم المنشقة- حسب المعايير التي آمنت بها القسطنطينية- ولكنها كانت مرفوضة في فلسطين وسورية ومصر، فقد أفسح المسلمون لهم المجال على الأقل ليؤمنوا بما اعتقدوا به، وعبادة ما فكروا أنه مناسب، كم أفسحوا المجال للحجاج من الغرب لزيارة المواقع الدينية المقدسة لديهم⁴.

ومعلوم أن هذه المبادئ مأخوذة من صميم الشرع في نصوصه وآدابه وأحكامه، وما تميزوا به من حسن المعاملة هو من حسن التعليم والتربية والتدريب، والإخلاص للدعوة وحدها.

¹ - الماحي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، ص28

² - المرجع نفسه، ص24

³ - حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني، ص7

⁴ - أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، تر: أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة دمشق، 1985، ص20

يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعِيلٌ أَلَّا تُؤَدُّنُونَ لِلصَّلَاةِ فَآتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ فَأَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَذَانِ¹.

11/إتمام الصلاة: لما استقر النبي-صلى الله عليه وسلم- والمسلمون بالمدينة بعد الهجرة، زيد في الصلاة ركعتين، ففرضت الصلاة أربعاً بعد الهجرة بشهر²، روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر³، وروى النسائي عن عائشة قالت فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر⁴.

الزيادة في صلاة الحضر وقعت بالمدينة، والذي يظهر أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت بعد الهجرة عقب الهجرة إلا الصبح، كما روى ابن خزيمة وابن حبان والبيهقي عن عائشة قالت (فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتين فلما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان وتركت صلاة الفجر لطول القراءة وصلاة المغرب لأنها وتر النهار)⁵، ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف منها في السفر عند نزول الآية السابقة وهي قوله تعالى: {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا(101)}⁶، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير في شرح المسند أن قصر الصلاة كان في السنة الرابعة من الهجرة⁷.

وعند الإمام أحمد أنها مرت بثلاث أحوال، عن معاذ بن جبل قال أحييت الصلاة ثلاثة أحوال وأحييت الصيام ثلاثة أحوال فأما أحوال الصلاة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس ثم إن الله أنزل عليه قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره قال فوجهه الله إلى مكة قال فهذا حوّل قال وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذنون بها بعضهم بعضاً حتى نفسوا أو كادوا ينفسون قال ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت إني لم أكن نائمًا لصدفت إني بيننا أنا وبين النائم واليهظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله منى منى حتى فرغ من الأذان ثم أمهل ساعة قال ثم قال مثل الذي قال غير أنه يزيد في ذلك قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم علمها بلالاً فليؤذن بها فكان بلالاً أول من أذن بها قال وجاء عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله إنه قد طاف بي مثل الذي أطاف به غير أنه سبني فهذا

¹ - موطأ الإمام مالك: كتاب: النداء للصلاة، باب: ما جاء في النداء للصلاة، رقم: 134

² - البلخي أبو زيد أحمد بن سهل: كتاب البدء والتاريخ، ج 2، ص 70

³ - صحيح البخاري: كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم: 337

⁴ - سنن النسائي: كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة، رقم: 451

⁵ - الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (807هـ): موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، تح: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، [ص 144]

⁶ - سورة النساء، الآية: 101

⁷ - فتح الباري: ج 1، ص 553-554

حَوْلَانِ قَالَ وَكَانُوا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ وَقَدْ سَبَقَهُمْ بَعْضُهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَكَانَ الرَّجُلُ يُشِيرُ إِلَى الرَّجُلِ إِنْ جَاءَ كَمْ صَلَّى فَيَقُولُ وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ فَيُصَلِّيَهَا ثُمَّ يَدْخُلُ مَعَ الْقَوْمِ فِي صَلَاتِهِمْ قَالَ فَجَاءَ مُعَاذٌ فَقَالَ لَا أَجِدُهُ عَلَى حَالٍ أَبَدًا إِلَّا كُنْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَضَيْتُ مَا سَبَقَنِي قَالَ فَجَاءَ وَقَدْ سَبَقَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعْضِهَا قَالَ فَثَبَتَ مَعَهُ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ قَامَ فَقَضَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ قَدْ سَنَّ لَكُمْ مُعَاذٌ فَهَكَذَا فَاصْنَعُوا فَهَذِهِ ثَلَاثَةٌ أَحْوَالٍ¹ ...

111/ صلاة الجمعة: وقد اختلف في وقت فرضيتها، فالأكثر على أنها فرضت بالمدينة، لأنها فرضت بآيات مدنية² في قول الله تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }³، والنبى-صلى الله عليه وسلم- حين وصوله من الهجرة، أدركته أول جمعة في بني سالم بن عوف فقالوا: يا رسول الله هلم إلى العدد والعدد والقوة، أنزل بين أظهرنا⁴، فصلى أول جمعة في الإسلام هناك، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، فكانت أول جمعة صلاها في المدينة⁵.

1111/ تحويل القبلة والمفاصلة والتمايز عن اليهود: ذكر ابن كثير أن تحويل القبلة كان في شهر رجب سنة اثنتين من الهجرة قبل غزوة بدر الكبرى⁶، وهو موافق لما رواه البخاري: عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ أَوْ قَالَ أَحْوَالِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا وَكَانَ يُعْجَبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبَلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِّنْ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ وَكَانَتْ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ قَالَ الْبَرَاءُ فِي حَدِيثِهِ هَذَا أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى⁷: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ }⁸ (143).

قال ابن حجر: والجمع بين الروايات بأن يكون من جزم بستة عشر عدداً من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وألغى الزائد، ومن جزم بسبعة عشر عدداً معان وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف، وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور، وقال ابن حبان (سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام)، وهو مبني على أن القدوم كان في

¹ -مسند أحمد: كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث معاذ بن جبل، رقم: 21107

² - فتح الباري، ج 2، ص 412

³ -سورة الجمعة، الآية 9

⁴ - فتح الباري، ج 7، ص 289

⁵ -السيرة النبوية، ج 2، ص 271

⁶ -السيرة النبوية، ج 2، ص 372

⁷ - صحيح البخاري: كتاب: الإيمان ، باب: الصلاة من الإيمان، رقم: 29

⁸ - سورة البقرة، الآية: 143

ثاني عشر شهر ربيع الأول، وأول صلاة صلاها متوجها إلى الكعبة صلاة العصر، وعند ابن سعد: حولت القبلة في صلاة الظهر أو العصر - على التردد - وساق ذلك من حديث عمارة بن أوس قال: صلينا إحدى صلاتي العشي، والتحقيق أن أول صلاة صلاها في بني سلمة لما مات بشر بن البراء بن معرور الظهر، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصر، وأما الصبح فهو من حديث ابن عمر بأهل قباء¹.

ولما حول النبي -صلى الله عليه وسلم- قبلته، اعترض على ذلك اليهود فأنزل قَوْلُهُ تَعَالَى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}².

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل الله عز وجل: {قَوْلُوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ(144)}³ أي نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ أي قالوا ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا فأنزل الله جوابهم في قوله: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142)}⁴ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)}⁵ و{لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ(177)}⁶ أي الشأن كله في امتثال أوامر الله فحيثما وجهنا فالتوجه فالتوجه في امتثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه حيثما وجهنا فالتوجه وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال: قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة قالت بيئنا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ استأذن رجل من اليهود... إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وصلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وصلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام أمين⁷.

¹ - فتح الباري، ج 1، ص 120

² - سورة البقرة، الآية 142

³ - سورة البقرة، الآية: 144

⁴ - سورة البقرة، الآية: 142

⁵ - سورة البقرة، الآية: 115

⁶ - سورة البقرة، الآية: 177

⁷ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة، رقم: 23880

١١١١/فريضة الصيام: وكان فرض صيام رمضان في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر الكبرى¹، روى أبو داود عن عمرو بن مرة سمعت ابن أبي ليلى قال... حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ أَمَرَهُمْ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَنْزَلَ رَمَضَانَ وَكَانُوا قَوْمًا لَمْ يَتَعَوَّدُوا الصِّيَامَ وَكَانَ الصِّيَامُ عَلَيْهِمْ شَدِيدًا فَكَانَ مَنْ لَمْ يَصُمْ أَطْعَمَ مَسْكِينًا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} ² فَكَانَتْ الرَّخِصَةُ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ فَأَمَرُوا بِالصِّيَامِ قَالَ وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَفْطَرَ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يُصْبِحَ قَالَ فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَرَادَ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ إِنِّي قَدْ نَمْتُ فَظَنَّ أَنَّهَا تَعْتَلُ فَأَتَاهَا فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَرَادَ الطَّعَامَ فَقَالُوا حَتَّى نُسَخِّنَ لَكَ شَيْئًا فَنَامَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ {أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ} ³.

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ويصوم يوم عاشوراء، ثم أنزل صوم رمضان، وكانوا قوما لم يتعودوا الصيام، أي أن الناس لم تكن عاداتهم بالصيام فكان عليهم شديدا لا يتحملونه، فكان من لم يصم أطعم مسكينا، وهذا هو الحال الأول من الأحوال الثلاثة للصيام، وفي رواية: فكان من شاء أن يصوم صام، ومن شاء أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينا أجزاء ذلك فهذا حول، فنزل قوله تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} ⁴، أي فمن كان حاضرا مقيما غير مسافر فأدركه الشهر فليصمه، فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورحص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام فهذان حالان، وفي رواية للبخاري: إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، فجاء رجل من الأنصار إلى أهله وكان صائما فأراد الطعام فقالوا حتى نسحن لك شيئا فنام الرجل الأنصاري، فلما أصبحوا نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم - {أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ} ⁵، وهذا هو الحال الثالث للصيام.

وروى الإمام أحمد عن معاذٍ وأما أحوال الصيام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَقَالَ يَزِيدُ فَصَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَصَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْهِ الصِّيَامَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} ⁶ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ} ⁷ قَالَ فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَطْعَمَ مَسْكِينًا فَأَجْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُ قَالَ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الْآيَةَ الْأُخْرَى شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ إِلَى قَوْلِهِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ قَالَ فَأَثَبَتِ اللَّهُ صِيَامَهُ عَلَى الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ وَرَخَّصَ فِيهِ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ وَتَبَّتِ الْإِطْعَامُ لِلْكَبِيرِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ فَهَذَانِ حَوْلَانِ قَالَ وَكَانُوا

¹ -ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 388

² - سورة البقرة، الآية: 185

³ - سورة البقرة، الآية: 187

⁴ -سورة البقرة، الآية: 185

⁵ -سورة البقرة، الآية: 187

⁶ -سورة البقرة، الآية: 183

⁷ -سورة البقرة، الآية: 184

يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَأْتُونَ النَّسَاءَ مَا لَمْ يَنَامُوا فَإِذَا نَامُوا افْتَنَعُوا قَالَ ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةُ ظَلَّ يَعْمَلُ صَائِمًا حَتَّى أَمْسَى فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَصَلَّى الْعِشَاءَ ثُمَّ نَامَ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ حَتَّى أَصْبَحَ فَأَصْبَحَ صَائِمًا قَالَ فَرَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ جَهَدَ جَهْدًا شَدِيدًا قَالَ مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَهَدْتَ جَهْدًا شَدِيدًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَمِلْتُ أَمْسٍ فَجِئْتُ حِينَ جِئْتُ فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي فَنِمْتُ وَأَصْبَحْتُ حِينَ أَصْبَحْتُ صَائِمًا قَالَ وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أَصَابَ مِنَ النَّسَاءِ مِنْ جَارِيَةٍ أَوْ مِنْ حُرَّةٍ بَعْدَ مَا نَامَ وَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} ¹ إِلَى قَوْلِهِ: {ثُمَّ أَمَّوُا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} ² وَقَالَ يَزِيدُ فَصَامَ تِسْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رِبْعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ ³.

هـ/غزوات النبي-صلى الله عليه وسلم- وسرايا أصحابه في هذه المرحلة

1/الغزوات قبل غزوة بدر: والمراد بالغزوات ما وقع من قصد النبي صلى الله عليه وسلم الكفار بنفسه أو بجيش من قبله، وقصدهم أعم من أن يكون إلى بلادهم أو إلى الأماكن التي حلوها حتى دخل مثل أحد والخندق ⁴.

1/ غزوة ودان: كان أول قدوم النبي-صلى الله عليه وسلم- المدينة شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر وجمادين ورجب وشعبان، وشهر رمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة، ثم خرج غازيا في صفر على رأس اثنتي عشر شهرا من مقدمه ⁵، فكانت غزوة ودان أول غزوات النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة في صفر على رأس اثني عشر شهرا من مقدمه المدينة يريد قريشا، فوداع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة، وادعه رئيسهم محشي بن عمرو الضميري ⁶ ورجع بغير قتال، قال ابن هشام: وكان قد استعمل على المدينة سعد بن عبادة، وقال ابن عبد البر في كتاب الدرر في المغازي والسير: أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة ودان غزاها بنفسه في صفر، وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، أقام بها بقية ربيع الأول وباقي العام كله إلى صفر من سنة إثنين من الهجرة، ثم خرج في صفر المذكور واستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ ودان فوداع بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربا، وهي المسماة بغزوة الأبواء.

2/غزوة الأبواء: الأبواء قرية من عمل الفرع بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلا، قيل سميت بذلك لما كان فيها من الوباء، والأبواء وودان مكانان متقاربان بينهما ستة أميال أو ثمانية ⁷ ولهذا وقع في حديث الصعب بن جثامة: وهو بالأبواء أو بودان، ووقع في مغازي الأموي عن ابن إسحاق قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم غازيا بنفسه حتى انتهى إلى ودان وهي

¹-سورة البقرة، الآية: 187

²-سورة البقرة، الآية: 187

³-مسند أحمد: كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث معاذ بن جبل، رقم: 21107

⁴- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص326

⁵-ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص356

⁶-المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة

⁷- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص326

الأبواء، وقال موسى بن عقبة: أول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم - يعني بنفسه - الأبواء، وفي الطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال: أول غزاة غزوناها مع النبي الأبواء، وذكر أبو الأسود في مغازيه من حديث ابن عباس (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة بن الحارث في ستين رجلا فلقوا جمعا من قريش فتراموا بالنبل، فرمى سعد بن أبي وقاص بسهم، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله)¹.

3/ غزوة العُشَيْرَة: والعشيرة نسبة إلى المكان الذي وصلوا إليه واسمه العشير أو العشيرة، وهي مكان عند منزل الحج بينبع، قال ابن إسحاق: هي ببطن ينبع، وليس بينها وبين البلد إلا الطريق، وخرج إليها في عدة مائة وخمسين أو مائتين، قال ابن هشام: واستخلف فيها على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد²، وخرج إليها جمادي الأولى يريد قريشا أيضا، فوادع فيها بني مدلج من كنانة، وحلفائهم من بني ضمرة³، وذكر ابن سعد أن المطلوب في هذه الغزاة هي عير قريش التي صدرت من مكة إلى الشام بالتجارة ففاتتهم، وكانوا يترقبون رجوعها فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يتلقاها ليغنمها، فبسبب ذلك كانت وقعة بدر، وذكر ابن إسحاق عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهرا فصالح بها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة فوادعهم، فقال أبو عمر: فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، ووادع فيها بني مدلج ولم يلق حربا، وروى عن أبي إسحاق كُنْتُ إِلى جَنْبِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقِيلَ لَهُ كَمْ غَزَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةٍ قَالَ تِسْعَ عَشْرَةَ قِيلَ كَمْ غَزَوْتَ أَنْتَ مَعَهُ قَالَ سَبْعَ عَشْرَةَ قُلْتُ فَأَيُّهُمْ كَانَتْ أَوَّلَ الْغُسَيْرَةِ أَوْ الْعُشَيْرِ فَذَكَرْتُ لِقَتَادَةَ فَقَالَ الْعُشَيْرُ⁴، وغزوة العشيرة هي الثالثة، قال ابن التين: يحمل قول زيد بن أرقم على أن العشيرة أول ما غزا هو، ما أول غزوة غزاها أي وأنت معه؟ قال: العشير، ويكون قد خفي عليه اثنتان، فعلى هذا ففات زيد بن أرقم ذكر اثنتين منها ولعلهما الأبواء وبواط، وكان ذلك خفي عليه لصغره⁵.

4/ غزوة بَواط أو بُواط: أما بواط فهو جبل من جبال جهينة بقرب ينبع، قال ابن إسحاق: ثم غزا في شهر ربيع الأول يريد قريشا أيضا حتى بلغ بواط من ناحية رَضْوِي، ورضوي: جبل مشهور عظيم بينبع، ورجع ولم يلق أحدا⁶، وكان في مائتي راكب ولواؤه مع سعد بن أبي وقاص، وكان مقصده أن يعترض لعير قريش، وكان فيه أمية بن خلف ومائة رجل وألفان وخمسمائة بعير، قال ابن هشام: واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، وقال الواقدي سعد بن معاذ⁷، وقال ابن عبد البر في كتاب الدرر في

¹ -المصدر نفسه، ج7، ص327

² - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص326

³ -ابن كثير:السيرة النبوية، ج2، ص362

⁴ -صحيح البخاري: كتاب:المغازي، باب:غزوة العشرة أو العسيرة، رقم:3949

⁵ - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص328

⁶ -المصدر نفسه، ج7، ص327

⁷ - ابن كثير:السيرة النبوية، ج2، ص361

المغازي والسير ثم أقام بالمدينة إلى شهر ربيع الآخر من السنة الثانية للهجرة، ثم خرج فيها واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بواط من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً¹.

روى مسلم عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا... ثم مضينا حتى أتينا جابر بن عبد الله في مسجده وهو يصلي في ثوب واحد مشتتاً به... سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهني وكان الناضح يعقبه منا الخمسة والستة والسبعة فدارت عقبه رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعته فتلذذ عليه بعض التلذذ فقال له شأ لعنك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا اللعين بغيره قال أنا يا رسول الله قال انزل عنه فلا تصحبنا بملعون لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا ثوفنوا من الله ساعة يسأل فيها عطاءً فيستجيب لكم².

5/ غزوة بدر الأولى: قال ابن إسحاق: ولما رجع إلى المدينة يعني من غزوة بواط، لم يبق إلا ليالي حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه حتى بلغ سقران من ناحية بدر، فقاتله كرز بن جابر، وهذه هي بدر الأولى³.

11/ السرايا قبل غزوة بدر

1/ تعريف السرية: السرية هي التي تخرج بالليل، والسارية التي تخرج بالنهار، وقيل سميت بذلك لأنها تخفى ذهابها، وهي قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه وهي من مائة إلى خمسمائة، فما زاد على خمسمائة يقال له منسر، فإن زاد على الثمانمائة سمي جيشاً، وما بينهما يسمى هبطة، فإن زاد على أربعة آلاف يسمى جحفلاً، فإن زاد فجيش جرار، والحميس الجيش العظيم، وما افترق من السرية يسمى بعثاً، فالعشرة فما بعدها تسمى حفيرة، والأربعون عصابة، وإلى ثلاثمائة مقنب، فإن زاد سمي جمرة، والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر⁴.

2/ سرية حمزة بن عبد المطلب: قال ابن إسحاق: كانت راية حمزة أول راية عقدها له رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحد من المسلمين، قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم - في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيه من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص280

² - كتاب الزهد والرقائق، باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم: 5328

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص327

⁴ - المصدر نفسه، ج8، ص56

يكن بينهم قتال¹، قالوا: وكان حامل رايته أبو مرثد حليف حمزة، وذلك في شهر رمضان من السنة الأولى، وكانوا ليعترضوا عير قريش، فلقوا أبا جهل في جمع كثير².

3/ سرية عبيدة بن الحارث: قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي في ستين أو ثمانين راكبا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المروة فلقي بها جمعا عظيما من قريش، عليهم عكرمة بن أبي جهل، فلم يكن بينهم قتال، ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية، وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرازي حليف بني زهرة، وعُتْبة بن غزوان بن جابر المازني حليف بني نوفل بن عبد مناف وكانا مسلمين، وكان بعثه وبعث حمزة معا، وقال الواقدي كانت سرية حمزة في رمضان وبعدها سرية عبيدة في شوال³.

4/ سرية عبد الله بن جحش: ورد أنه ومن معه لقوا ناسا من قريش راجعين بتجارة من الشام فقاتلوهم، واتفق وقوع ذلك في رجب، فقتلوا منهم وأسروا وأخذوا الذي كان معهم، وكان أول قتل وقع في الإسلام وأول مال غنم، وممن قتل عبد الله بن الحضرمي أخو عمرو بن الحضرمي الذي حرض به أبو جهل قريشا على القتال ببدر⁴، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ جَاءَتْ جُهَيْنَةُ فَقَالَتْ: إِنَّكَ قَدْ نَزَلْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَأَوْثِقْ لَنَا حَتَّى نَأْمَنَكَ وَتَأْمَنَنَا، فَأَوْثِقْ لَهُمْ وَلَمْ يُسَلِّمُوا، فَبَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَجَبٍ وَلَا نَكُونُ مِثَّهُ، وَأَمَرْنَا أَنْ نُعِيرَ عَلَى حَيٍّ مِنْ كِنَانَةَ إِلَى جَنْبِ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَأَعْرَضْنَا عَلَيْهِمْ وَكَانُوا كَثِيرًا، فَلَجَأْنَا إِلَى جُهَيْنَةَ فَمَنَعُونَا وَقَالُوا: لِمَ تُقَاتِلُونَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؟ فَقُلْنَا: إِنَّمَا نُقَاتِلُ مَنْ أَخْرَجَنَا مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: مَا تَرَوْنَ؟ فَقَالُوا: نَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنُخْرِئُهُ، وَقَالَ قَوْمٌ: لَا بَلْ نُقِيمُ هَاهُنَا، وَقُلْتُ أَنَا فِي أَنَاسٍ مَعِي: لَا بَلْ نَأْتِي عَيْرَ قُرَيْشٍ هَذِهِ فَنُصِيبُهَا، فَنُطَلِّقُنَا إِلَى الْعَيْرِ، وَكَانَ الْفَيْءُ إِذْ ذَلِكَ: مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ، فَنُطَلِّقُنَا إِلَى الْعَيْرِ، وَنُطَلِّقُ أَصْحَابَنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ الْحَبْرَ، فَقَامَ غَضَبَانٌ مُخْمَرًا لَوْنُهُ وَوَجْهُهُ، فَقَالَ: ذَهَبْتُمْ مِنْ عِنْدِي جَمِيعًا وَجِئْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ؟ إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْفُرْقَةَ، لِأَبَعَثَ عَلَيْكُمْ رَجُلًا لَيْسَ بِخَيْرِكُمْ أَصْبَرُكُمْ عَلَى الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، فَبَعَثَ عَلَيْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّ، فَكَانَ أَوَّلَ أَمِيرٍ فِي الْإِسْلَامِ⁵.

111/ غزوة بدر الكبرى

1/ تعريف بمكان المعركة وسببها

¹ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 359

² - ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ج 7، ص 327

³ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 356-357-359

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 327

⁵ - مصنف ابن أبي شيبة، [ج 14/ 352]

***تعريف بمكان المعركة:** بدر هي قرية مشهورة نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة كان نزلها، ويقال بدر بن الحارث، وحكى الواقدي إنكار ذلك كله عن غير واحد من شيوخ بني غفار، ويقال بدر اسم البئر التي بها، سميت بذلك لاستدارتها أو لصفاء مائها فكان البدر يرى فيها، وقالوا: إنما هي مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بدر، وإنما هو علم عليها كغيرها من البلاد¹.

***سبب الغزوة:** قال ابن إسحاق: ثم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، سمع بأبي سفيان صخر بن حرب، مقبلا من الشام في غير لقريش عظيمة فيها أموال وتجارة، وفيها ثلاثون رجلا أو أربعون، منهم مخزومة بن نوفل وعمرو بن العاص²، فندب النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وكان أبو سفيان يتجسس الأخبار فبلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم استنفر أصحابه بقصدهم، فأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى قريش بمكة يحرضهم على المحيء لحفظ أموالهم ويحذرهم المسلمين فاستنفرهم ضمضم، فخرجوا في ألف راكب ومعهم مائة فرس، واشتد حذر أبي سفيان فأخذ طريق الساحل وجد في السير حتى فات المسلمين، فلما أمن أرسل إلى من يلقي قريشا يأمرهم بالرجوع، فامتنع أبو جهل من ذلك، فكان ما كان من وقعة بدر³.

2/ تعداد الجيشين وعدتهم

***عدد جيش المسلمين:** روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرِ قَالَ نَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَنِيفٍ وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ⁴.

في حديث ابن عباس في مسند الإمام أحمد لم يحدد عدد جيش المسلمين يوم بدر، لكنه جعلهم أكثر من ثلاثة مائة، وفي أبي داود ضبطهم بثلاثمائة وخمسة عشر، روى أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمَ بَدْرِ فِي ثَلَاثِ مِائَةٍ وَخَمْسَةِ عَشَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حِقَاةٌ فَأَحْمِلْهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عِرَاءٌ فَأَكْسُهُمُ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعُهُمْ فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ بَدْرِ فَأَنْقَلَبُوا حِينِ انْقَلَبُوا وَمَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ أَوْ جَمَلَيْنِ وَاکْتَسَوْا وَشَبِعُوا⁵.

ولم يخرجوا على أتم الاستعداد، لأنهم خرجوا من أجل العير وليس القتال، كانوا مشاة إلا القليل منهم، وكانوا عارين من السلاح وكان المشركون على العكس من ذلك، والسبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ندب الناس إلى تلقي أبي سفيان

¹ -المصدر نفسه، ج7، ص333

² -ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص380

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص329

⁴ -مسند الإمام أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بالخطاب، رقم: 203

⁵ - سنن أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في نفل السرية تخرج من العسكر، رقم: 2367

لأخذ ما معه من أموال قريش، وكان من معه قليلا فلم يظن أكثر الأنصار أنه يقع قتال فلم يجز معه منهم إلا القليل، ولم يأخذوا أهبة الاستعداد كما ينبغي، بخلاف المشركين فإنهم خرجوا مستعدين ذابين عن أموالهم¹.

* /عدد جيش المشركين من قريش: روى الإمام أحمد عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ نَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَنِيفٌ وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ²، وكان في النفير أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما من رؤساء قريش، خرجوا مستعدين ذابين عن أموالهم في كامل عددهم وعدتهم وسلاحهم، معهم سبعمائة بعير ومائة فرس³.

3/ اختيار النبي -صلى الله عليه وسلم- مكان المعركة والاستعداد المادي والمعنوي لها

* /اختيار مكان المعركة: قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس، وردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير⁴، وسلك طريقا معتدلة، وسمع خير قريش ومسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، فتكلم أبو بكر ثم عمر، ثم المقداد بن عمرو⁵، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- بقي يردد أشيروا علي أيها الناس، حتى تكلم سعد بن معاذ⁶، فقال: لو سرت بنا حتى تبلغ برك الغماد لسرنا معك⁷، فانطلقوا حتى نزلوا بدرا، وأصابوا راوية لقريش بها فسألوهم خير قريش فأخبروهم⁸، ونزلوا أدنى ماء بدر، فأشار الحباب بن المنذر على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: امض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقد أشرت بالرأي⁹.

لقد اعتمد النبي -صلى الله عليه وسلم- على مشورة أصحابه، في مسيره إلى بدر عدة مرات، أحيانا يطلبها وأحيانا يبادرون بها، فكان يشركهم في الرأي ويعمل بما يشيرون به، فكان النصر نتيجة لمجموع الآراء التي تبادلها الصحابة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان كثير المشورة لهم في كثير من الأمور أو جلها.

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص333

² - مسند الإمام أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بالخطاب، رقم: 203

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص340

⁴ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص387-388

⁵ - راجع ما قاله المقداد بن عمرو للنبي -صلى الله عليه وسلم- لما بلغ موضع الصفراء واستشارهم، في ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص336-335

⁶ - ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص390-392

⁷ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص336

⁸ - المصدر نفسه، نفس الجزء، ص394، 397

⁹ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص402

***تسوية الصفوف ليلا:** روى الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف قال عبأنا النبي صلى الله عليه وسلم يبدر ليلاً¹، قال في النهاية: أي رتبهم في مواضعهم وهياتهم للحرب ببدر ليلاً، يعني سوى الصفوف وأقام كلا منا مقاما يصلح له في الليل ليكون على طبقه ووقفه في النهار، ووضع النبي صلى الله عليه وسلم - خطة للقتال جديدة ومبتكرة، تتماشى مع المكان الذي اختاره لتدار فيه المعركة، وفاجأ العدو بهذه الخطة، إذ كانوا يقاتلون وفق خطة الكر والفر وليس الصفوف.

***رفع معنويات جيش المسلمين:** روى مسلم عن أنس بن مالك قال كنا مع عمر بن مكنة والمدينة... ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان عدا إن شاء الله قال فقال عمر فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله صلى الله عليه وسلم²، وأسلوب التبشير بالنصر، وتحديد مصارع المشركين في ميدان المعركة، رفع به من معنويات المقاتلين، وجعلهم يقاتلون موقنين النصر، فكان لهم ذلك.

***إلحاح النبي صلى الله عليه وسلم - في الدعاء يوم بدر:** لقد نقل القرآن الكريم تصويراً دقيقاً للنبي صلى الله عليه وسلم -، وهو يلجأ إلى ربه متضرعاً في إلحاح شديد، طلباً للعون والنصر، وذلك في قول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ³}، كما روت كتب السنة من جهتها كيف كان اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم - في الدعاء، وثقته بأن النصر من عنده، روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مديده فجعل يهتف بربِّه اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم أت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض فما زال يهتف بربِّه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فاتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفك مناشدتك ربك فإنه سيُنجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ⁴ فَأَمَدَهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ⁵.

4/تأييد الله تعالى المسلمين يوم بدر

***تثبيتهم بالنوم والغيث:** ورد في القرآن تثبيت قلوب المسلمين بالنوم ليذهب عنهم الخوف، وتثبيت أقدامهم في الأرض بالمطر، بالإضافة إلى تثبيت الملائكة، قال تعالى: {إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبُّوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ⁶}، وهذا التأييد من الله كان بجنود رأوها أو لم يروها، أما النصر في النهاية فكله من الله.

¹ - سنن الترمذي: كتاب: الجهاد عن رسول الله، باب: ما جاء في الصف والتعبية عند القتال، رقم: 1600

² - صحيح مسلم: كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم: 5120

³ - سورة الأنفال، الآيات: 9-12

⁴ - سورة الأنفال، الآيات: 9-12

⁵ - صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم: 3309

⁶ - سورة الأنفال، الآيات: 11-12

*/تأييدهم بالملائكة: ورد تأييد المسلمين يوم بدر في القرآن والسنة، أما في القرآن فورد في قوله تعالى {إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبُّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ} ¹، أما في السنة فقد في صحيح مسلم قال أبو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَهُ بِالسَّوِطِ فَوَقَّهُ وَصَوَّتَ الْفَارِسِ يَقُولُ أَقْدِمْ حَيْزُومَ فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَحَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوِطِ فَاخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسْرُوا سَبْعِينَ ²، روى ابن أبي حاتم بسند صحيح عن الشعبي (أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين)، فأنزل الله تعالى: {الَّذِينَ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ} (124) ³، قال يمد كرز المشركين ولم يمد المسلمين بالخمسة، ومن طريق سعيد عن قتادة قال (أمد الله المسلمين بخمسة آلاف من الملائكة)، وعن الربيع بن أنس قال (أمد الله المسلمين يوم بدر بألف، ثم زادهم فصاروا ثلاثة آلاف ثم زادهم فصاروا خمسة آلاف) وكأنه جمع بذلك بين آل عمران والأنفال ⁴.

5/ نتائج المعركة:

* /خسائر المشركين من قريش

-/عدد القتلى والأسرى: روى الإمام أحمد: عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ... فَلَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ وَالتَّقْوَا فَهَرَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ فَقَتَلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا وَأَسَرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا ⁵، وكان زعيم المشركين وفرعون هذه الأمة أبو جهل لعنه الله قتل في تسعة وستين رجلا من المشركين، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبورا فوفى ذلك سبعين قتيلا.

-/دفن قتلى المشركين في بدر: روى مسلم عن أنس بن مالك قال كُنَّا مَعَ عُمَرَ بْنِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ... ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ عَدَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ فَوَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَفُوا الْخُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَجَعَلُوا فِي بَيْتٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَاَنْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ فَقَالَ يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَكَلَّمُ أَحْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا قَالَ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعِ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرَدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا ⁶.

* /خسائر المسلمين وغنائمهم يوم بدر

¹ -سورة الأنفال، الآيات: 9-10

² - صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم: 3309

³ - سورة آل عمران، الآية: 124

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 333

⁵ - مسند الإمام أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بالخطاب، رقم: 203

⁶ - صحيح مسلم: كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم: 5120

-/الخسائر: قتل من المسلمين يوم بدر اثنتا عشر شهيدا، ذكر أهل السير أسماءهم بالتفصيل¹.

-/غنائم المسلمين من الأموال: روى أبو داود عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي ثَلَاثِ مِائَةٍ وَخَمْسَةِ عَشَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ خُفَاءٌ فَاحْمِلْهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عُرَاءٌ فَاكْسُهُمُ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ فَأَنْقَلَبُوا حِينَ أَنْقَلَبُوا وَمَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ أَوْ جَمَلَيْنِ وَانْتَسَوْا وَشَبِعُوا².

-/أسرى المشركين يوم بدر

./موقف النبي-صلى الله عليه وسلم- من أسرى بدر: روى البخاري عن مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي أُسْرَى بَدْرٍ لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بِنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ³، فمراد النبي-صلى الله عليه وسلم- ليركتهم له بغير فداء، ومات المطعم بن عدي قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة⁴.

./موقف الصحابة من الأسرى: روى الإمام أحمد عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ... فَهَزَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ وَعَلِيًّا وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَؤُلَاءِ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ وَالْإِخْوَانُ فَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ الْفِدْيَةَ فَيَكُونُ مَا أَخَذْنَا مِنْهُمْ قُوَّةً لَنَا عَلَى الْكُفَّارِ وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَيَكُونُوا لَنَا عَضُدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قَالَ قُلْتُ وَاللَّهِ مَا أَرَى مَا رَأَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ قَرِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمْكِّنَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمْكِّنَ حَمْرَةَ مِنْ فُلَانٍ أَحْيَاهُ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَتْ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ هَؤُلَاءِ صَنَادِيدُهُمْ وَأَيْمَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ فَأَخَذَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ فَلَمَّا أَنْ كَانَ مِنَ الْعَدِ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَدَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِذَا هُمَا يَبْكِيَانِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَحَدَّثَ بُكَاءَ بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنَ الْفِدَاءِ لَقَدْ عَرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَنَ فِي الْأَرْضِ إِلَى قَوْلِهِ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ مِنَ الْفِدَاءِ ثُمَّ أُحِلَّ لَكُمْ الْغَنَائِمُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمْ

¹-ابن خلدون السيرة النبوية، ص122-123

²-سنن أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في نفل السرية تخرج من العسكر، رقم: 2367

³-صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرا، رقم: 3720

⁴-ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص376

الْفِدَاءِ فُقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَفَرَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا الْآيَةَ بِأَخَذِكُمُ الْفِدَاءَ¹.

* /اختلاف المسلمين في تقسيم الغنائم: انقسم المسلمون إلى ثلاث أقسام كما جاء في مسند الإمام أحمد عن عبادة بن الصّامتِ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا فَالْتَقَى النَّاسُ فَهَزَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ فَأَكْبَتِ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَخُونُهُ وَيَجْمَعُونَهُ وَأَخَذَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُصِيبُ الْعَدُوَّ مِنْهُ غِرَّةٌ حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ نَحْنُ حَوَيْنَاهَا وَجَمَعْنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ نَقَيْنَا عَنْهَا الْعَدُوَّ وَهَزَمْنَاهُمْ وَقَالَ الَّذِينَ أَخَذُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ أَخَذْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخِفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوَّ مِنْهُ غِرَّةٌ وَاشْتَعَلْنَا بِهِ فَنَزَلَتْ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَوَاقٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ².

وفي رواية أخرى انقسموا قسمين عند أبو داود عن ابن عباسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ مِنَ النَّفْلِ كَذَا وَكَذَا قَالَ فَتَقَدَّمَ الْفِتْيَانُ وَلَزِمَ الْمَشِيخَةَ الرَّيَاتِ فَلَمْ يَبْرَحُوا فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالَ الْمَشِيخَةُ كُنَّا رِذَاءً لَكُمْ لَوْ أَنهَزْتُمْ لَفِتْنْتُمْ إِلَيْنَا فَلَا تَدْهَبُوا بِالْمَغْنَمِ وَتَبْقَى فَأَبَى الْفِتْيَانُ وَقَالُوا جَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِلَى قَوْلِهِ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ³.

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهليّ قَالَ سَأَلْتُ عَبَادَةَ بْنَ الصّامِتِ عَنِ الْأَنْفَالِ فَقَالَ فِينَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ بَدْرٍ نَزَلَتْ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَافُنَا فَانْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ بَوَائِ يُقُولُ عَلَى السَّوَاءِ⁴.

فكانت هذه أول تجربة للمسلمين مع الغنائم، فبان ضعفهم وانقسامهم من أجلها، بعد أن توحدوا في غيرها، فأدبهم الله تعالى، ورد الغنائم إليه وإلى رسوله يقسمها كيف يشاء، وأمرهم بأن يصلحوا ما شجر بينهم بسببها.

¹ - مسند الإمام أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بالخطاب، رقم: 203

² - مسند الإمام أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث عبادة بن الصامت، رقم: 21699

³ - سنن أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في النفل، رقم: 2360

⁴ - مسند الإمام أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث عبادة بن الصامت، رقم: 21685

أ/موقف اليهود من الدعوة في هذه المرحلة

ا/نقض اليهود للصحيفة

1/ نقض يهود بني قينقاع للعهد: روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال... وَأَجَلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ وَكُلَّ يَهُودِ الْمَدِينَةِ¹.

أما عن سبب ذلك فإن يهود بني قينقاع كانوا أول من نقض العهد من اليهود، وأول من أخرج من المدينة من اليهود، روى ابن إسحاق في المغازي عن عبادة بن الصامت قال: (لما حاربت بنو قينقاع قام بأمرهم عبد الله بن أبي فمشى عبادة بن الصامت وكان له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي فترا عبادة منهم، قال: فنزلت { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ (52) }²، وكان عبد الله بن أبي لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يمن عليهم قال: يا محمد إنهم منعوني من الأسود والأحمر، وإني امرؤ أخشى الدوائر فوهبهم له، وروى ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال يا يهود: أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا يوم بدر، فقالوا: إنهم كانوا لا يعرفون القتال ولو قاتلنا لعرفت أنا الرجال³، وذكر الواقدي أن إجلاءهم كان في شوال سنة 2هـ أي بعد بدر بشهر، فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع فحاربهم في شوال بعد وقعة بدر فنزلوا على حكمه، وأخرجهم من المدينة إلى أذرع⁴.

2/نقض يهود بني النضير للعهد: ثم نقض العهد بنو النضير وهم قبيلة كبيرة من اليهود، وكان رئيسهم حبي بن أخطب⁵، أما عن سبب النقض فنقل عن عقبة في المغازي قال: كانت النضير قد دسوا إلى قريش وحضوهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلوهم على العورة⁶، فأجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المدينة، روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال حَارَبَتِ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ فَأَجَلَى بَنِي النَّضِيرِ وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنْ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَارَبَتِ قُرَيْظَةَ فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بَعْضَهُمْ لِحُفْوَا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا⁷، وكان ذلك بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد، قال البخاري

¹ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: حديث بني النضير، رقم: 4028

² - سورة المائدة، الآية: 51-52

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص386

⁴ - المصدر نفسه، نفس الجزء، ص383

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ص384

⁶ - المصدر نفسه، نفس الجزء، ص386

⁷ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: حديث بني النضير، رقم: 4028

قَالَ الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ كَانَتْ عَلَى رَأْسِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ قَبْلَ أُحُدٍ¹، وَأَنْزَلَ فِيهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا} (2)²، وَقَدْ أورد ابن إسحاق تفسيرها لما ذكر هذه الغزوة، قال السهيلي واتفق أهل العلم على أنها نزلت في هذه القصة، ولم يحتفلوا في أن أموال بني النضير كانت خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأن المسلمين لم يوجفوا بخيل ولا ركاب وأنه لم يقع بينهم قتال أصلاً³.

وروى عبد الرزاق عن عروة قال: (ثم كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكانت منازلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال لا الحلقة يعني السلاح، وقاتلهم حتى صالحهم على الجلاء فأجلاهم إلى الشام⁴، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر⁵، وكان سبب ذلك أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري فلما كان في الطريق راجعا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لقد قتلت قتيلين لأدينيهما⁶، قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في ديتهم، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم يستعينهم قالوا: نعم، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال، قال: وكان جالسا إلى جانب جدار لهم، فقالوا من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فأتاه الخبر من السماء فقام مظهرا أنه يقضي حاجة وقال لأصحابه: لا تبرحوا ورجع مسرعا إلى المدينة، واستبطأه أصحابه فأخبروا أنه توجه إلى المدينة فلحقوا به، فأمر بجرهم والمسير إليهم، فتحصنوا، فأمر بقطع النخل والتحريق، وذكر ابن إسحاق أنه حاصرهم ست ليال، وكان ناس من المنافقين بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنعوا، فإن قوتلتم قاتلنا معكم فتربصوا، فقذف الله في قلوبهم الرعب فلم ينصروهم، فسألوا أن يجلبوا عن أرضهم على أن لهم ما حملت الإبل فصولحوا على ذلك، وإذا ثبت أن سبب إجلاء بني النضير ما ذكر من همهم بالغدر به صلى الله عليه وسلم، وهو إنما وقع عند ما جاء إليهم ليستعين بهم في دية قتيلي عمرو بن أمية، تعين أن إخراجهم كان بعد غزوة أحد قال ابن إسحاق، لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق⁷.

¹ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: حديث بني النضير

² - سورة الحشر، الآية 2

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 384

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 384

⁵ - ابن كثير: تفسير ابن كثير، ج 6، ص 349

⁶ - المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة

⁷ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 384-385

وجاء في ذكر نقضهم للعهد سببا آخر، حيث أنهم لما عزموا على نقض العهد، أرسلوا إليه ليحاوهم على اتباعه، وعزموا على قتله، روى أبو داود عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِلَى الْيَهُودِ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَلِيقَةِ وَالْحُصُونِ وَإِنَّكُمْ لَتَقَاتِلُنَّ صَاحِبَنَا أَوْ لَنَفْعَلَنَّ كَذَا وَكَذَا وَلَا يُحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ وَهِيَ الْخَلَاخِيلُ فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْمَعَتْ بَنُو النَّضِيرِ بِالْعَدْرِ فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ وَلِيُخْرِجَ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبْرًا حَتَّى نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ الْمَنْصَفِ فَيَسْمَعُوا مِنْكَ فَإِنْ صَدَّقُواكَ وَأَمَنُوا بِكَ أَمَّا بِكَ فَقَصَّ خَبْرَهُمْ فَلَمَّا كَانَ الْعُدُودَ عَدَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا تَأْمُنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدِ تَعَاهُدُونِي عَلَيْهِ فَأَبَوْا أَنْ يُعْطَوْهُ عَهْدًا فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ ثُمَّ عَدَا الْعُدُ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِالْكَتَائِبِ وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يُعَاهِدُوهُ فَعَاهَدُوهُ فَانصَرَفَ عَنْهُمْ وَعَدَا عَلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَتَائِبِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ فَجَلَّتْ بَنُو النَّضِيرِ وَاحْتَمَلُوا مَا أَقَلَّتْ الْإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ وَأَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَخَشِبَهَا فَكَانَ نُحْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا وَخَصَّهُ بِهَا فَقَالَ: { وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ (6) }¹ يَقُولُ بَعْضُ قِتَالِ فَأَعْطَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرَهَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَكَانَا ذَوِي حَاجَةٍ لَمْ يَقْسِمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْصَارِ غَيْرَهُمَا وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةٌ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي فِي أَيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا²، وكان إجلائهم من أعظم الأسباب في جمع الأحزاب، فإنه كان من رعوسهم حيي بن أخطب وهو الذي حسن لبني قريظة الغدر وموافقة الأحزاب³.

3/ قتل أعداء الدعوة من زعماء اليهود

*/ قتل كعب بن الأشرف

-/أصل كعب بن الأشرف: قال ابن إسحاق: كان كعب عربيا من بني نبهان وهم بطن من طيء، وكان أبوه أصاب دما في الجاهلية فأتى المدينة فحالف بني النضير فشرف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعبا، وكان طويلا جسيما ذا بطن وهامة، وهجا المسلمين بعد وقعة بدر، وخرج إلى مكة فنزل على ابن وداعة السهمي والد المطلب، فهجاه حسان وهجا امرأته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية فطردته، فرجع كعب إلى المدينة وتشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم⁴، قال ابن سعد أن قتله كان في ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهرا من مهاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-⁵، من السنة 3هـ.

¹ - سورة الحشر، الآية: 6

² - سنن أبو داود، كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في خبر بني النضير، رقم: 2610

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص384

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص391

⁵ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص367

2/سبب قتله: أخرج ابن عائد من طريق الكلبي أن كعب بن الأشرف قدم على مشركي قريش فحالفهم عند أستار الكعبة على قتال المسلمين، ومن طريق أبي الأسود عن عروة (أنه كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ويحرض قريشا عليهم، وأنه لما قدم على قريش قالوا له: أدينا أهدى أم دين محمد؟ قال: دينكم¹، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من لي ببن الأشرف فقد آذاني، فقال محمد بن مسلمة: أنا به يارسول الله وأنا قاتله²، وفي فوائد عبد الله بن إسحاق الخراساني من مرسل عكرمة لقتل كعب سببا آخر، وهو أنه صنع طعاما وواطأ جماعة من اليهود أنه يدعو النبي صلى الله عليه وسلم إلى الوليمة فإذا حضر فتكوا به، ثم دعاه فجاء ومعه بعض أصحابه، فأعلمه جبريل بما أضمره بعد أن جالسه، فقام فستره جبريل بجناحه فخرج، فلما فقدوه تفرقوا، فقال حينئذ: من يتدب لقتل كعب، ويمكن الجمع بتعدد الأسباب³.

-/قصة قتله كما وردت في البخاري: روى حادثة قتله بتفاصيلها الإمام البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله فقالوا لمحمد بن مسلمة فقال يا رسول الله أحب أن أقتله قال نعم قال فأذن لي أن أقول شيئا قال قل فأتاه محمد بن مسلمة فقال إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عانا وإني قد أتيتك أستسلفك قال وأيضا والله لتمننه قال إنا قد اتبعناه فلا نجب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه وقد أزدنا أن نسلفنا وسقا أو وسقين فقال نعم ازهنوني قالوا أي شيء تريد قال ازهنوني نساءكم قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجهل العرب قال فازهنوني أبناءكم قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكنا نرهنك الأمة قال سفيان يعني السلاح فواعده أن يأتيه فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاة فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته أين تخرج هذه الساعة فقال إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة، وقال غيره: قالت أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم، قال إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعة أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب، قال عمرو جاء معه برجلين فقال إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشتمه فإذا رأيتموني استمكنتم من رأسه فدوونكم فاضربوه، فنزل إليهم فتوشحوا وهو ينفخ منه ريح الطيب فقال ما رأيت كاليوم ريحا أي أطيب، وقال غيره: قال عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب، قال عمرو فقال أتأذن لي أن أشم رأسك قال نعم فشمته ثم أشم أصحابه ثم قال أتأذن لي قال نعم فلما استمكن منه قال دونكم فقتلوه ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه⁴.

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص392

² - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص367

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص392

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: قتل كعب بن الأشرف، رقم: 4037

قال السهيلي: في قصة كعب بن الأشرف قتل المعاهد إذا سب الشارع، وأشار البخاري إلى أن كعبا كان محاربا حيث ترجم لهذا الحديث في باب: الفتك بأهل الحرب، في كتاب الجهاد والسير، وفيه جواز قتل المشرك بغير دعوة إذا كانت الدعوة العامة قد بلغت، وفيه جواز الكلام الذي يحتاج إليه في الحرب ولو لم يقصد قائله إلى حقيقته¹.

*قتل أبو رافع اليهودي

-/أصل أبو رافع: هو أَبُو رَافِعِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ وَيُقَالُ سَلَامٌ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ كَانَ بِحَيْبَرَ وَيُقَالُ فِي حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، ويحتمل أن يكون حصنه كان قريبا من خيبر في طرف أرض الحجاز، ووقع عند موسى بن عقبة: فطرقوا أبا رافع بن أبي الحقيق بخيبر فقتلوه في بيته، وله أخوان مشهوران من أهل خيبر أحدهما: كنانة وكان زوج صفية بنت حبي قبل النبي صلى الله عليه وسلم، والثاني أخوه الربيع بن أبي الحقيق، وقتلها النبي صلى الله عليه وسلم جميعا بعد فتح خيبر².

-/سبب قتله: قال ابن إسحاق: لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف استأذنت الخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر فأذن لهم، قال: فحدثني الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: كان مما صنع الله لرسوله أن الأوس والخزرج كانا يتصاولان تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئا إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا وكذلك الأوس، فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف تذاكرت الخزرج من رجل له من العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان لكعب؟ فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخيبر³.

-/قصة مقتله في رواية البخاري: روى الإمام البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي رافع عبد الله بن عتيك وعبد الله بن عتبة في ناس معهم فانطلقوا حتى دنوا من الحصن فقال لهم عبد الله بن عتيك امكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فانظر قال فتألففت أن أدخل الحصن ففقدوا جمارا لهم قال فخرجوا ببس يطلبونه قال فحشيت أن أعرف قال فعطيت رأسي وجلست كأبي أقضي حاجة ثم نادى صاحب الباب من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه فدخلت ثم اختبأت في مزبط جمار عند باب الحصن فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهب ساعة من الليل ثم رجعوا إلى بيوتهم فلما هدأت الأصوات ولا أسمع حركة خرجت قال ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كوة فأخذته ففتحت به باب الحصن قال قلت إن ندر بي القوم انطلقت على مهل ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فعلقتها عليهم من ظاهر ثم صعدت إلى أبي رافع في سلم فإذا البيت مظلم قد طفي سراجة فلم أدر أين الرجل فقلت يا أبا رافع قال من هذا قال فعمدت نحو الصوت فأضربه وصاح فلم تُعن شيئا قال ثم جئت كأبي أغيبه فقلت ما لك يا أبا رافع وعيرت صوتي فقال ألا أعجبك لأملك الويل دخل علي رجل فصررتي بالسيف قال فعمدت له أيضا فأضربه أخرى فلم تُعن شيئا فصاح وقام أهله قال ثم جئت وعيرت صوتي كهيتة

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 395

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 397

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 397

الْمُعِيثِ فَإِذَا هُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَأَضْعَ السَّيْفَ فِي بَطْنِهِ ثُمَّ أَنْكَفَى عَلَيْهِ حَتَّى سَمِعَتْ صَوْتَ الْعَظْمِ ثُمَّ خَرَجَتْ دَهْشًا حَتَّى أَتَيْتُ السَّلْمَ أُرِيدُ أَنْ أَنْزِلَ فَأَسْقَطُ مِنْهُ فَأَخْلَعَتْ رِجْلِي فَعَصَبْتُهَا ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي أَحْجُلُ فَقُلْتُ انْطَلِقُوا فَبَشَّرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي لَا أَبْرِحُ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاعِيَةَ فَلَمَّا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ صَعَدَ النَّاعِيَةُ فَقَالَ أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ قَالَ فَقُمْتُ أَمْشِي مَا بِي قَلْبَةٌ فَأَذْرَكْتُ أَصْحَابِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَشَّرْتُهُ¹، قال ابن سعد كانت في رمضان سنة 6هـ وقيل: في ذي الحجة² سنة 5هـ، وقيل فيها: سنة 4هـ، وقيل في رجب سنة 3هـ³، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ قَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ⁴.

11/ نقض يهود بني قريظة للعهد وتنفيذ حكم الله فيهم

1/ أسباب نقضهم للعهد: ثم نقض العهد يهود بني قريظة⁵، بإيعاز من حبي بن أخطب، حسن لهم الغدر وموافقة الأحزاب، حتى كان من هلاكهم ما كان⁶، وكان ذلك بممالأتهم لقريش وغطفان عليه- صلى الله عليه وسلم-، قال ابن سعد: كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين بني قريظة ولث من عهد، فلما جاءت الأحزاب بما جاءوا به من الجنود، نقضوا العهد وظاهروا المشركين على رسول الله- صلى الله عليه وسلم-،... فوضع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه السلاح، فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-... إنهد إلى بني قريظة، فقال: إن في أصحابي جهدا فلو أنظرتهم أياما،... إنهد إليهم لأدخلن فرسي هذا عليهم في حصونهم ثم لأضعضنها⁷.

2/ أمر جبريل بالمسير إلى بني قريظة: فكان توجه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم لسبع بقين من ذي القعدة، وأنه خرج إليهم في ثلاثة آلاف، وذكر ابن سعد أنه كان مع المسلمين ستة وثلاثون فرسا⁸، وكان ذلك بأمر الله تعالى وإيعاز من جبريل عليه السلام، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْخُنْدَقِ وَوَضَعَ السَّلَاحَ وَاعْتَسَلَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ قَدْ وَضَعْتَ السَّلَاحَ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ قَالَ فَإِلَى أَيْنَ قَالَ هَا هُنَا وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ⁹، وعند الطبراني والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سلم علينا رجل ونحن في البيت، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فرعا، فقامت في أثره فإذا بدحية الكلي فقال: هذا جبريل)، وفي حديث علقمة (يأمرني أن أذهب إلى بني قريظة)، وذلك بعدما رجع من الخندق، وفي مرسل يزيد بن الأصم عند ابن سعد (فقال له جبريل: عفا الله عنك،

¹ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق، رقم: 4040

² - الواقدي: كتاب المغازي، ص 291

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 397

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 392

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 384

⁷ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 1، ص 400

⁸ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 471

⁹ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة، رقم: 4117

وضعت السلاح ولم تضعه ملائكة الله)، وفي رواية جابر عند ابن عائد (فقال: قم فشد عليه سلاحك، فو الله لأدقنهم دق البيض على الصفا) ¹، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتعجيل في الخروج إليهم، وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَيْتِي فَرِيضَةً، فَأَذْرِكُ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعَنَّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ ².

3/فرض الحصار عليهم: حاصرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بضع عشرة ليلة، وعند ابن سعد خمس عشرة، وفي حديث عن معبد بن كعب قال: (حاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا، أو يقتلوا نساءهم وأبناءهم ويخرجوا مستقتلين، أو يبيتوا المسلمين ليلة السبت، فقالوا: لا نؤمن ولا نستحل ليلة السبت، وأي عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا؟ فأرسلوا إلى أبي لبابة بن عبد المنذر ³ وكانوا حلفاءه فاستشاروه في النزول على حكم النبي صلى الله عليه وسلم فأشار إلى حلقه يعني الذبح ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فارتبط به حتى تاب الله عليه ⁴.

4/نزولهم على حكم سعد بن معاذ: روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نَزَلَ أَهْلُ فَرِيضَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى سَعْدٍ فَأَتَى عَلَى جِمَارٍ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْمَسْجِدِ قَالَ لِلْأَنْصَارِ قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ فَقَالَ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَقَالَ تَقْتُلُ مُمَاتِلَتَهُمْ وَتَسْبِي دَرَارِيَهُمْ قَالَ فَضَيَّتْ بِحُكْمِ اللَّهِ وَرُبَّمَا قَالَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ ⁵.

قال ابن إسحاق قال: لما اشتد بهم الحصار أذعنوا إلى أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في موالي الخزرج - أي بني قينقاع ما علمت، فقال: ألا ترضون أي يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ، وفي رواية علقمة بن وقاص (فلما اشتد بهم البلاء قيل لهم انزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما استشاروا أبا لبابة قال نزل على حكم سعد بن معاذ)، وفي رواية علي بن مسهر عن هشام بن عروة عند مسلم (فرد الحكم فيهم إلى سعد وكانوا حلفاءه)، فحكم فيهم أن تقتل المقاتلة فجعلوا في بيتين، قال ابن إسحاق: فخذقوا لهم خنادق فضربت أعناقهم فجرى الدم في الخنادق، وقسم أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وعند ابن سعد من مرسل حميد بن هلال (أن سعد بن معاذ حكم أيضا أن تكون دارهم للمهاجرين دون الأنصار)، واختلف في عدتهم: فعند ابن إسحاق أنهم

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 477

² - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريضة، رقم: 4119

³ - أبو لبابة الأنصاري المدني، اسمه رفاعة، وقيل مبشر، وقيل بشير، أحد النقباء، كان مناصحا لهم لأن ماله وولده وعياله في بني قريظة عاش إلى خلافة علي، فلما انصرف رأى أنه قد أصابته فتنة عظيمة، فقال: والله لا أنظر في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحدث لله ثوبة نصوحا يعلمها الله من نفسي، فرجع إلى المدينة فربط يديه إلى جذع من جذوع المسجد قريبا من عشرين ليلة، البداية والنهاية [ج 4/ 137]

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 477

⁵ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريضة، رقم: 4121

كانوا ستمائة، وعند ابن عائد من مرسل قتادة كانوا سبعمائة، وقال السهيلي: المكثر يقول إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة، وفي حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، فيحتمل في طريق الجمع أن يقال إن الباقين كانوا أتباعاً¹.

ب/الغزوات والسرايا في هذه المرحلة قبل غزوة أحد: ذكر أهل السير والمغازي بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد نشاطاً هاماً للنبي -صلى الله عليه وسلم- في عدة غزوات وسرايا، كما ذكروا اختلافاً شديداً في تقديم بعضها عن بعض وأسمائها ووجهتها وغير ذلك، وأشهر ما ذكر من الغزوات والسرايا في هذه المرحلة:

ا/غزوة الكُرز: حيث خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- بنفسه في طلب كُرز بن جابر الفهري فقاته ولم يدركه².

اا/غزوة بني سليم: وكانت بينها وبين بدر سبع ليال وقادها بنفسه حتى بلغ ماء الكدر من بلادهم فأقام به ثلاث ليال ثم رجع ولم يلق حرباً³، وسماها ابن خلدون غزوة الكُرز⁴.

ااا/غزوة السويق: وكانت بعد بدر بشهرين، حيث أن أبا سفيان نذر بعد بدر أن يغزو المدينة فخرج في مائتي راكب حتى بلغ بني النضير ليلاً، وحرقت نخلًا بأطراف المدينة وقتل رجلين، فنفر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمسلمون، فقاتهم أبو سفيان ومن معه وطرحوا سويقاً من أزوادهم ليتخففوا فأخذها المسلمون فسميت به الغزوة⁵، وهذه الغزوات كلها كانت فيما تبقى من السنة الثانية للهجرة بعد بدر.

اااا/غزوة ذي أمر أو غزوة غطفان⁶: وكانت في محرم سنة 3هـ من الهجرة، وقادها النبي -صلى الله عليه وسلم- بنفسه إلى نجد يريد غطفان، حيث تجمع بذي أمر جمعاً من غطفان يريدون غزو أطراف المدينة، وأقام بنجد شهر صفر كله ورجع من غير حرب⁷.

ااااا/غزوة بُحْران: قادها النبي -صلى الله عليه وسلم- بنفسه، وقصد قريش حتى وصل إلى بني سليم، وأقام فيها عشرة ليال ثم رجع ولم يلق حرباً¹.

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص477-478

² - ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص350

³ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص539، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص222

⁴ - ابن خلدون السيرة النبوية، ص123

⁵ - ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص366، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص222-223، ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص540، وابن خلدون السيرة النبوية، ص124

⁶ - ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص369

⁷ - ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص369-370، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص224، ابن كثير: السيرة النبوية، ج3، ص03، وابن خلدون السيرة النبوية، ص124

¹ - ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص370، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص224-225، وابن خلدون السيرة النبوية، ص124

11111/سرية زيد بن حارثة: ختم النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه الغزوات بسرية زيد بن حارثة في مائة راكب إلى القردة من أرض نجد، بعثه ليعترض عيرا لقريش بما مال كثير، فأصابوا العير وأفلت أعيان القوم، وأسر فُرات بن حيان، وقدموا بها على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فخمّسها¹.

ج/غزوة أحد سنة 3هـ

ا/مكان المعركة وسببها

1/مكان المعركة: وقعت المعركة في المكان الذي سميت به جبل أُحد وهو معروف بينه وبين المدينة أقل من فرسخ، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- حبه له، روى البخاري عن قتادة قال سمعتُ أنسًا رضي الله عنه يقول، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا جبلٌ يُحِبُّنا وُحُبُّهُ²، قال السهيلي: كان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن والاسم الحسن ولا اسم أحسن من اسم مشتق من الأحذية، قال ومع كونه مشتقا من الأحذية فحركات حروفه الرفع، وذلك يشعر بارتفاع دين الأحد وعلوه، فتعلق الحب من النبي صلى الله عليه وسلم لفظا ومعنى فخص من بين الجبال³، وكانت عنده الوقعة المشهورة في شوال سنة 3هـ باتفاق الجمهور⁴.

2/تاريخ الغزوة: كانت الوقعة المشهورة بأحد في شوال سنة 3هـ باتفاق الجمهور، قال ابن إسحاق: لإحدى عشرة ليلة خلت منه، وقيل: لسبع ليال، وقيل: لثمان، وقيل: لتسع، وقيل: في نصفه، وقال مالك: كانت بعد بدر بسنة، وفيه تجوز لأن بدرا كانت في رمضان باتفاق فهي بعدها بسنة وشهر تقريبا⁵.

3/سبب الغزوة: وكان السبب فيها أن من حضر بدرا من المشركين لما رجعوا إلى مكة، وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب موقوفة في دار الندوة، فاتفقوا أن يجهبوا بريح تلك العير جيشا إلى محمد⁶، وقال ابن إسحاق: لما رجعت قريش استجلبوا من استطاعوا من العرب وسار بهم أبو سفيان حتى نزلوا ببطن الوادي من قبل أحد⁷، وكتب العباس بن عبد المطلب بخبرهم كله إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-⁸، قال ابن إسحاق: وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر وتمنوا لقاء العدو، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة رؤيا، فلما أصبح قال: رأيت البارحة في منامي بقرا تدبح، والله خير وأبقى، ورأيت سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظبته أو قال به فلول فكرهته وهما مصيبتان، ورأيت أني في درع حصينة وأنني مردف كبشا،

¹ ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص370-371، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص229، ابن كثير: السيرة النبوية، ج3، ص08، وابن خلدون السيرة النبوية،

ص127

² صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: أحد يحبنا ونحبه، رقم: 4083

³ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص436

⁴ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص401

⁵ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص401

⁶ ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص371

⁷ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص401

⁸ ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص371

قالوا: وما أولتها؟ قال: أولت البقر بقرا يكون فينا، وأولت الكباش كبش الكتيبة، وأولت الدرع الحصينة المدينة فامكنوا، فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت، فقال أولئك القوم: يا نبي الله كنا نتمنى هذا اليوم، وأبا كثير من الناس إلا الخروج فلما صلى الجمعة وانصرف دعا بالأمة فلبسها، ثم أذن في الناس بالخروج، فندم ذوو الرأي منهم فقالوا: يا رسول الله أمكث كما أمرتنا، فقال: ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب أن يرجع حتى يقاتل¹.

11/ تعداد الجيشين

1/ عدد جيش المسلمين: قال ابن إسحاق: ...نزل فخرج بهم وهم ألف رجل، وكان المشركون ثلاثة آلاف حتى نزل بأحد، ورجع عنه عبد الله بن أبي بن سلول في ثلاثمائة فبقي في سبعمائة، فلما رجع عبد الله سقط في أيدي طائفتين من المؤمنين وهما بنو حارثة وبنو سلمة، وليس مع المسلمين فرس، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير، وصف المسلمون بأصل أحد، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جبير على الرماة وهم خمسون رجلا وعهد إليهم أن لا يتركوا منازلهم².

2/ عدد جيش المشركين من قريش: قال ابن إسحاق: ...وكان المشركون ثلاثة آلاف، وخمس عشرة امرأة، وعلى خيل المشركين وهي مائة فرس خالد بن الوليد، وثلاثة آلاف بعير³، وصاحب لوائهم طلحة بن عثمان، وصف المشركون بالسبخة وتعبأوا للقتال⁴.

11/ أحداث المعركة: بدأت المعركة بمبارزة بين حاملي لواء المسلمين والمشركين، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير فبارز طلحة بن عثمان فقتله، وحمل المسلمون على المشركين حتى أجهضوهم عن أثقلمهم، وحملت خيل المشركين فنضحتهم الرماة بالنبل ثلاث مرات، فدخل المسلمون عسكر المشركين فاتبهوهم، فرأى ذلك الرماة فتركوا مكانهم ودخل العسكر، فأبصر ذلك خالد بن الوليد ومن معه فحملوا على المسلمين في الخيل فمزقوهم، ولما رأى المشركون خيلهم ظاهرة تراجعوا فشدوا على المسلمين فهزموهم وأثخنوا فيهم في القتل، وصرخ صارخ: قتل محمد أحرأكم، فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضا وهم لا يشعرون، وانهم طائفة منهم إلى جهة المدينة وتفرق سائرهم ووقع فيهم القتل، وثبت نبي الله حين انكشفوا عنه وهو يدعوهم في أحرأهم، حتى رجع إليه بعضهم وهو عند المهراس في الشعب، وتوجه النبي صلى الله عليه وسلم يلتمس أصحابه، فاستقبله المشركون فرموا وجهه فأدموه وكسروا ربايعته، فمر مصعبا في الشعب ومعه طلحة والزبير، وقيل: معه طائفة من الأنصار منهم سهل بن بيضاء والحارث بن الصمة، وشغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم يقطعون الأذان والأنوف والفروج ويقرون البطون وهم يظنون أنهم أصابوا النبي صلى الله عليه وسلم وأشرف أصحابه، فقال أبو سفيان يفتخر بألمته: اعل هبل، فناداه عمر: الله أعلى وأجل، ورجع المشركون إلى أثقلمهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إن ركبوا وجعلوا الأثقال تتبع آثار الخيل، فهم يريدون البيوت، وإن ركبوا الأثقال وتجنبوا

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص401

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص401

³ - ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص371

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص401-402

الخيال فهم يريدون الرجوع، فتبعهم سعد بن أبي وقاص، ثم رجع فقال: رأيت الخيل مجنوبة، فطابت أنفس المسلمين ورجعوا إلى قتلاهم فدفنوهم في ثياهم ولم يغسلوهم ولم يصلوا عليهم، وبكى المسلمون على قتلاهم، فسر المنافقون وظهر غش اليهود وفارت المدينة بالنفاق، فقالت اليهود: لو كان نبيا ما ظهروا عليه، وقالت المنافقون: لو أطاعونا ما أصابهم هذا¹.

قال العلماء: وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة: منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه، ومنها أن عادة الرسل أن تبلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدوا في دورهم فاستعدوا لهم وتحزروا منهم، ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضما للنفس وكسرا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا وجزع المنافقون، ومنها أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والحن ليصلوا إليها، ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم، ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين².

وفي ذلك من الفوائد شؤم ارتكاب النهي، وأنه يعم ضرره من لم يقع منه، كما قال تعالى: {وَأْتُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً (25)}³، وأن من أثر دنياه أضر بأمر آخرته ولم تحصل له دنياه، واستفيد من هذه الكائنة أخذ الصحابة الحذر من العود إلى مثلها، والمبالغة في الطاعة، والتحرز من العدو الذين كانوا يظهرون أنهم منهم وليسوا منهم، وإلى ذلك أشار سبحانه وتعالى في قوله: (وتلك الأيام نداؤها بين الناس - إلى قوله - وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)، وقال: (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)⁴.

1111/ نتائج المعركة

1/ خسائر المسلمين

* /جرح النبي - صلى الله عليه وسلم - : قال الطبري (تفرق الصحابة: فدخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الله، فرماه ابن قمئة بحجر فكسر أنفه ورباعيته، وشجحه في وجهه فأثقله، فترجع إلى

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص402

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص402

³ - سورة الأنفال، الآية: 25

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص408-409

النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثون رجلاً فجعلوا يذبون عنه، فحمله منهم طلحة وسهل بن حنيف¹، وقال ابن إسحاق في المغازي عن أنس قال: كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربه، وذكر ابن هشام في حديث أبي سعيد الخدري (أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم السفلى وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجحه في جبهته، وأن عبد الله بن قمئة جرحه في وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ازدردته فقال: لن تمسك النار)²

قال ابن كثير: كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له: "أبو عامر الراهب"، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قَدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش فألبهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان،.... وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرَت رِباعِيَّتُهُ اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه³.

ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه شج وجهه وكسرت رباعيته وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها ووهى منسكبة من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته، وروى عبد الرزاق عن الزهري قال: (ضرب وجه النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بالسيف سبعين ضربة وقاه الله شرها كلها)⁴.

***عدد شهداء المسلمين يوم أحد:** قال سعيد بن منصور (قتل يومئذ يوم أحد سبعون: أربعة من المهاجرين حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان، وسائرهم من الأنصار)، وأخرج ابن حبان والحاكم في صحيحيهما عن أبي بن كعب قال: (أصيب يوم أحد من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة، وكان الخامس سعد مولى حاطب بن أبي بلتعة، والسادس يوسف بن عمرو الأسلمي حليف بني عبد شمس)، وذكر المحب الطبري عن الشافعي أن شهداء أحد اثنان وسبعون، وعن مالك خمسة وسبعون من الأنصار خاصة أحد وسبعون، وسرد أبو الفتح اليعمري أسماءهم فبلغوا ستة وتسعين، ومن المهاجرين أحد عشر وسائرهم من الأنصار، ثم ذكر عن ابن عبد البر وعن الدمياطي أربعة أو خمسة، قال فزادوا عن المائة، قال الواقدي: أربعة وسبعون

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص406-407

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص423

³ - ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [700 - 774 هـ]: تفسير القرآن العظيم، تج: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م، (ج4/ 211)

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص431

هذا المجتمع عليه¹، قال اليعمري: ومن الناس من يقول السبعين من الأنصار خاصة، وبذلك جزم ابن سعد، ويؤيده قول أنس (أصيب منا يوم أحد سبعون)².

2/ اغتباط المشركين من قريش بنصرهم وتمثيلهم: روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال... وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ أَيُّ الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ فَقَالَ لَا تُجِيبُهُ فَقَالَ أَيُّ الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي فُحَّافَةَ قَالَ لَا تُجِيبُهُ فَقَالَ أَيُّ الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ قُتِلُوا فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءَ لَأَجَابُوا فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْرِيكَ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ اعْلُ هُبْلُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجِيبُوهُ قَالُوا مَا نَقُولُ قَالَ قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ لَنَا الْعِزَّةُ وَلَا عِزَّةَ لَكُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجِيبُوهُ قَالُوا مَا نَقُولُ قَالَ قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِحَالٌ وَبِحَدُونٍ مُثَلَّةٌ لَمْ أَمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسْئُرِي³.

قال ابن إسحاق: (خرجت هند والنسوة منها يمثلن بالقتلى، يجدعن الآذان والأنف، حتى اتخذت هند من ذلك حزما وقلائدا، وأعطت حزمها وقلائدها اللاتي كن عليها لوحشي جزاء له على قتل حمزة، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها⁴).

ه/ الغزوات بين أحد و صلح الحديبية [3-6هـ]

ا/ غزوة الرجيع وبئر معونة

1/ غزوة الرجيع آخر سنة 3هـ: الرجيع اسم موضع من بلاد هذيل كانت الواقعة بقرب منه فسميت به، وكانت في أواخر سنة ثلاث من الهجرة وهي عبارة عن سرية لعاصم بن ثابت ابن أبي الأفلح الأنصاري، وخبیب وأصحابهما العشرة، وهي مع عضل والقارة⁵، قال الواقدي: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم أصحاب الرجيع غيونا إلى مكة ليخبروه خبر قريش، فسلخوا على النجدية حتى كانوا بالرجيع فاعترضت لهم بنو لحيان⁶، وروى البخاري قصة السرية مفصلة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كان بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقریب من مائة رام فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلا نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدق وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا فقال عاصم أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر

¹ - الواقدي: كتاب المغازي، تح: مارسدن جونس، عالم الكتاب، بيروت، ط1، 1427هـ/2006م، ص231

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص407

³ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: غزوة أحد، رقم: 4043

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص407

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص438

⁶ - الواقدي: كتاب المغازي، ص266

اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ فَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ بِالنَّبْلِ وَبَقِيَ خُبَيْبٌ وَزَيْدٌ وَرَجُلٌ آخَرٌ فَأَعْطَوْهُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فَلَمَّا أَعْطَوْهُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ فَلَمَّا اسْتَمَكَّنُوا مِنْهُمْ حَلُّوا أَوْتَارَ قَسِيهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّلَاثُ الَّذِي مَعَهُمَا هَذَا أَوْلُ الْعَدْرِ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَحَزَّرُوهُ وَعَاجَلُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَلَمْ يَفْعَلْ فَقَتَلُوهُ وَأَنْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَزَيْدٍ حَتَّى بَاغَوْهُمَا بِمَكَّةَ فَاشْتَرَى خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ بْنِ نَوْفَلٍ وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ فَمَكَثَ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى إِذَا أَجْمَعُوا قَتْلَهُ اسْتَعَارَ مُوسَى مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ لِيَسْتَحِدَّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ قَالَتْ فَعَقَلْتُ عَنْ صَبِيٍّ لِي فَدَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ فَوَضَعَهُ عَلَى فَخِذِهِ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ فَرَعَتْهُ فَرُوعَةً عَرَفَ ذَلِكَ مِنِّي وَفِي يَدِهِ الْمُوسَى فَقَالَ اتَّخَشِينَ أَنْ أَقْتَلَهُ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَكَانَتْ تَقُولُ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ ثَمَرَةٌ وَإِنَّهُ لَمُوثِقٌ فِي الْحَدِيدِ وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقُ رَزَقَهُ اللَّهُ فَخَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فَقَالَ دَعُونِي أَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ انصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَوْلَا أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ لَرِدْتُمْ فَكَانَ أَوْلَ مَنْ سَنَّ الرُّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ هُوَ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ثُمَّ قَالَ

مَا أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ شِقِّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ يُبَارِكُ عَلَى أَوْصَالِ شَلْوٍ مُمَزَّعٍ

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى عَاصِمٍ لِيُؤْتُوا بِشَيْءٍ مِنْ حَسَدِهِ يَعْرِفُونَهُ وَكَانَ عَاصِمٌ قَتَلَ عَظِيمًا مِنْ عَظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ¹.

وفي رواية ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة قال (كان عاصم بن ثابت أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا، فكان عمر يقول لما بلغه خبره: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته).

وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ولا يمكن من نفسه ولو قتل، أنفة من أنه يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدّة، فإن أراد الأخذ بالرخصة له أن يستأمن، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وقال سفيان الثوري: أكره ذلك، وفيه الوفاء للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطف بمن أريد قتله، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل، وفيه إنشاء الشعر وإنشاده عند القتل ودلالة على قوة يقين خبيب وشدته في دينه، وفيه أن الله يتلي عبده المسلم بما شاء كما سبق في علمه ليشيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه، وفيه استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيا وميتا وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل، وإنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمة بقطع لحمه، وإثبات كرامة الأولياء، إلا أن وقوع ذلك مما لا يخرق عادة ولا يقلب عينا، مثل أن يكرم الله عبدا بإجابة دعوة في الحين، ونحو ذلك مما يظهر فيه فضل الفاضل وكرامة الولي، وابن بطال توسط بين من يثبت الكرامة ومن ينفىها فجعل الذي يثبت ما قد تجرّى به العادة لآحاد الناس أحيانا، والممتنع ما يقلب الأعيان مثلا، والمشهور عن أهل السنة إثبات

¹ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: غزوة الرجيع، رقم: 4086

الكرامات مطلقا، لكن استثنى بعض المحققين منهم كأبي القاسم القشيري ما وقع به التحدي لبعض الأنبياء فقال: ولا يصلون إلى مثل إيجاد ولد من غير أب ونحو ذلك، وهذا أعدل المذاهب في ذلك، فإن إجابة الدعوة في الحال وتكثير الطعام والماء والمكاشفة بما يغيب عن العين والإخبار بما سيأتي ونحو ذلك قد كثر جدا حتى صار وقوع ذلك ممن ينسب إلى الصلاح كالعادة، فانحصر الخارق الآن فيما قاله القشيري، وتعين تقييد قول من أطلق أن كل معجزة وجدت لنبي يجوز أن تقع كرامة لولي، ووراء ذلك كله أن الذي استقر عند العامة أن خرق العادة يدل على أن من وقع له ذلك من أولياء الله تعالى، وهو غلط ممن يقوله، فإن الخارق قد يظهر على يد المبطل من ساحر وكاهن وراهب، فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله تعالى إلى فارق، وأولى ما ذكره أن يختبر حال من وقع له ذلك فإن كان متمسكا بالأوامر الشرعية والنواهي كان ذلك علامة ولايته ومن لا فلا¹.

وكانت بعدها عَضَل والقارة، أما عَضَل بطن من بني الهول بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر ينسبون إلى عضل بن الديش بن محكم، وأما القارة فبطن من الهول أيضا ينسبون إلى الديش المذكور، يضرب بهم المثل في إصابة الرمي، وقصة العضل والقارة كانت في غزوة الرجيع، وذكر ابن إسحاق يوم الرجيع فقال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فبعث منهم ستة من أصحابه².

2/ غزوة بئر معونة أول سنة 4هـ: بئر معونة موضع في بلاد هذيل بين مكة وعسفان، وهذه الواقعة تعرف بسرية القراء السبعين وهي مع رِغَل ودكوان³، فأما رِغَل فهم بطن من بني سليم ينسبون إلى رِغَل بن عوف بن مالك بن امرئ القيس بن لهيعة بن سليم، وأما دكوان فهم كذلك بطن من بني سليم أيضا ينسبون إلى دكوان بن ثعلبة بن بھثة بن سليم فنسبت الغزوة إليهما، وكانت الغزوة في أوائل سنة أربع من الهجرة⁴.

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم سبعين رجلا لحاجة يقال لهم القراء فعرض لهم حيان من بني سليم رِغَل ودكوان عند بئر يقال لها بئر معونة فقال القوم والله ما إياكم أردنا إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم فقتلوهم فدعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم شهرا في صلاة العداة⁵.

قال قتادة (أن رعلا وغيرهم استمدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدو فأمدهم بسبعين من الأنصار)، وعن سعيد عن قتادة (أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رِغَل ودكوان وعصية وبنو لحيان فزعموا أنهم أسلموا واستمدوا على قومهم)، وقيل إنما الذي استمدهم عامر بن الطفيل على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا مانع أن يستمدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص443، 444-445

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص433

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص438

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص438

⁵ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: غزوة الرجيع، رقم: 4088

وسلم في الظاهر ويكون قصدهم الغدر بهم، ويحتمل أن يكون الذين استمدوا غير الذين استمدهم عامر بن الطفيل، وإن كان الكل من بني سليم، ويحتمل أنه لم يكن استمدادهم لهم لقتال عدو، وإنما هو للدعاء إلى الإسلام، قال ابن سعد: قدم أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة الكلابي على رسول صلى الله عليه وسلم، فأهدى له فلم قبل منه، وعرض عليه الإسلام فلم يُسلم ولم يُبعد، وقال: لو بعثت معي نفرًا من أصحابك إلى قومي لرجوت أن يستجيبوا دعوتك ويتبعوا أمرك، فقال له: إني أخاف عليهم نجد، فقال: أنا جار لهم إن يعرض لهم أحد، فبعث معه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سبعين رجلاً من الأنصار شبيبة يُسمون القراء، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي¹، وفي مرسل عروة أن عامر بن الطفيل أسر عمرو بن أمية يوم بئر معونة، ويسمون القراء، وأنهم كانوا يجتطون بالنهار ويصلون بالليل، ويشترون به الطعام لأهل الصفة ويتدارسون القرآن بالليل ويتعلمون².

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت... قُتِلَ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ يَوْمَ بَيْرِ مَعُونَةَ وَعَنْ أَبِي أُسَامَةَ قَالَ قَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ فَأَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ لَمَّا قُتِلَ الدِّينَ بَيْرِ مَعُونَةَ وَأَسْرَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ قَالَ لَهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ مَنْ هَذَا فَأَشَارَ إِلَى قَتِيلٍ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ هَذَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ فَقَالَ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدَ مَا قُتِلَ زُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ ثُمَّ وُضِعَ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَهُمْ فَنَعَاهُمْ فَقَالَ إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ فَقَالُوا رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ وَرَضَيْتَ عَنَّا فَأَخْبَرَهُمْ عَنْهُمْ وَأُصِيبَ يَوْمَئِذٍ فِيهِمْ عُرْوَةُ بْنُ أَسْمَاءَ بْنِ الصَّلْتِ فَسُمِّيَ عُرْوَةُ بِهِ وَمُنْدِرُ بْنُ عَمْرٍو سُمِّيَ بِهِ مُنْدِرًا³.

11/ غزوة الخندق (الأحزاب) سنة 5هـ

1/ اسم الغزوة: تسمى هذه الغزوة بغزوة الخندق لأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وتسمى كذلك بغزوة الأحزاب، جمع حزب أي طائفة، وذلك لاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وخطفان واليهود ومن تبعهم، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب⁴.

2/ سبب الغزوة وتاريخها

*/ تاريخ الغزوة: قيل كانت في شوال سنة أربع، وقال ابن إسحاق: كانت في شوال سنة خمس، وبذلك جزم غيره من أهل المغازي، وقد بين البيهقي سبب هذا الاختلاف، وهو أن جماعة من السلف كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان في تاريخه فذكر أن غزوة بدر الكبرى كانت في السنة الأولى، وأن غزوة أحد كانت في الثانية، وأن الخندق كانت في الرابعة وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، لكنه بناء واه مخالف لما

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص382، والواقدي: كتاب المغازي، ص261

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص446-447

³ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: غزوة الرجيع، رقم: 4093

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص453

عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر في الثانية وأحد في الثالثة والخندق في الخامسة وهو المعتمد¹.

* /سبب الغزوة: لما أجلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم بني النضير قدموا خيبر، خرج حُيي بن أخطب ومن معه إلى مكة، يدعون قريشا وأتباعها إلى حرب محمد - الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا لهم نحن معكم حتى نستأصل محمدًا²، وخرج كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق يسعى في بني غطفان ويحضهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لهم نصف ثمر خيبر، فأجابه عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري إلى ذلك، وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش فنزلوا بمر الظهران، فجاءهم من أجابهم من بني سليم مددا لهم فصاروا في جمع عظيم³، وخرج ركب من خزاعة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبروه بفصول قريش⁴.

3/تعداد الجيوش وخطتها

* /عدد جيش الأحزاب: ذكر ابن إسحاق بأسانيده أن الأحزاب عدتهم عشرة آلاف، وقيل: أربعة آلاف⁵، وروى عنه في المغازي أنه قال: نزلت قريش بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وقهامة، ونزل عيينة في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد بيبان نعمان⁶.

* /عدد جيش المسلمين: قال ابن إسحاق كان المسلمون ثلاثة آلاف، وقيل نحو الألف⁷.

* /خطة القتال

- /خطة المسلمين لمواجهة الأحزاب: كانت الخطة تعتمد على تحصين المدينة من جهتها الشمالية بخندق وكانت المنطقة الشمالية هي الوحيدة المكشوفة، وكانت الجهات الأخرى من أطرف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري وترتيب الصفوف¹، وكان الذي أشار بحرف سلمان الفارسي فيما ذكر أصحاب المغازي، قال سلمان للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص454

² - الواقدي: كتاب المغازي، ص321

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص454

⁴ - الواقدي: كتاب المغازي، ص323

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص454

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص462

⁷ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص454

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص332

بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين، فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه¹، روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق وهم يخفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم لا عيش إلا عيش الأحرار فاعفِر للمهاجرين والأنصار².

وقد استغرق الحفر في الخندق بين خمسة عشر يوماً عند من أقل وشهراً عند من أكثر³، وقد عانوا من شدة الجوع، روى البخاري عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال أتيت جابرًا رضي الله عنه فقال إننا يوم الخندق نحفر فعرضت كديئة شديدة فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كديئة عرضت في الخندق فقال أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبتنا ثلاثة أيام لا ندوق ذواقاً فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المغول فضرب فعاد كثيرًا أهيل أو أهيم فقلت يا رسول الله ائذن لي إلى البيت فقلت لإمرأتي رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ فعندك شيءٌ قالت عندي شعيرٌ وعنقٌ فدبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج فقلت طعم لي فقم أنت يا رسول الله ورجلٌ أو رجلان قال كم هو فذكرت له قال كثيرٌ طيبٌ قال فلها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التثور حتى آتي فقال قوموا فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم قالت هل سألك قلت نعم فقال ادخلوا ولا تضاعطوا فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتثور إذا أخذ منه ويقرَّب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويعرف حتى شبعوا وبقي بقية قال كُلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة⁴.

وكانت خطة المسلمين أن يترك النساء والأولاد في البيوت متحصنين، ويخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالجنود حتى جعل ظهورهم إلى سلع⁵، ويقابلهم على الخندق المشركون

-/خطة الأحزاب: وبين ابن إسحاق في المغازي خطط الأحزاب فقال: نزلت قريش بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وقحافة، ونزل عيينة في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد بباب نعمان¹، وقيل كان الذين جاءهم من فوقهم بنو قريظة ومن أسفل منهم قريش وغطفان².

4/وقائع وأحداث الغزوة

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص453

² - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: 4098

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص455

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: 4101

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص453

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص462

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص462

***فرض الأحزاب للحصار على المدينة:** فرض الأحزاب حصاراً شديداً على المدينة وصور القرآن تضاييق المسلمين من هذا الحصار فقال تعالى: [إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ] ¹، وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: من فوقكم عيينة بن حصن، ومن أسفل منكم أبو سفيان بن حرب، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، والخندق بينه وبين القوم، وجعل النساء والذراري في الآطام ².

أما عن مدة هذا الحصار فكانت عشرين يوماً، ولم يكن بينهم قتال إلا مرامة بالنبل والحجارة، وأصيب منها سعد بن معاذ بسهم فكان سبب موته، ثم رحلوا ورفعوا الحصار، وذكر أهل المغازي سبب رحيلهم، وأن نعيم بن مسعود الأشجعي ألقى بينهم الفتنة فاختلفوا، وذلك بأمر النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك، ثم أرسل الله عليهم الريح فتفرقوا، وكفى الله المؤمنين القتال ³.

***نقض بني قريظة للعهد وغدرهم:** توجه حبي بن أخطب إلى بني قريظة فلم يزل بهم حتى غدروا، وبلغ المسلمين غدرهم فاشتد بهم البلاء، روى الحاكم عن أبي حذيفة قال: (لقد رأيتنا ليلة الأحزاب وأبو سفيان ومن معه من فوقنا، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا أشد ظلمة ولا ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون: إن بيوتنا عورة، فمر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا جاث على ركبتي ولم يبق معه إلا ثلاثمائة ⁴.

***خطة النبي - صلى الله عليه وسلم - لتفريق الأحزاب:** أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطي عيينة بن حصن ومن معه ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا، فمنعه من ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عباد وقالوا كنا نحن وهم على الشرك لا يطمعون منا في شيء من ذلك، فكيف نفعله بعد أن أكرمنا الله عز وجل بالإسلام وأعزنا بك؟ نعطيهم أموالنا، ما لنا بهذا من حاجة، ولا نعطيهم إلا السيف ⁵.

دُوكِر أن نعيم بن مسعود الأشجعي أتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً ولم يعلم به قومه، فقال له: فمُرني بما شئت يا رسول الله، فقال له: ما استطعت أن تحذل الناس فحذل ⁶، فمضى إلى بني قريظة - وكان ندباً لهم - فقال: قد عرفتم محبتي، قالوا: نعم، فقال: إن قريشا وخطفان ليست هذه بلادهم، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها وإلا رجعوا إلى بلادهم وتركوكم في البلاء مع محمد، ولا طاقة لكم به، قالوا: فما ترى؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا رهنا منهم، فقبلوا رأيه، فتوجه إلى قريش فقال لهم: إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد فراسلوه في الرجوع إليه، فراسلهم بأنا لا نرضي حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رهنا فاقتلوهم، ثم جاء خطفان بنحو ذلك، قال: فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمة بن أبي جهل إلى بني قريظة بأنا قد ضاق بنا المنزل ولم نجد مرعى،

¹ - سورة الأحزاب، الآية 10

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 453

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 454

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 462

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 462

⁶ - الواقدي: كتاب المغازي، ص 346

فأخرجوا بنا حتى نناجز محمدا فأجابوهم: إن اليوم يوم السبت ولا نعمل فيه شيئا، ولا بد لنا من الرهن منكم لئلا تعذبوا بنا، فقالت قريش: هذا ما حذركم نعيم، فراسلوهم ثانيا أن لا نعطيكم رهنا، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا، فقالت قريظة: هذا ما أخبرنا نعيم، فكان ذلك سبب خذلانهم ورحيلهم¹.

***/القتال الذي وقع بين المسلمين والأحزاب:** قال ابن إسحاق: ولم يقع بينهم حرب إلا مراماة بالنبل لكن كان عمرو بن عبد ود العامري اقتحم هو ونفر منه خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق حتى صاروا بالسبخة فبارزه علي فقتله، وبرز نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي فبارزه الزبير فقتله، ويقال قتله علي، ورجعت بقية الخيول منهزمة، ووقعت المعركة في أيام ممطرة، روى البيهقي في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن حذيفة: لقد رأيتنا ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة، وروى الحاكم عن أبي حذيفة قال: وما أتت علينا أشد ظلمة ولا ريحا منها، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون: إن بيوتنا عورة، فمر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا جاث على ركبتي ولم يبق معه إلا ثلاثمائة فقال: اذهب فأتني بخبر القوم، قال: فدعا لي فأذهب الله عني القر والفرع، فدخلت عسكرهم فإذا الريح فيه لا تجاوزه شبرا، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي فقالوا: أخبر صاحبك أن الله عز وجل كفاه القوم².

***/تقصي النبي -صلى الله عليه وسلم- لأحارهم**

روى مسلم عن إبراهيم التيمي عن أبيه يزيد بن شريك قال كنا عند حذيفة فقال رجلٌ لو أدركت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قاتلت معه فأبليت فقال حذيفة أنت كنت تفعل ذلك لقد رأيتنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة الأحزاب وأخذتنا ريحٌ شديدةٌ وقُرٌّ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألا رجلٌ يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحدٌ ثم قال ألا رجلٌ يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحدٌ ثم قال ألا رجلٌ يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فلم يجبه منا أحدٌ فقال قم يا حذيفة قال فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي إلا أن أقوم قال اذهب فأتني بخبر القوم ولا تدعهم علي فلما وليت من عنده جعلت كأني أمشي في حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا تدعهم علي ولو رميته لأصبتة ورجعت وأنا أمشي في مثل الحمام فلما أتيتته فأخبرته خبر القوم وفرغت قررت فألبسني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت فلما أصبحت قال قم يا نومان³.

إن أصحاب المهام في أحلك الظروف ما ينبغي يختار لها إلا أحسن الرجال وأذكاهم وأخفهم ظلاً وأشدهم حذراً، لا شك أن مهمة كشف عورات العدو من اختصاص القلة القليلة من الرجال الموهوبين، فهي ليست مهمة سهلة من جهة والاطلاع على خطة العدو ومعرفة قدراته أمر خطير قد يترتب عليه تحقيق النصر أو الهزيمة بين الطرفين، بل قد تحسم معرفة أسرار العدو المعركة قبل

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص464-465

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص462-463

³ - الحميدي محمد بن فتوح الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تح: علي حسين البواب، دار ابن حزم - بيروت - ط2، 1423هـ - 2002م، [ج1/ 170]

بدأها، فبماغته العدو تكون بطرق شتى ووسائل مشتتة، فهذا حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- يختاره النبي -صلى الله عليه وسلم- لمثل هذه المهمة-، بعد خطة نعيم بن بن مسعود التي مكنت من هز الثقة بين صفوف الحلفاء، وحتى نعرف سبب اختيار حذيفة يجب أن نقف على المهام التي كلفه النبي -صلى الله عليه وسلم- بها قبل ذلك، فهو صحابي جليل برز من بين صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام رجلاً قلّ نظيره ووجوده بين الرجال؛ فهو رجلاً اتّصف بصفات الكتمان والحرص على الأسرار والأمانة الشديدة التي أهلته بجدارة واستحقاق أن يظفر بلقب صاحب سر رسول الله عليه الصلاة والسلام، وإنّ معنى أن يسرّ النبي الكريم إلى أحدٍ من أصحابه سرّاً فهذا يعني توسّم النبي وبقينه بهذه الشخصيّة العظيمة التي لا يمكن أن تبوح يوماً بسرٍّ من أسرار النبوة¹ والوحي والدعوة إلى الله تعالى، فبمثل هذا الرجل ينتصر الدين ويهزم العدو، وليس بمثل من مثل الله له في القرآن ووصفه بالتولي والردة والانقلاب في اللحظة الأوج إليه فقال تعالى في حقه {وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقُصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) }².

5/نتائج غزوة الأحزاب: لما فرق الله شمل الأحزاب وخاب سعيهم، انتهت بذلك فرصتهم التي لن تتحقق مرة ثانية، لأن الله تعالى أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يجارب كل من دخل في هذا الحلف بدءاً بيهود بني قريظة وما بعدهم، روى البخاري عن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ نَعَزُّوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا³، فانتهت بذلك مرحلة الحرب الدفاعية، وبدأت مرحلة جديدة اعتمد فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- طريقة جديدة، تتمثل في مهاجمة العدو قبل أن يجمع جموعه ويستعد، أو ما يسمى بالحرب الاستباقية في العصر الحديث.

111/غزوات ذات الرقاع وبني المصطلق وأنمار بعد غزوة الأحزاب

1/غزوة ذات الرقاع

*/اسم الغزوة وتاريخها وسببها

-/اسمها: اختلف في سبب تسميتها بذلك، قيل بأنها سميت ذات الرقاع لما لفوا في أرجلهم من الخرق، وأهل المغازي ذكروا في تسميتها بذلك أمورا كثيرة، قال ابن هشام: سميت بذلك لأنهم رقعوا فيها راياتهم، وقيل: بشجر بذلك الموضع يقال له ذات الرقاع، وقيل: بل الأرض التي كانوا نزلوا بها كانت ذات ألوان تشبه الرقاع، وقيل: لأن خيلهم كان بها سواد وبياض قاله ابن حبان، وقال

¹http://mawdoo3.com-

²- سورة الأعراف [175 - 178]

³- صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم: 4109

الواقدي: سميت بجبل هناك فيه بقع، قال النووي: ويحتمل أن تكون سميت بالمجموع، وقال الداودي: سميت ذات الرقاع لوقوع صلاة الخوف فيها فسميت بذلك لترقيع الصلاة فيها¹.

-/تاريخها: هذه الغزوة اختلف فيها متى كانت، وقد جنح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر، ومع ذلك ذكرها قبل خيبر، على أن أصحاب المغازي مع جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون في زمانها، فعند ابن إسحاق أنها بعد بني النضير وقبل الخندق سنة أربع، قال ابن إسحاق: أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بني النضير شهر ربيع وبعض جمادى - يعني من سنته - وغزا نجدا يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، حتى نزل نخلا وهي غزوة ذات الرقاع، وعند ابن سعد وابن حبان أنها كانت في الحرم سنة خمس، وأما أبو معشر فجزم بأنها كانت بعد الخندق و بني قريظة، وقد تقدم أن غزوة قريظة كانت في ذي القعدة سنة خمس فتكون ذات الرقاع في آخر السنة وأول التي تليها، والذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة، لأنه تقدم أن صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شرعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع فدل على تأخرها بعد الخندق².

-/سببها: ذكر ابن سعد في سبب غزوة ذات الرقاع أنه قدم قادم المدينة بجلب فأخبر أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن أنمارا وثعلبة قد جمعوا لهم الجموع³، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في أربعمئة ويقال سبعمائة، فعلى هذا فغزوة بني أنمار متحدة مع غزوة بني محارب وثعلبة، وهي غزوة ذات الرقاع⁴.

* /صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع: روى البخاري عن صالح بن خوات عمّن شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع صلى صلاة الخوف أن طائفة صفت معه وطائفة وجاء العدو فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائما وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وجاء العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالسا وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم⁵.

وروى أحمد عن أبي عياش الزرقبي قال قال شعبة كتب به إليّ وقرأته عليه وسمعتُه منه يُحدّث به ولكني حفظته من الكتاب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في مصاف العدو بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلى بهم النبي صلى الله عليه وسلم الظهر ثم قال المشركون إن لهم صلاة بعد هذه هي أحب إليهم من أبنائهم وأمواهم فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر فصفتهم صفتين خلفه قال فرجع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا فلما رفعوا رؤوسهم سجد الصف الذي يليه وقام الآخرون فلما رفعوا رؤوسهم سجد الصف المؤخر لركوعهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم تأخر الصف المُقدّم وتقدّم

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص483

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص483

³ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص388

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص488

⁵ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة ذات الرقاع، رقم: 4129

الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ فَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مَقَامِ صَاحِبِهِ ثُمَّ رَكَعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعًا فَلَمَّا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مِنْ الرُّكُوعِ سَجَدَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ وَقَامَ الْأَخْرُونَ ثُمَّ سَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ¹.

وقد وردت في كیفیتها صفات متعددة، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة صلاة الخوف كیفیات حملها بعض العلماء على اختلاف الأحوال، وحملها آخرون على التوسع والتخيير، وما ذهب إليه مالك من ترجيح هذه الكيفية وافقه الشافعي وأحمد وداود على ترجيحها لسلامتها من كثرة المخالفة ولكونها أحوط لأمر الحرب، مع تجويزهم غيرها، ولم تفرق المالكية والحنفية حيث أخذوا بالكيفية التي في هذا الحديث بين أن يكون العدو في جهة القبلة أم لا، وفرق الشافعي والجمهور فحملوا حديث سهل على أن العدو كان في غير جهة القبلة فلذلك صلى بكل طائفة وحدها جميع الركعة، وأما إذا كان العدو في جهة القبلة فعلى ما في حديث ابن عباس أن الإمام يحرم بالجميع ويركع بهم، فإذا سجد سجد معه صف وحرس صف إلخ، ووقع عند مسلم من حديث جابر (صفنا صفيين والمشركون بيننا وبين القبلة) وقال السهيلي: اختلف العلماء في الترجيح، فقالت طائفة يعمل منها بما كان أشبه بظاهر القرآن، وقالت طائفته يجتهد في طلب الأخير منها فإنه الناسخ لما قبله، وقالت طائفة يؤخذ بأصحها نقلاً وأعلها رواية، وقالت طائفة يؤخذ بجميعها على حساب اختلاف أحوال الخوف، فإذا أشد الخوف أخذ بأيسرها مؤنة².

2/ غزوة بني المصطلق (المريسيه) 6هـ

*/أصل تسمية الغزوة وتاريخها

-/أصل التسمية: المصطلق هو لقب لجذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة، وهم بطن من بني خزاعة، وأما وتسمى كذلك المريسيه، وهو ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم

-/تاريخ الغزوة: وكانت في شعبان سنة ست، قال الواقدي: كانت في شعبان³ سنة خمس، وكذا ذكرها أبو معشر قبل الخندق، والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري والبيهقي في الدلائل قال: ثم قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بني المصطلق وبني لحيان في شعبان سنة خمس، ويؤيده ما أخرجه البخاري في الجهاد (عن ابن عمر أنه غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم بني المصطلق في شعبان سنة أربع)، ولم يؤذن له في القتال لأنه إنما أذن له فيه في الخندق كما تقدم وهي بعد شعبان سواء قلنا إنها كانت سنة خمس أو سنة أربع، ويؤيده ما ثبت في حديث الإفك أن سعد بن معاذ تنازع هو وسعد بن عباد في أصحاب الإفك، فلو كان المريسيه في شعبان سنة ست مع كون الإفك كان فيها لكان ما وقع في الصحيح من ذكر سعد بن معاذ غلطاً لأن سعد بن معاذ مات أيام قريظة وكانت سنة خمس على الصحيح، وإن كانت كما قيل سنة أربع فهي أشد، فيظهر أن المريسيه كانت سنة خمس في شعبان لتكون قد وقعت قبل الخندق لأن الخندق كانت في شوال من سنة

¹ -مسند الإمام أحمد: كتاب: أول مسند المدنين أجمعين، باب: حديث أبي عياش الزرقى، رقم: 15986

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص488

³ - الواقدي: كتاب المغازي، ص299

خمس أيضا، فتكون بعدها فيكون سعد بن معاذ موجودا في المريسيع ورمي بعد ذلك بسهم في الخندق ومات من جراحته في قريظة، روى البيهقي في الدلائل عن عائشة قصة الإفك في غزوة المريسيع، وبهذا قال ابن إسحاق وغير واحد من أهل المغازي إن قصة الإفك كانت في رجوعهم من غزوة المريسيع¹.

*** /سبب الغزوة وأحداثها:** بلغ خبر بني المصطلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأن سيدهم الحارث بن أبي ضرار دعاهم إلى حرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فابتاعوا خيلا وتهيئوا للمسير²، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع قريبا من الساحل، فزاحف الناس واقتتلوا، فهزمهم الله، وقتل منهم، ونقل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءهم وأبناءهم وأموالهم، والذي في الصحيح من حديث ابن عمر يدل على أنه أغار عليهم على حين غفلة منهم فأوقع بهم و(أن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم)، فيحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلا، فلما كثر فيهم القتل انهزموا بأن يكون لما دهمهم وهم على الماء ثبتوا وتصافوا ووقع القتال بين الطائفتين ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم، وقد ذكر هذه القصة ابن سعد نحو ما ذكر ابن إسحاق، وأن الحارث كان جمع جموعا وأرسل عينا تأتيه بخبر المسلمين فظفروا به فقتلوه، فلما بلغه ذلك هلع وتفرق الجمع وانتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلى الماء وهو المريسيع فصاف أصحابه للقتال ورموهم بالنبل ثم حملوا عليهم حملة واحدة فما أفلت منهم إنسان بل قتل منهم عشرة وأسر الباقون رجالا ونساء³، روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: **خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَأَصَبْنَا سَبِيًّا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ**⁴.

3/ غزوة أنمار: لم يذكر أهل المغازي هذه الغزوة، وقال ابن سعد: قدم قادم بجلب، فأخبر أن أنمار وثعلبة قد جمعوا لهم، فخرج لعشر خلون من الحرم، فأتى محلهم بذات الرقاع، وقيل أنها وقعت في أثناء غزوة بني المصطلق، وصلى فيها صلاة الخوف في بعض الروايات⁵.

1111/ صلح الحديبية سنة 6هـ

1/ خروج النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى العمرة يوم الحديبية: روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال **تَعَدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ مِائَةً**

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص495

² - الواقدي: كتاب المغازي، ص299

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص496

⁴ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: غزوة ذات الرقاع، رقم: 4138

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص494-495

وَالْحُدَيْبِيَّةُ بِئْرٌ فَتَنَزَّحْنَا فِيهَا فَطَرَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَاهَا فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ مَضْمَضَ وَدَعَا ثُمَّ صَبَّهُ فِيهَا فَتَرَكَهَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرْتَنَا مَا شِئْنَا حُنًى وَرَكَابِنَا¹.

ووقع في رواية إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء كنا أربع عشرة مائة، وفي رواية زهير عنه أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة أو أكثر، ووقع في حديث جابر الذي بعده من طريق سالم بن أبي الجعد عنه أنهم كانوا عشرة مائة، ومن طريق قتادة (قلت لسعيد بن المسيب بلغني عن جابر أنهم كانوا أربع عشرة مائة، فقال سعيد: حدثني جابر أنهم كانوا خمس عشرة مائة)، ووقع عند ابن أبي شيبة من حديث مجمع بن حارثة (كانوا ألفاً وخمسمائة)، ومن طريق عمرو بن دينار عن جابر (كانوا ألفاً وأربعمائة)، ووقع عند ابن سعد في حديث معقل بن يسار زهاء ألف وأربعمائة وهو ظاهر في عدم التحديد، ومن طريق عبد الله بن أبي أوفى (كانوا ألفاً وثلاثمائة)، والجمع بين هذا الاختلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، فمن قال ألفاً وخمسمائة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربعمائة ألغاه، ويؤيده قوله في الرواية الثالثة من حديث البراء (ألفاً وأربعمائة أو أكثر)، وأما البيهقي فمال إلى الترجيح وقال: إن رواية من قال ألفاً وأربعمائة أصح، وأما قول عبد الله بن أبي أوفى ألفاً وثلاثمائة فيمكن حمله على ما اطلع هو عليه، أو أن العدد الذي ذكره جملة من ابتداء الخروج من المدينة والزائد تلاحقوا بهم بعد ذلك، أو العدد الذي ذكره هو عدد المقاتلة والزيادة عليها من الأتباع من الخدم والنساء والصبيان الذين لم يبلغوا الحلم².

أما الحديبية فهو اسم بئر سمي المكان بها، وهي قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم³، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة يوم الاثنين مستهل ذي القعدة سنة ست فخرج قاصداً إلى العمرة، ووقع في رواية ابن إسحاق في المغازي عن الزهري: (خرج عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا) ووقع عند ابن سعد (أنه صلى الله عليه وسلم خرج يوم الاثنين لهلال ذي القعدة)⁴، فصدده المشركون عن الوصول إلى البيت، ووقعت بينهم المصالحة على أن يدخل مكة في العام المقبل⁵.

وحاصل القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج في عمرة الحديبية فبلغ الروحاء - وهي من ذي الحليفة على أربعة وثلاثين ميلاً - أخبروه بأن عدواً من المشركين بوادي غيقة - وهو ماء لبني غفار بين مكة والمدينة، وقال يعقوب: هو قليب لبني ثعلبة يصب فيه ماء رضوى ويصب هو في البحر - يخشى منهم أن يقصدوا غرته، فجهز طائفة من أصحابه فيهم أبو قتادة إلى جهتهم ليأمن شهرهم، فلما أمنوا ذلك لحق أبو قتادة وأصحابه بالنبي صلى الله عليه وسلم فأحرموا، إلا هو فاستمر هو حالاً لأنه إما لم يجاوز الميقات وإما لم يقصد العمرة⁶.

¹ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية، رقم: 4150

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص504

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج5، ص393

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج5، ص393

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص504

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص504

2/بيعة الرضوان: قال ابن إسحاق: قالوا لما نزل صلى الله عليه وسلم بالحديبية أحب أن يبعث رجلا من أصحابه إلى قريش يعلمهم بأنه إنما قدم معتمرا، فدعا عمر فاعتذر بأنه لا عشيرة له بمكة، فدعا عثمان فأرسله بذلك، وأمره أن يعلم من بمكة من المؤمنين بأن الفرج قريب، فأعلمهم عثمان بذلك، فحملة أبان بن سعيد بن العاص على فرسه، وأجاره حتى دخل مكة، وبلغ رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأسلم أبان بعد غزوة الحديبية¹، ولما أجاره قال المسلمون: هنيئا لعثمان، خلص إلى البيت فطاف به دوننا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن ظني به أن لا يطوف حتى نطوف معا، فكان كذلك².

ولمسلم من حديث أنس بن مالك: أن قريشا صالحت النبي صلى الله عليه وسلم على أنه من جاء منكم لم نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه إلينا، فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم إلينا فسيجعل الله له فرجا ومخرجا، فلما لان بعضهم لبعض في الصلح على ذلك إذ رمى رجل من الفريقين رجلا من الفريق الآخر، فتصايح الفريقان، وارثن كل من الفريقين من عندهم، فارثن المشركون عثمان ومن آتاهم من المسلمين، وارثن المسلمون سهيل بن عمرو ومن معه، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة على أن لا يفروا، وبلغ ذلك المشركين فأرعبهم الله، فأرسلوا من كان مرتنا ودعوا إلى المودعة³، وأنزل **قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ: [لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ]**⁴، وأنها نزلت في قصة الحديبية⁵، وفي حديث المسور ومروان أنهما خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بضع عشرة مائة، وذكر هنا الذين بايعوا يوم الحديبية، وما زاد على ذلك كانوا غائبين عنها، كمن توجه مع عثمان إلى مكة⁶.

3/المفاوضات والصلح مع مشركي قريش: روى البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْعَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْجَيْشِ فَاَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ راحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ فَأَلْحَتْ فَقَالُوا خَالَاتُ الْقُصَوَاءِ خَالَاتُ الْقُصَوَاءِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا خَالَاتُ الْقُصَوَاءِ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثِبَتْ قَالَ فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى تَمَدِّ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا فَلَمْ يُلَبِّثُهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشَكِيَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَطَشُ فَاَنْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيئُ لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُرَاعِي فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُرَاعَةَ وَكَانُوا عَيْنَةً نُصَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ تَهَامَةَ

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص562

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج5، ص393

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج5، ص406

⁴ - سورة الفتح، الآية17

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص504

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص504

فَقَالَ إِنِّي تَزَكَّتْ كَعْبُ بْنُ لُؤَيٍّ وَعَامِرُ بْنُ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَمَعَهُمُ الْعُودُ الْمَطَافِيلُ وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَإِنْ فُرِيشًا قَدْ هَكَّتْهُمْ الْحَرْبُ وَأَصْرَتْ بِهِمْ فَإِنْ
شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مِدَّةً وَيُحْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرَ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جُمُوا وَإِنْ هُمْ أَبَوْا
فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفِرَ سَالِفِي وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ فَقَالَ بُدَيْلٌ سَأَبْلُغُهُمْ مَا تَقُولُ قَالَ فَاذْطَلَقَ حَتَّى
أَتَى فُرَيْشًا قَالَ إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا فَقَالَ سَفَهَاؤُهُمْ لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ
تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ وَقَالَ ذُوو الرَّاْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَحَدَّثْتُهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَيُّ قَوْمٍ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ قَالُوا بَلَى قَالَ أَوْلَسْتُ بِالْوَالِدِ قَالُوا بَلَى قَالَ فَهَلْ تَتَّهَمُونِي قَالُوا لَا قَالَ أَلَسْتُمْ
تَعْلَمُونَ أَيُّ اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَالِدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةً
رُشِدٍ أَقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ قَالُوا آتِيهِ فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ
لِيُدْبِلَ فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ أَيُّ مُحَمَّدٌ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاخَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنْ
الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وَجُوهَهَا وَإِنِّي لَأَرَى أَوْبَاشًا مِنَ النَّاسِ خَلِيفًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدْعُوكَ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ امْضُصْ بِبَطْرِ اللَّاتِ
أَنْحُنْ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدَعُهُ فَقَالَ مَنْ ذَا قَالُوا أَبُو بَكْرٍ قَالَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبِتِكَ قَالَ
وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَا تَكَلَّمَ أَحَدٌ بِلِحْيَتِهِ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ
السِّيفُ وَعَلَيْهِ الْمِعْمَرُ فَكَلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السِّيفِ وَقَالَ لَهُ أَحْرُ يَدَكَ عَنِ
لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفَرَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ مَنْ هَذَا قَالُوا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فَقَالَ أَيُّ عُذْرٍ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي عَدْرَتِكَ
وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحَبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَفَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَاسْأَلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ وَأَمَا
الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَزُمُّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْنِيهِ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا تَنَحَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى
وَضُوءِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَيُّ قَوْمٍ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ
عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى فَيْصَرَ وَكَسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا وَاللَّهِ إِنْ تَنَحَّمْتُ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ
كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوءِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةً رُشِدٍ
فَأَقْبَلُوهَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ دَعُونِي آتِيهِ فَقَالُوا آتِيهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُذْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ فَبِعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُبَلِّغُونَ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ
مَا يَنْبَغِي لَهُؤَلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ رَأَيْتُ الْبُذْنَ قَدْ فُلِدَتْ وَأُشْعِرَتْ فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ
فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ دَعُونِي آتِيهِ فَقَالُوا آتِيهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا مِكْرَزُ
وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ مَعَمَّرٌ فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ

فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيْدًا فَاسْتَلَّمَهُ الْآخَرُ فَقَالَ أَجَلُ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيْدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ أَرِنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَأَمَكَّنَهُ مِنْهُ فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْذُو فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَاهُ لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فُتِنَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيْلَ أُمَّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُّدُهُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ قَالَ وَيَنْقَلِبُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سَهْلٍ فَلِحَقِّ بِأَبِي بَصِيرٍ فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلًا قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لِحَقِّ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَفَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَلَغَ الْحُمَيْةَ حُمَيْةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَلَمْ يَقْرَأُوا بِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ¹

وكان أول المفاوضين باسم قريش عروة بن مسعود ابن مُعْتَبِ الثَّقَفِي فقال: فإني لا أرى معك إلا أوباشا من الناس- الأخلاط من السفلة-، لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم²، في رواية أبي المليح عن الزهري عند من سميته (وكأني بهم لو قد لقيت قريشا قد أسلموك فتؤخذ أسيرا فأبي شيء أشد عليك من هذا، وما درى عروة أن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة، وقد ظهر له ذلك من مبالغة المسلمين في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له أبو بكر وهو خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد: امصص ببظر اللات، واللات اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار، وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك، وقال ابن المنير: في قول أبي بكر تخسيس للعدو وتكذيبهم وتعريض بإلزامهم من قولهم إن اللات بنت الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، بأنها لو كانت بنتا لكان لها ما يكون للإناث، فقال عروة من ذا؟ قالوا أبو بكر، فقال والذي نفسي بيده لولا يد أي نعمة، لم أجرك بها أي لم أكافئك بها، زاد ابن إسحاق: ولكن هذه بها، أي جازاه بعدم إجابته عن شتمه بيده التي كان أحسن إليه بها، وبين عبد العزيز الإمامي عن الزهري في هذا الحديث أن اليد المذكورة أن عروة كان تحمل بديه فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن، وفي رواية الواقدي عشر قلائص، فكلما كلمه أخذ بلحيته، وفي رواية ابن إسحاق: فجعل يتناول لحية النبي صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة قائم، وفي مغازي عروة بن الزبير رواية أبي الأسود عنه (أن المغيرة لما رأى عروة بن مسعود مقبلا لبس لأتمته وجعل على رأسه المغفر ليستخفي من عروة عمه)، وكانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه ولا سيما عند الملاطفة وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير، لكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يغضي لعروة عن ذلك استماله له وتأليفها، والمغيرة يمنعه إحلالا للنبي صلى

¹-صحيح البخاري: كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، رقم: 2731

²-الواقدي: كتاب المغازي: ص 418

الله عليه وسلم وتعظيما، فقال: من هذا؟ قال المغيرة، وفي رواية أبي الأسود عن عروة (فلما أكثر المغيرة مما يقرع يده غضب وقال: ليت شعري من هذا الذي قد آذاني من بين أصحابك؟ والله لا أحسب فيكم الأم منه ولا أشتر منزلة)، وفي رواية ابن إسحاق: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، فقال له أأنت أسعى في غدرتك، أي أأنت أسعى في دفع شر غدرتك؟، وفي رواية ابن إسحاق (وهل غسلت سواتك إلا بالأمس)، قال ابن هشام في السيرة: أشار عروة بهذا إلى ما وقع للمغيرة قبل إسلامه، وذلك أنه خرج مع ثلاثة عشر نفرا من بني مالك فغدر بهم وقتلهم وأخذ أموالهم، فتهايج الفريقان بنو مالك والأحلاف رهط المغيرة، فسعى عروة بن مسعود عم المغيرة حتى أخذوا منه دية ثلاثة عشر نفسا واصطلحوا، قال الواقدي: خرجوا إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، ف جاء بني مالك وآثرهم على المغيرة، فأقبلوا راجعين حتى إذا كانوا ببستان شربوا خمرا، فكف المغيرة المغيرة عن بعض الشراب وأمسك نفسه، وشربت بنو مالك حتى سكرُوا، فوثب المغيرة فقتلهم وكانوا ثلاثة عشر رجلا،... وأخذ المغيرة أمتعتهم وأموالهم ولحق بالنبي -صلى الله عليه وسلم-¹، فقال له: أما الإسلام فأقبل أي أقبله، وأما المال فلست منه في شيء: أي لا أتعرض له لكونه أخذه غدرا، قال ابن إسحاق وجعلوا لا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، ولعل الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة وبالغوا في ذلك إشارة منهم إلى الرد على ما خشيه من فرارهم، وكأنهم قالوا بلسان الحال: من يجب إمامه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم كيف يظن به أنه يفر عنه ويسلمه لعدوه؟، بل هم أشد اغتباطا به وبدينه وبنصره من القبائل التي يراعي بعضها بعضا بمجرد الرحم، وفي مرسل علي بن زيد عند ابن أبي شيبة، فقال عروة: أي قوم، إني قد رأيت الملوك، ما رأيت مثل محمد، وما هو بملك، ولكن رأيت الهدي معكوف، وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، فانصرف هو ومن اتبعه إلى الطائف، فأرسلوا رجلا من بني كنانة يسمى الحليس بن علقمة، وهو من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وكان من رءوس الأحابيش، وهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو المصطلق بن خزاعة، والقارة وهم بنو الهون بن خزيمة، فقال ابعتوها له، أي أثيروها دفعة واحدة، وزاد ابن إسحاق (فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي بقلائده قد حبس عن محله رجوع ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فصاح الحليس فقال: هلكت قريش ورب الكعبة، إن القوم إنما أتوا عمارا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجل يا أبا بني كنانة فأعلمهم، فقال فما أرى أن يصدوا عن البيت، زاد ابن إسحاق: وغضب وقال: يا معشر قريش ما على هذا عاقدناكم، أیصد عن بيت الله من جاء معظما له؟ فقالوا: كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى، فقام رجل منهم يقال له مكرز ابن الأحيق وهو من بني عامر بن لؤي، وهو رجل فاجر أو غادر، وفي مغازي الواقدي في غزوة بدر أن عتبة بن ربيعة قال لقريش: كيف نخرج من مكة وبنو كنانة خلفنا لا نأمنهم على ذرارينا؟، قال: وذلك أن حفص بن الأحيق يعني والد مكرز كان له ولد وضيء فقتله رجل من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة بدم له كان في قريش، فتكلمت قريش في ذلك، ثم اصطلحوا، فعدا مكرز بن حفص بعد ذلك على عامر بن يزيد سيد بني بكر غرة فقتله، فنفرت من ذلك كنانة، فجاءت وقعة بدر في أثناء ذلك، وكان مكرز معروفا بالغدر، ثم إن قريشا بعثوا سهيل بن عمرو لمصالحته²، وفي

¹-الواقدي: كتاب المغازي: ص 419

²-الواقدي: كتاب المغازي: ص 423

رواية ابن إسحاق (فدعت قريش سهيل بن عمرو فقالوا: اذهب إلى هذا الرجل فصالحه، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا، وله شاهد موصول عند ابن أبي شيبه من حديث سلمة بن الأكوع قال: (بعثت قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليصالحوه، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم سهيلا قال: قد سهل لكم من أمركم، فقال هات اكتب بيننا وبينكم كتابا، في رواية ابن إسحاق: فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين وأن يأمن الناس بعضهم بعضا، وأن يرجع عنهم عامهم هذا، وهذا القدر الذي ذكره ابن إسحاق أنه مدة الصلح هو المعتمد، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب، هو علي، فقال سهيل بن عمرو: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا، وفي رواية ابن إسحاق: على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن يتبع محمدا لم يردوه عليه، وهذه الرواية تعم الرجال والنساء، وزاد ابن إسحاق: وعلى أن بيننا عيبة مكفوفة، أي أمرا مطويا في صدور سليمة، وهو إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها، والمحافظة على العهد الذي وقع بينهم، وقال ابن إسحاق: وأنه لا إسلال ولا إغلال، أي لا سرقة ولا خيانة، والمراد أن يأمن بعضهم من بعض في نفوسهم وأموالهم سرا وجهرا، و قال ابن إسحاق: وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتوثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتوثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنتك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل مكة علينا، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب: السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيره، قال ابن إسحاق: فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو وإذ جاء أبو جندل بن سهيل، قال المسلمون سبحان الله، كيف يرد؟، وكان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتنعوا منه، وأبي سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأت أحد من الرجال في تلك المدة إلا رده، وقائل ذلك يشبه أن يكون هو عمر، وسمي الواقدي ممن قال ذلك أيضا أسيد بن حضير وسعد بن عباد، وسهل بن حنيف كان ممن أنكر ذلك أيضا، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل واسمه العاصي، كان حبس بمكة ومنع من الهجرة وعذب بسبب الإسلام، وفي رواية ابن إسحاق: فإن الصحيفة لتكتب إذ طلع أبو جندل بن سهيل، وكان أبوه حبسه فأفلت، وكان سهيل أوثقه وسجنه حين أسلم، فخرج من السجن وتكب الطريق وركب الجبال حتى هبط على المسلمين ففرح به المسلمون وتلقوه، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، زاد ابن إسحاق: فقام سهيل بن عمرو إلى أبي جندل فضرب وجهه وأخذ يلبيه، فقال له إنا لم نقض الكتاب، أي لم نفرغ من كتابته، فأجزه لي، أي فلا أرده إليك، أو أستثنيه من القضية، قال مكرز بلى، وقال الواقدي أن مكرزا كان ممن جاء في الصلح مع سهيل، وكان معهما حويطب بن عبد العزى، وأن مكرزا وحويطبا أحذا أبا جندل فأدخلاه فسطاطا وكفا أباه عنه، فقال أبو جندل يا معشر المسلمين، أرّد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟¹، وزاد ابن إسحاق (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا

¹ - الواقدي: كتاب المغازي: ص 426

جندل، اصبر واحتسب فإننا لا نغدر، وإن الله جاعل لك فرجا ومخرجا، فوثب عمر مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر ، فإنما هم مشركون، وإنما دم أحدهم كدم كلب، قال ويدي قائمة السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذه مني فيضرب به أباه، قال عمر: لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي صلى الله عليه وسلم مراجعة ما راجعته مثلها قط، فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر، وقد وقع التصريح في هذا الحديث بأن المسلمين استنكروا الصلح المذكور وكانوا على رأي عمر في ذلك، وفي رواية ابن إسحاق (وكان عمر يقول ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، وعند الواقدي من حديث ابن عباس قال عمر: لقد أعتقت بسبب ذلك رقابا، وصمت دهرا، فلما فرغ من قضية الكتاب، أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين ومنهم أبو بكر وعمر وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص وهو مشرك، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، فوالله ما قام منهم رجل، ألهتهم صورة الحال فاستغرقوا في الفكر لما لحقهم من الذل عند أنفسهم من ظهور قوتهم واقتدارهم في اعتقادهم على بلوغ غرضهم وقضاء نكسهم بالقهر والغلبة، فذهب لأم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، وفي رواية ابن إسحاق (فقال لها ألا ترين إلى الناس؟ إني أمرهم بالأمر فلا يفعلونه فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم، فأشارت عليه أن يتحلل، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم صواب ما أشارت به ففعله فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، وفيه فضل المشورة، وأن الفعل إذا انضم إلى القول كان أبلغ من القول المجرد، وجواز مشاورة المرأة الفاضلة، وفضل أم سلمة ووفور عقلها حتى قال إمام الحرمين: لا نعلم امرأة أشارت برأي فأصابت إلا أم سلمة، وقد استدرك بعضهم عليه بنت شبيب في أمر موسى، فحرق بدنه ودعا حالقه فحلقه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا حتى إذا كان بين مكة والمدينة ونزلت سورة الفتح¹، ثم جاءه نسوة مؤمنات، جئن إليه في أثناء المدّة، وقد تقدم في أول الشروط من رواية عقيل عن الزهري ما يشهد لذلك حيث قال: ولم يأت أحد من الرجال إلا رده في تلك المدّة ولو كان مسلما، وجاء المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة ممن خرج، ويقال إنهما كانت تحت عمرو بن العاص، وسمي من المؤمنات المذكورات أميمة بنت بشر وكانت تحت حسان - ويقال ابن دحاحة - قبل أن يسلم فتزوجها سهل بن حنيف فولدت له ابنه عبد الله بن سهل، وسبيعة بنت الحارث الأسلمية وكانت تحت مسافر المخزومي، وأم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد فارتدت، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان، وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة كانت تحت عمرو بن عبد ود، لكن عمرو قتل بالخنق وكأنها فرت بعد قتله، وكان من سنة الجاهلية أن من مات زوجها كان أهله أحق بها، وكان ممن خرج من النساء في تلك المدّة بنت حمزة بن عبد المطلب، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وجاءه أبو بصير هو عُثْبَةُ ابن أُسَيْد ابن جارية الثقفي حليف بني زهرة، فأرسلوا في طلبه رجلين، سماهما ابن سعد في الطبقات: حنيس ابن جابر ومولى له يقال له كوثر، زاد ابن إسحاق: فكتب الأخنس بن شريق والأزهر بن عبد عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا وبعثا به مع مولى لهما ورجل من بني عامر استأجراه بيكرين، والأخنس من ثقيف رهط أبي بصير، وأزهر من بني زهرة حلفاء

¹-الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص339

أبي بصير فلكل منهما المطالبة برده، فدفعه إلى الرجلين، وفي رواية ابن إسحاق: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - يا أبا بصير إن هؤلاء القوم صالحونا على ما علمت، وإنما لا نغدر، فالحق بقومك، فقال: أتردني إلى المشركين يفتنونني عن ديني ويعذبونني؟ قال: اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك فرجا ومخرجا، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، وفي رواية الواقدي: فلما كانوا بذوي الحليفة دخل أبو بصير المسجد فصلى ركعتين وجلس يتغدى، ودعاهما فقدم سفرتهما فأكلوا جميعا، فقال أبو بصير لأحد الرجلين كلاما عن سيفه فاستله الآخر، فأمكنه به فضربه حتى برد، وفر الآخر، ورجع فقال قتل صاحبكم صاحبي، وإني لمقتول أي إن لم تردوه عني، واتبعه أبو بصير حتى دفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه وهو عاض على أسنانه ثوبه وقد بدا طرف ذكره والحصى يطير من تحت قدميه من شدة عدوه، وأبو بصير يتبعه، فقال أبو بصير: يا رسول الله عرفت أي إن قدمت عليهم فتتوني عن ديني ففعلت ما فعلت وليس بيني وبينهم عهد ولا عقد، فقال فيه ويل أمه مسعّر حرب لو كان له أحد، أي ينصره ويعاضده وينصره، وفي رواية الأوزاعي: لو كان له رجال، فلقتها أبو بصير فانطلق، ورمز إلى من بلغه ذلك من المسلمين أن يلحقوا به، حتى أتى سيف البحر أي ساحله، وعين ابن إسحاق المكان فقال: حتى نزل العيص، وكان طريق أهل مكة إذا قصدوا الشام، وهو يجاذي المدينة إلى جهة الساحل، وهو قريب من بلاد بني سليم، وانفلت منهم أبو جندل، أي من أبيه وأهله، وفي رواية أبي الأسود عن عروة (وانفلت أبو جندل في سبعين راكبا مسلمين فلحقوا بأبي بصير فنزلوا قريبا من ذي المروة على طريق عير قريش فقطعوا مادتهم)، ما يسمعون بعير إلا اعترضوا لها، كناية عن منعهم لها من السير، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي جندل ومن معه، وقالوا: ومن خرج منا إليك فهو لك حلال غير حرج، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بصير، فقدم كتابه وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده، فدفنه أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجدا، وقدم أبو جندل ومن معه إلى المدينة فل يزل بها إلى أن خرج إلى الشام مجاهدا فاستشهد في خلافة عمر، قال فعلم الذين كانوا أشاروا بأن لا يسلم أبو جندل إلى أبيه أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مما كرهوا، وفي قصة عروة بن مسعود من الفوائد ما يدل على جودة عقله ويقظته، وما كان عليه الصحابة من المبالغة في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره ومراعاة أموره وردع من جفا عليه بقول أو فعل والتبرك بآثاره، وفي هذه القصة جواز المخادعة في الحرب وإظهار إرادة الشيء والمقصود غيره، وفيه أن كثيرا من المشركين كانوا يعظمون حرمة الإحرام والحرم، وينكرون على من يصد عن ذلك تمسكا منهم ببقايا من دين إبراهيم عليه السلام، وقد اختلف العلماء في المدة التي تجوز المهادنة فيها مع المشركين: فقيل لا تجاوز عشر سنين على ما في هذا الحديث وقيل تجوز الزيادة، وفيه أن الاعتبار في العقود بالقول ولو تأخرت الكتابة والإشهاد، ولأجل ذلك أمضى النبي صلى الله عليه وسلم لسهيل الأمر في رد ابنه إليه، قال الخطابي: تأول العلماء ما وقع في قصة أبي جندل على وجهين: أحدهما أن الله قد أباح التقية للمسلم إذا خاف الهلاك، ورخص له أن يتكلم بالكفر على إضمار الإيمان إن لم يمكنه التورية، فلم يكن رده إليهم إسلاما لأبي جندل إلى الهلاك مع وجوده السبيل إلى الخلاص من الموت بالتقية، والوجه الثاني أنه إنما رده إلى أبيه، والغالب أن أباه لا يبلغ به الهلاك، وإن عذبه أو سجنه فله مندوحة بالتقية أيضا، وأما ما يخافه عليه من الفتنة فإن ذلك امتحان من الله يبتلي به صبر عباده المؤمنين، واختلف العلماء هل يجوز الصلح مع المشركين على أن يرد إليهم من جاء مسلما من عندهم إلى

بلاد المسلمين أم لا؟ فقيل: نعم على ما دلت عليه قصة أبي جندل وأبي بصير، وقيل لا، وأن الذي وقع في القصة منسوخ، وإن ناسخه حديث (أنا بريء من مسلم بين مشركين) وهو قول الحنفية، وقال بعض الشافعية: ضابط جواز الرد أن يكون المسلم بحيث لا تجب عليه الهجرة من دار الحرب، وفيه أن للمسلم الذي يجيء من دار الحرب في زمن الهدنة قتل من جاء في طلب رده إذا شرط لهم ذلك، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على أبي بصير قتله العامري ولا أمر فيه يقود ولا دية، قال جمهور العلماء من الشافعية وغيرهم: يجوز التعريض بذلك لا التصريح كما في هذه القصة، وفي قصة أبي بصير من الفوائد جواز قتل المشرك المعتدي غيلة، ولا يعد ما وقع من أبي بصير غدرا لأنه لم يكن في جملة من دخل في المعاهدة التي بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش، لأنه إذ ذاك كان محبوبا بمكة، لكنه لما خشى أن المشرك يعيده إلى المشركين درأ عن نفسه بقتله، ودافع عن دينه بذلك، ولم ينكر النبي قوله ذلك، وفيه أن من فعل مثل فعل أبي بصير لم يكن عليه قود ولا دية، وفيه أنه كان لا يريد على المشركين من جاء منهم إلا بطلب منهم، لأنهم لما طلبوا أبا بصير أول مرة أسلمه لهم، ولما حضر إليه ثانيا لم يرسله لهم، بل لو أرسلوا إليه وهو عنده لأرسله، فلما خشى أبو بصير من ذلك نجا بنفسه، وفيه أن شرط الرد أن يكون الذي حضر من دار الشرك باقيا في بلد الإمام، ولا يتناول من لم يكن تحت يد الإمام ولا متحيزا إليه، واستنبط منه بعض المتأخرين أن بعض ملوك المسلمين مثلا لو هادن بعض ملوك الشرك فغزاهم ملك آخر من المسلمين فقتلهم وغنم أموالهم جاز له ذلك، لأن عهد الذي هادتهم لم يتناول من لم يهادتهم، ولا يخفى أن محل ذلك ما إذا لم يكن هناك قرينة تعميم، وفي هذا الحديث أشياء تتعلق بالمناسك: منها أن ذا الحليفة ميقات أهل المدينة للحجاج والمعتمر، وأن تقليد الهدى وسوقه سنة للحجاج والمعتمر فرضا كان أو سنة، وأن الإشعار سنة لا مثله، وأن الحلق أفضل من التقصير، وأنه نسك في حق المعتمر محصورا كان أو غير محصور، وأن المحصر ينحر هديه حيث أحصر ولو لم يصل إلى الحرم، ويقاتل من صده عن البيت، وأن الأولى في حقه ترك المقاتلة إذا وجد إلى المسالمة طريقا، وفيه أشياء تتعلق بالجهاد: منها جواز سبي ذراري الكفار إذا انفردوا عن المقاتلة ولو كان قبل القتال، وفيه الاستتار عن طلائع المشركين، ومفاجأتهم بالجيش لطلب غرتهم، وجواز التنكب عن الطريق السهل إلى الطريق الوعر لدفع المفسدة وتحصيل المصلحة، واستحباب تقديم الطلائع والعيون بين يدي الجيش، والأخذ بالحزم في أمر العدو لئلا ينالوا غرة المسلمين، وجواز الخداع في الحرب، والتعريض بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان من خصائصه أنه منهي عن خائنة الأعين، وفيه أيضا فضل الاستشارة لاستخراج وجه الرأي واستطابة قلوب الأتباع، وجواز بعض المسامحة في أمر الدين، واحتمال الضيم فيه ما لم يكن قادحا في أصله إذا تعين ذلك طريقا للسلامة في الحال والصلاح في المال سواء كان ذلك في حال ضعف المسلمين أو قوتهم، وأن التابع لا يليق به الاعتراض على المتبوع بمجرد ما يظهر في الحال بل عليه التسليم، لأن المتبوع أعرف بمآل الأمور غالبا بكثرة التجربة ولا سيما مع من هو مؤيد بالوحي، وفيه جواز الاعتماد على خبر الكافر إذا قامت القرينة على صدقه¹.

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج5، ص400-415

4/ نتائج الصلح: سمي القرآن هذا الصلح فتحاً، والمراد بالفتح هنا الحديبية لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك كما وقع لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح، وقد ذكر ابن إسحاق في المغازي عن الزهري قال: لم يكن في الإسلام فتح قبل فتح الحديبية أعظم منه، وإنما كان الكفر حيث القتال، فلما أمن الناس كلهم كلم بعضهم بعضاً وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ولم يكن أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا بادر إلى الدخول فيه، فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، قال ابن هشام: ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج بعد سنين إلى فتح مكة في عشرة آلاف، وأنزل قوله تعالى: (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً)، وهذه الآية نزلت منصرفه صلى الله عليه وسلم من الحديبية، وقد روى أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن حارثة قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً عند كراع الغميم وقد جمع الناس قرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً)، فقال رجل: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: أي والذي نفسي بيده إنه لفتح، ثم قسمت خيبر على أهل الحديبية، وروى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله: (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) قال: صلح الحديبية، وغفر له ما تقدم وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرضوان، وأطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس وفرح المسلمون بنصر الله¹.

قال الزهري فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس، ولما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس كلم بعضهم بعضاً والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، يعني من صناديد قريش، ومما ظهر من مصلحة الصلح المذكور غير ما ذكره الزهري أنه كان مقدمة بين الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجا، وكانت الهدنة مفتاحاً لذلك، ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سميت فتحاً كما سيأتي في المغازي، فإن الفتح في اللغة فتح المغلق، والصلح كان مغلقاً حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيماً للمسلمين وفي الصورة الباطنة عزا لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير تكبير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام جهة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، وظهر من كان يخفي إسلامه فذل المشركون من حيث أرادوا العزة وأقهروا من حيث أرادوا الغلبة².

و/ أحداث وفرائض وتشريعات هذه المرحلة

1/ أحداث هذه المرحلة

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص506

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج5، ص410

1/ وفد عبد القيس: هي قبيلة كبيرة يسكنون البحرين، ينسبون إلى عبد القيس بن أفصى بن دُعَمَيِّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وكان لعبد القيس وفادتان الثانية كانت في سنة الوفود وكان عددهم حينئذ أربعين رجلا، أما الأولى فكانت قبل الفتح ولهذا قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم بيننا وبينك كفار مضر وكان ذلك إما في سنة خمس أو قبلها، وكانت قريتهم بالبحرين أول قرية أقيمت فيها الجمعة بعد المدينة، وكان عدد الوفد الأول ثلاثة عشر رجلا، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان فيهم الأشج واسمه المنذر، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والآناة، وفي حديث هود بن عبد الله بن سعد العصري أنه سمع جده مزبدة العصري قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه إذ قال لهم سيطلع عليكم من ها هنا ركب هم خير أهل المشرق فقام عمر فتوجه نحوهم فلقى ثلاثة عشر راكبا فبشرهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم، ثم مشى معهم حتى أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فرموا بأنفسهم عن ركائبهم، فأخذوا يده فقبلوها وتأخر الأشج في الركاب حتى أناحها وجمع متاعهم ثم جاء يمشي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أن فيك خصلتين أخرجه البيهقي¹.

روى البخاري عن أبي جمرَةَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِنَّ لِي جَرَّةً يُنْتَبَدُ لِي نَبِيذٌ فَأَشْرَبْتُهُ حُلْوًا فِي جَرٍّ إِنْ أَكْثَرْتُ مِنْهُ فَجَالَسْتُ الْقَوْمَ فَأَطَلْتُ الْجُلُوسَ خَشِيْتُ أَنْ أَفْتَضِحَ فَقَالَ قَدِمَ وَقَدْ عَبْدَ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ غَيْرِ خَزَايَا وَلَا النَّدَامَى فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُضَرَ وَإِنَّا لَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحُرْمِ حَدَّثَنَا بِجُمْلٍ مِنَ الْأَمْرِ إِنْ عَمَلْنَا بِهِ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ وَنَدَعُو بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا قَالَ أَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَعَانِمِ الْحُمْسَ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ مَا انْتَبَذَ فِي الدُّبَابِ وَالنَّقِيرِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُرْفَتِ².

2/ حديث الإفك: وكان في غزوة بني المصطلق³، وهي غزوة المريسيع⁴، وقد روى حديث الإفك الإمام البخاري بطوله عن عائشة قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ سَفْرًا أَفْرَعُ بَيْنَ أَرْوَاجِهِ فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَفْرَعُ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَا أُنزِلَ الْحِجَابُ فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنزَلُ فِيهِ فَبَسْرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تَلَكَّ وَقَفَلَ دَنُونًا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آدَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَعُمْتُ حِينَ آدَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ قَالَتْ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرْحَلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ وَكَانَ النَّسَاءُ إِذْ ذَاكَ حِقَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ وَلَمْ يَعْشَهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِقْفَةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا

¹ - ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص686-687

² - كتاب المغازي، باب: وفد عبد القيس، رقم: 4368

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص494

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص430

الْجَمَلِ فَسَارُوا وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ
وظننتُ أَنَّهُمْ سَيَقْدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا حَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيِّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ
مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَى وَكَانَ رَأَى قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ
عَرَفَنِي فَحَمَرْتُ وَجْهِي بِجُلْبَابِي وَ وَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ وَهُوَ حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَيَّ
يَدَهَا فَعُمْتُ إِلَيْهَا فَزَكَيْتُهَا فَأَنْطَلَقَ يُعْوِذُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوْغِرِينَ فِي نَخْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ قَالَتْ فَهَلْكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ
الَّذِي تَوَلَّى كَبْرَ الْإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوقٍ قَالَ عُرُوهُ أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيَتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيَقْرُؤُهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ
وَقَالَ عُرُوهُ أَيْضًا لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ وَمَسْطَحُ بْنُ أَنَاثَةَ وَحَمْنَةُ بِنْتُ حَحْشٍ فِي نَاسٍ آخِرِينَ لَا عِلْمَ لِي
بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَإِنَّ كَبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوقٍ قَالَ عُرُوهُ كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ
عِنْدَهَا حَسَانٌ وَتَقُولُ إِنَّهُ الَّذِي قَالَ فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرَضِي لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ
قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ يَرِيئِي فِي وَجْعِي أَيُّ لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي إِذَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَسَلُّمُ ثُمَّ يَقُولُ
كَيْفَ تَيْكُمُ ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَلِكَ يَرِيئِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَعْتُ فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مَسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وَكَانَ مُتَبَرِّزًا
وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُفْفَ قَرِيبًا مِنْ بَيْتِنَا قَالَتْ وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي الْبَرِيَّةِ قِبَلَ الْعَائِطِ وَكُنَّا
نَتَأَذَى بِالْكُفْفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بَيْتِنَا قَالَتْ فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مَسْطَحٍ وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي زُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأُمُّهَا بِنْتُ
صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَهُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَأَبْنُهَا مَسْطَحُ بْنُ أَنَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مَسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا مِنْ
شَأْنِنَا فَعَثَرْتُ أُمُّ مَسْطَحٍ فِي مِرْطَبِهَا فَقَالَتْ تَعَسَ مَسْطَحُ فَقُلْتُ لَهَا بِئْسَ مَا قُلْتَ أَنْتَسْبِينَ رَجُلًا شَهَدَ بَدْرًا فَقَالَتْ أَيُّ هَتَاهُ وَمَ
تَسْمَعِي مَا قَالَ قَالَتْ وَقُلْتُ مَا قَالَ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ قَالَتْ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ كَيْفَ تَيْكُمُ فَقُلْتُ لَهُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبُوبَيَّ قَالَتْ وَأُرِيدُ أَنْ أُسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا
قَالَتْ فَأَذَنُ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لِأُمِّي يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ قَالَتْ يَا بِنْتِي هُوَ بِي عَلَيْكَ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا
كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُجْبُهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثُرْنَ عَلَيْهَا قَالَتْ فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا قَالَتْ فَبَكَيْتُ
تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يِرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي قَالَتْ وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ
أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلَبْتَ الْوُحْيَ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ قَالَتْ فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ هُمْ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ أُسَامَةُ أَهْلَكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ
لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلَّ الْجَارِيَةُ تَصُدُّكَ قَالَتْ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيَّةَ فَقَالَ أَيُّ بَرِيَّةٍ هَلْ
رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيئُكَ قَالَتْ لَهُ بَرِيَّةٌ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتِ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السِّنُّ نَنَامُ عَنْ
عَجِينَ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ قَالَتْ فَتَقَامُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْدَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَهُوَ عَلَيَّ
الْمَنْبِرِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْدِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَدَاةٌ فِي أَهْلِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا

رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي قَالَتْ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ
 أَعْدِرُكَ فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ قَالَتْ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ وَكَانَتْ أُمَّ
 حَسَانَ بِنْتُ عَمِّهِ مِنْ فَحْدِهِ وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ قَالَتْ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلْتَهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ
 لِسَعْدٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرْ عَلَى قَتْلِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ
 سَعْدٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقُتْلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ مُجَادِلٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ قَالَتْ فَتَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هُمَا
 أَنْ يَفْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَتْ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا
 وَسَكَتْ قَالَتْ فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَرِقًا لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ قَالَتْ وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا يَرِقًا
 لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى إِنِّي لِأَطْلُ أَنْ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبِيدِي فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ
 الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي قَالَتْ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ
 قَالَتْ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ قَالَتْ فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيِّرْكَ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتِ بِذَنْبٍ
 فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَتْ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ
 قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ فَطَرَهُ فَقُلْتُ لِأَبِي أَحِبَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِّي فِيمَا قَالَ فَقَالَ أَبِي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا
 أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لِأُمِّي أَحْبِبِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ قَالَتْ أُمِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا
 أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السِّنُّ لَا أَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا
 الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَعْنُ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي وَلَعْنُ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَيُّ مِنْهُ بَرِيئَةٌ
 لَتُصَدِّقُنِي فَوَاللَّهِ لَا أَحْدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ
 عَلَى فِرَاشِي وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَيُّ حِينِيذٍ بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبِرَائَتِي وَلَكِنَّ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَطْلُ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلُ فِي شَأْنِي وَحَيَّا يُتَلَى لَشَأْنِي فِي
 نَفْسِي كَانَ أَحَقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا
 فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبِرْحَاءِ
 حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلَ الْجَمَانِ وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ قَالَتْ فَسَرَّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكَ قَالَتْ فَقَالَتْ لِي أُمِّي قَوْمِي إِلَيْهِ فَقُلْتُ
 وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَتْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ الْعَشْرَ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْزَلَ
 اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُنَائَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقَرَهُ وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ
 الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ إِلَى قَوْلِهِ عَفْوٌ رَحِيمٌ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ
 يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي فَقَالَ لَزَيْنَبَ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي وَاللَّهِ مَا

عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا قَالَتْ عَائِشَةُ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ قَالَتْ وَطَفِقْتُ أُحْتَمَى حَمْنُهُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ قَالَ ابْنُ شَهَابٍ فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هُوَلَاءِ الرَّهْطِ ثُمَّ قَالَ قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنْفِ أَنْثَى قَطُّ قَالَتْ ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ¹.

وقد أنزل الله عز وجل سورة النور في أهل الإفك، ومنها قوله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15)}²

11/فرائض وتشريعات هذه المرحلة

1/تشريع الزكاة

***تشريع صدقة الفطر:** جاء تشريع الزكاة بالتدرج مثل سائر الفرائض، فشرعت صدقة الفطر أولاً ثم الزكاة بعدها، روى النسائي عن قيس بن سعد قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت الزكاة لم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعل³، وكان ذلك على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأمر سول الله صلى الله عليه وسلم- في هذه السنة بزيادة الفطر، وذلك قبل أن تفرض الزكاة في الأموال، وأن تُخرج عن الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى، صاع من تمر أو صاع من شعير أو صاع من زبيب أو مُدان من بر⁴.

***تشريع وجوب الزكاة:** وقد اختلف في أول وقت فرضت الزكاة، فقيل كان فرضها في السنة الثانية قبل فرض رمضان، وإذا كان فرض صيام رمضان كان في شهر شعبان⁵، ثم كانت وقعة بدر في رمضان، فإن صدقة الفطر كانت من شهر رمضان الذي وقعت فيه غزوة بدر، فيكون فرض الزكاة في السنة الثانية ولكن بعد فرض صيام رمضان وليس قبله والله أعلم.

ومن حكمة فرض الزكاة في هذه المرحلة إكمال الأسس التي يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامي الناشئ: من التكافل في الأسرة والجماعة، والرعاية لحقوق الضعاف فيها، والصيانة لحق المرأة وكرامتها، والحفاظ على أموال الجماعة في عمومها، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع، وأمر الأوصياء على اليتامى أن يردوا لهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد، وألا ينكحوا القاصرات اللواتي تحت وصايتهم طمعاً في أموالهن، أما السفهاء الذين يُخشى من إتلافهم للمال، إذا

¹- كتاب: المغزي، باب: حديث الإفك، رقم: 3826

²- سورة النور، الآيات: 14-15

³- سنن النسائي، كتاب: الزكاة، باب: فرض صدقة الفطر قبل نزول الزكاة، رقم: 2460

⁴- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص169

⁵- ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص388

هم تسلموه، فلا يعطى لهم المال، لأنه في حقيقته مال الجماعة، ولها فيه قيام ومصلحة، فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه، وأن يراعوا العدل والمعروف في عشرتهم للنساء عامة¹.

2/ صلاة العيدين: وفي نفس السنة بعد فرض زكاة الفطر، صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة العيد يوم الفطر بالمصلى قبل الخطبة، وصلى العيد يوم الأضحى وأمر بالأضحية، وأقام المدينة عشر سنين يضحى كل عام².

وكان أهل المدينة في أول قدوم النبي - صلى الله عليه وسلم -، يجعلون أياما كأعياد يلعبون فيهما، فشرع لهما العيدين، روى أبو داود عن أنس قال قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ مَا هَذَا الْيَوْمَانِ قَالُوا كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ³، وهما يوم النيروز ويوم المهرجان، والنوروز هو أول يوم تتحول الشمس فيه إلى برج الحمل، وهو أول السنة الشمسية، كما أن غرة شهر المحرم أول السنة القمرية، وأما مهرجان فالظاهر بحكم مقابله بالنيروز أن يكون أول يوم الميزان، وهما يومان معتدلان في الهواء لا حر ولا برد ويستوي فيهما الليل والنهار فكان الحكماء المتقدمين المتعلقين بالهيئة اختاروهما للعيد في أيامهم وقلدهم أهل زمانهم لاعتقادهم بكمال عقول حكمائهم، فجاء الأنبياء وأبطلوا ما بني عليه الحكماء في الجاهلية، ونهى عن اللعب والسرور فيهما أي في النيروز والمهرجان.

3/ قصر الصلاة في السفر: ذكر ابن الأثير في شرح المسند أن قصر الصلاة كان في السنة الرابعة من الهجرة⁴.

4/ تشريع التيمم: روى البخاري عن عائشة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِدَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عَقْدٌ لِي فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ التَّمَاسِيَةَ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَيَّ مَاءً فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالُوا أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ وَلَيْسُوا عَلَيَّ مَاءً وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعَ رَأْسَهُ عَلَيَّ فَحِذِي قَدْ نَامَ فَقَالَ حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ وَلَيْسُوا عَلَيَّ مَاءً وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحْرُكِ إِلَّا مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ فَحِذِي فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَصْبَحَ عَلَيَّ عَيْرٍ مَاءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيْمُمِ⁵ فَتَيَمَّمُوا فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْخَضِرِ مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَاتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصَبْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ⁶.

¹ - سيد قطب: في ظلال القرآن [ج 2/ 41]

² - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 1، ص 169

³ - سنن أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: صلاة العيدين، رقم: 959

⁴ - فتح الباري: ج 1، ص 553-554

⁵ - وهي قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى { فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ }

⁶ - كتاب التيمم، باب: التيمم، رقم: 334

قال ابن حجر: قال بن عبد البر في التمهيد يقال أنه كان في غزاة بني المصطلق، وجزم بذلك في الاستدكار وسبقه إلى ذلك بن سعد وابن حبان وغزوة بني المصطلق هي غزوة المريسيع وفيها وقعت قصة الإفك لعائشه وكان ابتداء ذلك بسبب وقوع عقدها أيضا فإن كان ما جزموا به ثابتا حمل على أنه سقط منها في تلك السفارة مرتين لاختلاف القصتين كما هو مبين في سياقهما، وما جزم به بن التين فإنه قال البيداء هي ذو الحليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة قال وذات الجيش وراء ذي الحليفة وقال أبو عبيد البكري في معجمه البيداء أدنى إلى مكة من ذي الحليفة، قال والبيداء هو الشرف الذي قدام ذي الحليفة في طريق مكة وقال أيضا ذات الجيش من المدينة على بريد، قال وبينها وبين العقيق سبعة أميال والعقيق من طريق مكة، ويؤيده ما رواه الحميدي في مسنده عن سفيان قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه في هذا الحديث فقال فيه إن القلادة سقطت ليلة الأواء، والأبواء بين مكة والمدينة وفي رواية على بن مسهر في هذا الحديث عن هشام قال وكان ذلك المكان يقال له الصلصل رواه جعفر الفريابي في كتاب الطهارة له وابن عبد البر من طريقه والصلصل، قال البكري هو جبل عند ذي الحليفة¹.

5/تشرية صلاة الخوف: كانت غزوة الرقاع التي وقعت فيها صلاة الخوف كانت بعد غزوة الأحزاب، وأغرب الداودي فقال: سميت ذات الرقاع لوقوع صلاة الخوف فيها فسميت بذلك لترقية الصلاة فيها، وذكر أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف في غزوة نجد، وصلى معه عبد الله بن عمر صلاة الخوف بنجد²، فتكون صلاة الخوف قد شرعت سنة 5هـ في هذه الغزوة.

6/فرض الحجاب: بعد نزول الحجاب كان في ذي القعدة سنة أربع عند جماعة، أما قول الواقدي إن الحجاب كان في ذي القعدة سنة خمس فمردود، وقد جزم خليفة وأبو عبيدة وغير واحد بأنه كان سنة ثلاث، فحصلنا في الحجاب على ثلاثة أقوال أشهرها سنة أربع³.

ولعل أهم حكمة من فرض الحجاب هو وضع الأسس التي تقوم عليها الأسرة في المجتمع الإسلامي، وجعل الإسلام وحدة الإنسانية هي «النفس» ووحدة المجتمع هي الأسرة، ومن ثم تولى الشريعة الإسلامية الرعاية للأسرة في النظام الإسلامي بتوثيق عراها وتثبيت بنائها، وحمائتها من جميع المؤثرات التي توهم هذا البناء - وفي أول هذه المؤثرات مجانية الفطرة، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى، وهذه إحدى مظاهر تلك العناية بالأسرة في النظام الإسلامي، وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناء قوي، والمرأة تلقى تلك المعاملة الجائرة، وتلك النظرة الهابطة التي تلقاها في الجاهلية - كل جاهلية - ومن ثم كانت عناية الإسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ورفع هذه النظرة الهابطة، وفي هذا الباب خبطت البشرية وتاهت تبيها طويلاً، وجردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان، تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له، فلما أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنها إنسان

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ط: المكتبة السلفية، [ج 1/ 515-516]

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 483

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 495

خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنهما ليسا فردين متماثلين، إنما هما زوجان متكاملان، والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد، ولو شاء الله لخلق - في أول النشأة - رجالاً كثيراً ونساءً وزوجهم، فكانوا أسراً شتى من أول الطريق، لا رحم بينها من مبدأ الأمر، ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد، وهي الوشيحة الأولى، ولكنه - سبحانه - شاء لأمر يعلمه وحكمه يقصدها، أن يضاعف الوشائج، فيبدأ بها من وشيحة الربوبية - وهي أصل وأول الوشائج - ثم يثني بوشيحة الرحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وأنثى - هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة - ومن هذه الأسرة الأولى يث رجالاً كثيراً ونساءً، كلهم يرجعون ابتداءً إلى وشيحة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيحة الأسرة، التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني، بعد قيامه على أساس العقيدة، ومن ثم هذه الرعاية للأسرة في النظام الإسلامي، وهذه العناية بتوثيق عراها، وتثبيت بنينها، وحمائتها من جميع المؤثرات التي توهم هذا البناء - وفي أول هذه المؤثرات مجانبة الفطرة، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى، وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناء قوي، والمرأة تلقى تلك المعاملة الجائرة، وتلك النظرة الهابطة التي تلقاها في الجاهلية - كل جاهلية - ومن ثم كانت عناية الإسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ورفع هذه النظرة الهابطة¹.

ثالثاً: خصائص ومميزات المرحلة المدنية الثالثة [6-8هـ]

أ/ الغزوات والسرايا بين صلح الحديبية وفتح مكة

¹ - سيد قطب: في ظلال القرآن، [ج 2/ 40]

عُكّل وعُرينة هما قبيلتان متغايرتان: عُكّل قبيلة من تيم الرباب من عدنان، وعُرينة حي من قضاة وحي من بجيلة من قحطان، روى البخاري: عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ نَاسًا مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ضَرْعٍ وَمَنْ نَكُنْ أَهْلَ رَيْفٍ وَاسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَوْدٍ وَرَاعٍ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا نَاحِيَةَ الْحَرَّةِ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَقَتَلُوا رَاعِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَأْفُوا الدَّوْدَ فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَسَمَرُوا أَعْيُنَهُمْ وَقَطَعُوا أَيْدِيَهُمْ وَتَرَكُوا فِي نَاحِيَةِ الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا عَلَى حَالِهِمْ¹.

وذكر ابن إسحاق في المغازي أن قدومهم كان بعد غزوة ذي قرد وكانت في جمادي الآخرة سنة 6هـ، وذكرها البخاري بعد الحديبية وكانت في ذي القعدة منها، وكان عددهم فيما رواه أبو عوانة والطبري عن أنس قال: كانوا أربعة من عرينة وثلاثة من عكّل²، روى مسلم عن أنس أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَاسْتَوْخَمُوا الْأَرْضَ وَسَقَمَتْ أَجْسَامُهُمْ³، ويحتمل أن يكون الثامن غير القبيلتين وكان من أتباعهم فلم ينسب، والظاهر أنهم قدموا سقاما فلما صحوا من السقم كرهوا الإقامة بالمدينة لوخمها، فأما السقم الذي كان بهم فهو الهزال الشديد والجهد من الجوع، وعند مسلم: فقتلوا أحد الراعيين وجاء الآخر قد جزع فقال: قد قتلوا صاحبي وذهبوا بالإبل، واسم راعي النبي صلى الله عليه وسلم المقتول يسار، روى الطبراني عن سلمة بن الأكوع قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم غلام يقال له يسار، وكان قد أصابه في غزوة بني ثعلبة، فراه يحسن الصلاة فأعتقه وبعثه في لقاح له بالحرّة فكان بها، وقتله العرينيين، والراعي الآخر هو راعي إبل الصدقة، وأصحاب المغازي لم يذكر أحد منهم أنهم قتلوا غير يسار⁴، وذكر ابن سعد أن عدد لقاحه صلى الله عليه وسلم كانت خمس عشرة، وأنهم نخروا منها واحدة يقال لها الحناء⁵، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم سرية، روى مسلم عن أنسٍ قَالَ وَعِنْدَهُ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ قَرِيبٌ مِنْ عِشْرِينَ فَأَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِمْ وَبَعَثَ مَعَهُمْ قَائِمًا يَفْتَتِصُ أَثَرَهُمْ⁶، وفي مغازي الواقدي أن السرية كانت عشرين رجلا، وزاد في حديث سلمة بن الأكوع (خيلا من المسلمين أميرهم كُرْزُ بن جابر الفهري)، وذكر أنه سعد بن زيد الأشهلي، وهذا أيضا أنصاري فيحتمل أنه كان رأس الأنصار، وكان كرز أمير الجماعة¹.

¹ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: قصة عكّل وعرينة، رقم: 4192

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1، ص 402

³ - صحيح مسلم: كتاب: القسامة والمخربين والقصاص والديات، باب: حكم المخربين والمرتين، رقم: 3163

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1، ص 405

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1، ص 403

⁶ - صحيح مسلم: كتاب: القسامة والمخربين والقصاص والديات، باب: حكم المخربين والمرتين، رقم: 3163

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1، ص 405

وأما شربهم البول فاحتج به من قال بطهارته، أما من الإبل فهذا الحديث، وأما من مأكول اللحم فبالقياس عليه، وهذا قول مالك وأحمد وطائفة من السلف، ووافقهم من الشافعية ابن خزيمة وابن المنذر وابن حبان والإصطخري والرويانى، وذهب الشافعي والجمهور إلى القول بنجاسة الأبوال والأرواث كلها من مأكول اللحم وغيره، وقول من قال لو كان نجسا ما جاز التداوي به لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود من حديث أم سلمة (إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها) والنجس حرام فلا يتداوى به لأنه غير شفاء، فجوابه أن الحديث محمول على حالة الاختيار، وأما في حال الضرورة فلا يكون حراما كالميتة للمضطر، ولا يرد قوله صلى الله عليه وسلم في الخمر (إنها ليست بدواء إنها داء) في جواب من سأله عن التداوي بها فيما رواه مسلم، فإن ذلك خاص بالخمر ويلتحق به غيرها من المسكر، والفرق بين المسكر وبين غيره من النجاسات أن الحد يثبت باستعماله في حالة الاختيار دون غيره، ولأن شربه يجر إلى مفسد كثيرة، ولأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن في الخمر شفاء فجاء الشرع بخلاف معتقدهم، وأما أبوال الإبل فقد روى ابن المنذر عن ابن عباس مرفوعا (أن في أبوال الإبل شفاء لذرية بطونهم) والذرب فساد المعدة، فلا يقاس ما ثبت أن فيه دواء على ما ثبت نفي الدواء عنه¹.

وأما ما فعلوا بهم من سمل أعينهم، فمال جماعة منهم ابن الجوزي إلى أن ذلك وقع عليهم على سبيل القصاص، قال الخطابي: إنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بهم ذلك ولم يسقهم الماء لأنه أراد بهم الموت بذلك، وقيل: إن الحكمة في تعطيشتهم لكونهم كفروا نعمة سقي ألبان الإبل التي حصل لهم بها الشفاء من الجوع والوخم²، وفي هذا الحديث من الفوائد: قدوم الوفود على الإمام، ونظره في مصالحهم، وفيه مشروعية الطب والتداوي بألبان الإبل وأبوالها، وفيه أن كل جسد يطب بما اعتاده، وفيه قتل الجماعة بالواحد سواء قتلوه غيلة أو حراة إن قلنا إن قتلهم كان قصاصا، وفيه المماثلة في القصاص وليس ذلك من المثلة المنهي عنها، وثبوت حكم المحاربة في الصحراء، وأما في القرى ففيه خلاف، وفيه جواز استعمال أبناء السبيل إبل الصدقة في الشرب وفي غيره قياسا عليه بإذن الإمام، وفيه العمل بقول القائف، وللعرب في ذلك المعرفة التامة³.

11/غزوة ذات القرد: جاءت تفاصيل هذه الغزوة فيما روى مسلم عن إياس بن سلمة قال حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ... ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِظَهْرٍ مَعَ رَبَاحٍ غُلَامٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مَعَهُ وَخَرَجْتُ مَعَهُ بِفَرَسٍ طَلْحَةَ أُنْدِيهِ مَعَ الظَّهْرِ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْفَزَارِيُّ قَدْ أَغَارَ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْفَقَهُ أَجْمَعَ وَقَتَلَ رَاعِيَهُ قَالَ فَقُلْتُ يَا رَبَّاحُ خُذْ هَذَا الْفَرَسَ فَأَبْلِعْهُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَغَارُوا عَلَى سَرْحِهِ قَالَ ثُمَّ قُمْتُ عَلَى أَكْمَةٍ فَاسْتَقْبَلْتُ الْمَدِينَةَ فَنَادَيْتُ ثَلَاثًا يَا صَبَاحَاهُ ثُمَّ خَرَجْتُ فِي آثَارِ الْقَوْمِ أَرْمِيهِمُ بِالنَّبْلِ وَأَرْجِزُ أَقُولُ أَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمَ الرُّضْعِ فَأَلْحَقْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَصْبُكُ سَهْمًا فِي رَحْلِهِ حَتَّى خَلَصَ نَصْلُ السَّهْمِ إِلَى كَتِفِهِ قَالَ قُلْتُ خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمَ الرُّضْعِ قَالَ فَوَ اللَّهُ مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَعْقِرُ بِهِمْ فَإِذَا رَجَعْتُ إِلَى فَارِسُ أَتَيْتُ شَجْرَةَ فَجَلَسْتُ فِي أَصْلِهَا ثُمَّ رَمَيْتُ

¹ - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج1، ص404

² - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج1، ص407-408

³ - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج1، ص407

فَعَقَرْتُ بِهِ حَتَّى إِذَا تَضَائِقَ الْجَبَلِ فَدَخَلُوا فِي تَضَائِقِهِ عَلَوْتُ الْجَبَلَ فَجَعَلْتُ أُرْدِيهِمْ بِالْحِجَارَةِ قَالَ فَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَتْبَعُهُمْ حَتَّى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ بَعِيرٍ مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا خَلَفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي وَخَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ثُمَّ اتَّبَعْتُهُمْ أُرْمِيهِمْ حَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً وَثَلَاثِينَ رُمْحًا يَسْتَحْفُونَ وَلَا يَطْرَحُونَ شَيْئًا إِلَّا جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَامًا مِنَ الْحِجَارَةِ يَعْرِفُهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى أَتَوْا مُتَضَائِقًا مِنْ ثَبِيَّةٍ فَإِذَا هُمْ قَدْ أَتَاهُمْ فَلَانُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ فَجَلَسُوا يَتَضَحَّوْنَ يَعْنِي يَتَعَدَّوْنَ وَجَلَسْتُ عَلَى رَأْسِ قَرْنٍ قَالَ الْفَزَارِيُّ مَا هَذَا الَّذِي أَرَى قَالُوا لَقِينَا مِنْ هَذَا الْبَرِحِ وَاللَّهِ مَا فَارَقْنَا مِنْذُ غَلَسِ يَمِينًا حَتَّى انْتَزَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا قَالَ فَلَيْقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ قَالَ فَصَعِدَ إِلَيَّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ فِي الْجَبَلِ قَالَ فَلَمَّا أَمَكُنُونِي مِنَ الْكَلَامِ قَالَ قُلْتُ هَلْ تَعْرِفُونِي قَالُوا لَا وَمَنْ أَنْتَ قَالَ قُلْتُ أَنَا سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أَطْلُبُ رَجُلًا مِنْكُمْ إِلَّا أَذْرَكْتُهُ وَلَا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُدْرِكُنِي قَالَ أَحَدُهُمْ أَنَا أَطْلُبُ قَالَ فَارْجِعُوا فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَلَّلُونَ الشَّحَرَ قَالَ فَإِذَا أُوهُمْ الْأَخْرَمُ الْأَسَدِيُّ عَلَى إِثْرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَعَلَى إِثْرِهِ الْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ قَالَ فَأَخَذْتُ بِعِنَانِ الْأَخْرَمِ قَالَ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ قُلْتُ يَا أَخْرَمُ اخْذِرْهُمْ لَا يَفْتَطِطُوكَ حَتَّى يَلْحَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ قَالَ يَا سَلَمَةُ إِنْ كُنْتُ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ فَلَا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ قَالَ فَخَلَيْتُهُ فَالْتَمَى هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَ فَعَقَرَ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ وَتَحَوَّلَ عَلَى فَرَسِهِ وَلَحِقَ أَبُو قَتَادَةَ فَارِسُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعْدَ الرَّحْمَنِ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ فَوَ الَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَتَبِعْتُهُمْ أَعْدُو عَلَى رِجْلِي حَتَّى مَا أَرَى وَرَائِي مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا غُبَارِهِمْ شَيْئًا حَتَّى يَعْدِلُوا قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شَعْبٍ فِيهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ دَوْ قَرْدٍ لِيَشْرَبُوا مِنْهُ وَهُمْ عِطَاشٌ قَالَ فَتَنظَرُوا إِلَيَّ أَعْدُو وَرَاءَهُمْ فَخَلَيْتُهُمْ عَنْهُ يَعْنِي أَجَلَيْتُهُمْ عَنْهُ فَمَا دَافُوا مِنْهُ فَطَرَهُ قَالَ وَيَخْرُجُونَ فَيَشْتَدُونَ فِي ثَبِيَّةٍ قَالَ فَأَعْدُو فَالْحَقُّ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَصْكُهُ بِسَهْمٍ فِي نَعْصِ كَنَفِهِ قَالَ قُلْتُ خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمَ يَوْمَ الرُّضْعِ قَالَ يَا نِكَلْتَهُ أُمُّهُ أَكْوَعُهُ بُكْرَةَ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ أَكْوَعُكَ بُكْرَةَ قَالَ وَأُرْدَوْا فَرَسَيْنِ عَلَى ثَبِيَّةٍ قَالَ فَجِئْتُ بِهِمَا أُسُوفُهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَلِحَفْنِي عَامِرٌ بِسَطِيحَةٍ فِيهَا مَدَقَّةٌ مِنْ لَبَنٍ وَسَطِيحَةٍ فِيهَا مَاءٌ فَتَوَضَّأْتُ وَشَرِبْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي حَلَّاهُمْ عَنْهُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَخَذَ تِلْكَ الْإِبِلَ وَكُلَّ شَيْءٍ اسْتَنْقَذْتُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَكُلَّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ وَإِذَا بِلَالٌ نَحَرَ نَافَةَ مِنَ الْإِبِلِ الَّذِي اسْتَنْقَذْتُ مِنَ الْقَوْمِ وَإِذَا هُوَ يَشْوِي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَبِدِهَا وَسَنَامِهَا قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَلْنِي فَأَنْتَحِبُ مِنَ الْقَوْمِ مِائَةَ رَجُلٍ فَاتَّبِعِ الْقَوْمَ فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلَّا قَتَلْتُهُ قَالَ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ فِي ضَوْءِ النَّارِ فَقَالَ يَا سَلَمَةُ أَتُرَاكَ كُنْتَ فَاعِيلاً قُلْتُ نَعَمْ وَالَّذِي أَكْرَمَكَ فَقَالَ إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَقْرُونَ فِي أَرْضِ عَطْفَانَ قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ عَطْفَانَ فَقَالَ نَحَرَ لَهُمْ فَلَانَ جُزُورًا فَلَمَّا كَشَفُوا جِلْدَهَا رَأَوْا غُبَارًا فَقَالُوا أَتَأْكُمُ الْقَوْمُ فَخَرَجُوا هَارِبِينَ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ وَخَيْرَ رَجَالِنَا سَلَمَةُ قَالَ ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْمَيْنِ سَهْمِ الْفَارِسِ وَسَهْمِ الرَّاجِلِ فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا ثُمَّ أَرَدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَرَأَتْهُ عَلَى الْعُضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ ... قَالَ فَوَّ اللَّهُ مَا لَبِثْنَا إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ¹.

قال ابن سعد (كانت غزوة ذي قرد في ربيع الأول سنة 6هـ قبل الحديبية، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فلم يبق بها إلا ليالي حتى أغار عيينة بن حصن على لقاحه، قال القرطبي: لا يختلف أهل السير أن غزوة ذي قرد كانت قبل الحديبية، فعلى هذا ما في الصحيح من التاريخ لغزوة ذي قرد أصبح مما ذكره أهل السير، ويحتمل في طريق الجمع أن تكون إغارة عيينة بن حصن على اللقاح وقعت مرتين الأولى التي ذكرها ابن إسحاق وهي قبل الحديبية، والثانية بعد الحديبية قبل الخروج إلى خيبر، وكان رأس الذين أغاروا عبد الرحمن بن عيينة كما في سياق سلمة عند مسلم، ويؤيده أن الحاكم ذكر في الإكليل: أن الخروج إلى ذي قرد تكرر، ففي الأول خرج إليها زيد بن حارثة قبل أحد، وفي الثانية خرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الآخر سنة 5هـ، والثالثة هذه المختلف فيها، فإذا ثبت هذا قوي هذا الجمع، وذكر ابن سعد أنها كانت عشرين لقحة، وكان فيهم ابن أبي ذر وامراته فأغار المشركون عليهم فقتلوا الرجل وأسروا المرأة².

1/1/ تصفية الوجود اليهودي من المدينة (غزوة خيبر 6هـ)

1/مكان الغزوة وتاريخها وخطتها

*/مكان الغزوة: خَيْبَرُ مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام، وذكر أبو عبيدة البكري أنها سميت باسم رجل من العماليق نزلها³.

*/تاريخ الغزوة: قال ابن إسحاق: خرج النبي صلى الله عليه وسلم في بقية المحرم سنة 7هـ فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر، وروى يونس بن بكير في المغازي عن ابن إسحاق: انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة فأعطاه الله فيها خيبر بقوله: {وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ 20} ⁴ يعني خيبر، فقدم المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم، وعن ابن التين عن ابن الحصار أنها كانت في آخر سنة 6هـ، وهو منقول عن مالك وبه جزم ابن حزم، وهذه الأقوال متقاربة، والراجح منها ما ذكره ابن إسحاق، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة⁵.

*/خطة غزوة خيبر:

¹ - صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد وغيرها، رقم: 3372

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 526

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 530

⁴ - سورة الفتح، الآية: 20

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 530-531

-/عزلهم عن حلفائهم: ذكر ابن إسحاق أنه نزل بواد يقال له الرجيع بينهم وبين غطفان لئلا يمدوهم وكانوا حلفاءهم، قال: فبلغني أن غطفان تجهزوا وقصدوا خيبر، فسمعوا حسا خلفهم فظنوا أن المسلمين خلفوهم في ذراريهم، فرجعوا فأقاموا وحذلوا أهل خيبر، وفي رواية عن حميد (كان إذا غزا لم يغز بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانا كف عنهم وإلا أغار، قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذانا ركب)، وحكى الواقدي أن أهل خيبر سمعوا بقصدته لهم، فكانوا يخرجون في كل يوم متسلحين مستعدين فلا يرون أحداً، حتى إذا كانت الليلة التي قدم فيها المسلمون ناموا فلم تتحرك لهم دابة ولم يصح لهم ديك، وخرجوا بالمساحي طالبين مزارعهم فوجدوا المسلمين، وعند أحمد من حديث أبي طلحة (حتى إذا كان عند السحر وذهب ذو الزرع إلى زرعه وذو الضرع إلى زرعه أغار عليهم)، وزاد في الجهاد عن أيوب (فلجئوا إلى الحصن) وتحصنوا به، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- يديه وقال: (الله أكبر، خربت خيبر) قال السهيلي: يؤخذ من هذا الحديث التفاؤل، لأنه صلى الله عليه وسلم لما رأى آلات الهدم، أخذ منه أن مدينتهم ستخرب¹.

-/فرض الحصار على يهود خيبر: ذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام على محاصرتهم بضع عشرة ليلة، وقيل: أكثر من ذلك، حتى أصابتهم مخمصة شديدة، لطول مدة الحصار².

2/أحداث الغزوة ونتائجها

* /خبر الغزوة في صحيح مسلم: روى مسلم عن إياس بن سلمة حدَّثني أبي... قَالَ فَوَ اللَّهُ مَا لَبِثْنَا إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَجَعَلَ عَمِّي عَامِرٌ يَرْتَجِزُ بِالْقَوْمِ تَاللهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَعْنَيْنَا فَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَأَقَيْنَا وَأَنْزَلْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ هَذَا قَالَ أَنَا عَامِرٌ قَالَ عَفَرَ لَكَ رُبُّكَ قَالَ وَمَا اسْتَعْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِنْسَانٍ يَخْصُهُ إِلَّا اسْتَشْهَدَ قَالَ فَنَادَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْلَا مَا مَتَّعْتَنَا بِعَامِرٍ قَالَ فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ قَالَ خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ وَيَقُولُ قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرَ أَيُّ مَرْحَبٍ شَاكِي السَّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبٌ إِذَا الْخُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ قَالَ وَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ فَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرَ أَيُّ عَامِرٍ شَاكِي السَّلَاحِ بَطَلٌ مُعَامِرٌ قَالَ فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِي ثُرْسِ عَامِرٍ وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْئَلُ لَهُ فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ قَالَ سَلِمَةُ فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ بَطَلٌ عَمَلُ عَامِرٍ قَتَلَ نَفْسَهُ قَالَ فَاتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَبْكِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَطَلٌ عَمَلُ عَامِرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ قَالَ قُلْتُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ قَالَ كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى عَلِيٍّ وَهُوَ أَرْمَدٌ فَقَالَ لِأَعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَاتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقْوَدُهُ وَهُوَ أَرْمَدٌ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَسَّقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ وَخَرَجَ مَرْحَبٌ فَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرَ أَيُّ مَرْحَبٍ شَاكِي السَّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبٌ إِذَا الْخُرُوبُ

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص535

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص536

أَقْبَلَتْ تَلَهَّبَ فَقَالَ عَلِيُّ أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي حَيْدَرَهُ كَلَيْتَ غَابَاتٍ كَرِيهَ الْمَنْظَرَةَ أَوْ فِيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلِ السَّنْدَرَةَ قَالَ فَضْرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ¹.

*/نتائج المعركة

-/تصفية يهود خيبر: روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال صلى النبي صلى الله عليه وسلم الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بَعَلَسِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ فَخَرَجُوا يَسْعُونَ فِي السَّكِكِ فَقَتَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُقَاتِلَةَ وَسَبَى الدُّرَيْتَةَ وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةُ فَصَارَتْ إِلَى دَحِيَّةِ الْكَلْبِيِّ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا².

-/عقد الصلح مع يهود خيبر: روى البخاري عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قَاتَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ فَغَلَبَ عَلَى النَّخْلِ وَالْأَرْضِ وَأَجْأَهُمْ إِلَى فَضْرِهِمْ فَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّفْرَاءَ وَالْبَيْضَاءَ وَالْحُلُقَةَ وَهُمْ مَا حَمَلَتْ رِكَابُهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَكْتُمُوا وَلَا يُعَيَّبُوا شَيْئًا فَإِنْ فَعَلُوا فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلَا عَهْدَ فَعَيَّبُوا مَسْكَ حَيْبِيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَقَدْ كَانَ قَتَلَ قَبْلَ خَيْبَرَ كَانَ احْتِمَلَهُ مَعَهُ يَوْمَ بَنِي النَّضِيرِ حِينَ أُجْلِيَتْ النَّضِيرُ فِيهِ حُلِيِّهِمْ قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسَعِيَةَ أَيْنَ مَسْكَ حَيْبِيِّ بْنِ أَخْطَبَ قَالَ أَذْهَبَتْهُ الْخُرُوبُ وَالنَّفَقَاتُ فَوَجَدُوا الْمَسْكَ فَقَتَلَ ابْنَ أَبِي الْحَقِيقِ وَسَبَى نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَهُمْ وَأَرَادَ أَنْ يُجْلِيَهُمْ فَقَالُوا يَا مُحَمَّدُ دَعْنَا نَعْمَلْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَنَا الشَّطْرُ مَا بَدَا لَكَ وَلَكُمْ الشَّطْرُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي كُلَّ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ ثَمَانِينَ وَسَنًا مِنْ تَمْرٍ وَعِشْرِينَ وَسَنًا مِنْ شَعِيرٍ³.

وقد اختلف في فتح خيبر هل كان عنوة أو صلحا، وفي حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس التصريح بأنه كان عنوة وبه جزم ابن عبد البر، ورد على من قال فتحت صلحا قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحا بالحصنين اللذين أسلمهما أهلها لحقن دمائهم، وهو ضرب من الصلح لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال، وعقد معهم الصلح أولا وشرط عليهم، لكنهم خلفوا الشروط وكان منهم زوج صفية بنت حبي بن أخطب، كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وكان ذلك سبب قتله فيما أخرجه البيهقي بإسناد رجاله ثقات من حديث ابن عمر (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ترك من ترك من أهل خيبر على أن لا يكتموا شيئا من أموالهم فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، قال فغيبوا مسكا فيه مال وحلي لحبي بن أخطب كان احتمله منه إلى خيبر فسألهم عنه فقالوا أذهبته النفقات، فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، قال: فوجد بعد ذلك في خربة، فقتل النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ابني أبي الحقيق وأحدهما زوج صفية)¹، فلما حدث النقص منهم زال أثر الصلح، ثم من عليهم بترك القتل وإبقائهم

¹- صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد وغيرها، رقم: 3372

²- صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، رقم: 4200

³- صحيح البخاري: كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء في حكم أرض خيبر، رقم: 2612

¹- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص548

عمالا بالأرض ليس لهم فيها ملك، ثم أجلاهم عمر، فلو كانوا صلحوا على أرضهم لم يجلوا منها، وذكر الطحاوي على أن بعضها فتح صلحا والآخر عنوة¹.

-/مشاطرة اليهود زروع خبير: روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى خبير اليهود على أن يعملوها ويزرعوها وهم شطروا ما خرج منها².

-/محاولة يهود خبير قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- بالسم: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما فتحت خبير أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعوا إلي من كان ها هنا من يهود فجمعوا له فقال لي سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقون عنه فقالوا نعم قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم من أبوكم فلان فقال كذبتم بل أبوكم فلان قالوا صدقت قال فهل أنتم صادقون عن شيء إن سألت عنه فقالوا نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفنا كذبنا كما عرفته في أينا فقال لهم من أهل النار قالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال النبي صلى الله عليه وسلم احسنوا فيها والله لا تخلفكم فيها أبدا ثم قال هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه فقالوا نعم يا أبا القاسم قال هل جعلتم في هذه الشاة سمًا قالوا نعم قال ما حملكم على ذلك قالوا أردنا إن كنت كاذبا نستريح وإن كنت نبيا لم يضرك³.

قال أبو إسحاق: لما اطمأن النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح خبير أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية، وكانت سألت: أي عضو من الشاة أحب إليه؟ قيل لها: الذراع فأكرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لآك منها مضغه ولم يسغها، وأكل معه بشر بن البراء فأسأغ لقمته، ثم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صفح عنها، وأن بشر بن البراء مات منها، وأخرج الواقدي عن الزهري (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: ما حملك على ما فعلت؟ قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي وأخي)، قال فسألت إبراهيم بن جعفر فقال: عمها يسار وكان من أجبن الناس، وهو الذي أنزل من الرف، وأخوها زبير، وزوجها سلام بن مشكم، ووقع في سنن أبي داود أنها أخت مرحب، وبه جزم السهيلي، وعند البيهقي في الدلائل: بنت أخي مرحب، ولم ينفرد الزهري بدعواه أنها أسلمت، فقد جزم بذلك سليمان التيمي في مغازيه ولفظه بعد قولها وإن كنت كاذبا أرحت الناس منك، وقد استبان لي الآن أنك صادق، وأنا أشهدك ومن حضر أبي على دينك، وأن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده، ومن طريق أبي نضرة عن جابر فقال: فلم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، قال الزهري: فأسلمت فتركها، قال معمر: والناس يقولون قتلها، وأخرج ابن سعد عن شيخه الواقدي بأسانيد متعددة له هذه القصة مطولة وفي آخره (قال فدفعها إلى ولاية بشر بن البراء فقتلها)، قال الواقدي: وهو الثبت، قال البيهقي: يحتمل أن يكون تركها أولا ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها، وبذلك أجاب السهيلي

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص545-546

² - صحيح البخاري: كتاب: المزارعة، باب: المزارعة مع اليهود، رقم: 2163

³ - صحيح البخاري: كتاب: الطب باب: ما يذكر في سم النبي، رقم: 5332

وزاد: أنه كان تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ثم قتلها ببشر قصاصا، قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون تركها لكونها أسلمت، وإنما أحرقتها حتى مات بشر لأن يموتة تحقق وجوب القصاص بشرطه¹.

*زواج النبي -صلى الله عليه وسلم- بأمة المؤمنين صفية: صفية هي بنت حبي بن أخطب بن سعيبة بن عامر بن عبيد بن كعب، من ذرية هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، وأمها برة بنت شموال من بني قريظة، وكانت تحت سلام بن مشكم القرظي ثم فارقتها، فتزوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضيري فقتل عنها يوم خيبر، وكانت في السبي فصارت إلى دحية، ثم صارت إلى النبي صلى الله عليه وسلم²، وفي خبر رواه البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر... قَالَ فَأَصْبَنَاهَا عَنْوَةً فَجُمِعَ السَّبِيُّ فَجَاءَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهُ أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنْ السَّبِيِّ قَالَ أَذْهَبَ فَخُذْ جَارِيَةً فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُبَيْبٍ فَجَاءَ رَجُلًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهُ أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُبَيْبٍ سَيِّدَةَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ قَالَ ادْعُوهُ بِهَا فَجَاءَ بِهَا فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ خُذْ جَارِيَةً مِنْ السَّبِيِّ غَيْرَهَا قَالَ فَأَعْتَقَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَزَوَّجَهَا فَقَالَ لَهُ ثَابِتٌ يَا أَبَا حَمْرَةَ مَا أَصَدَقَهَا قَالَ نَفْسَهَا أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ بِالطَّرِيقِ جَهَزْتَهَا لَهُ أُمَّ سُلَيْمٍ فَأَهْدَتْهَا لَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَأَصْبَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرُوسًا فَقَالَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَجِئْ بِهِ وَبَسَطَ نِطْعًا فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالتَّمْرِ وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالسَّمْنِ قَالَ وَأَحْسِبُهُ قَدْ ذَكَرَ السَّوْبِقُ قَالَ فَحَاسُوا حَيْسًا فَكَانَتْ وَلِيمَةً رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ³.

وقد اشتملت قصة خيبر على أحكام كثيرة: منها جواز قتال الكفار في أشهر الحرم، والإغارة على من بلغت الدعوة بغير إنذار، وقسمة الغنيمة على السهام، وأكل الطعام الذي يصاب من المشركين قبل القسمة لمن يحتاج إليه بشرط أن لا يدخره ولا يحوله، وأن مدد الجيش إذا حضر بعد انقضاء الحرب يسهم له إن رضي الجماعة كما وقع لجعفر والأشعريين، ولا يسهم لهم إذا لم يرضوا كما وقع لأبان بن سعيد وأصحابه، وتحريم متعة النساء، وجواز المساقاة والمزارعة، ويثبت عقد الصلح والتوثق من أرباب التهم، وأن من خالف من أهل الذمة ما شرط عليه انتقض عهده وهدر دمه، وأن من أخذ شيئاً من الغنيمة قبل القسمة لم يملكه ولو كان دون حقه، وأن الإمام مخير في أرض العنوة بين قسمتها وتركها، وجواز إجلاء أهل الذمة إذا استغنى عنهم، وجواز البناء بالأهل بالسفر، والأكل من طعام أهل الكتاب وقبول هديتهم⁴.

|||/سرية زيد بن حارثة بعد خيبر: روى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وغزوت مع ابن حارثة استعمله علينا⁵، وروى أبو مسلم الكجي عن أبي عاصم (وغزوت مع زيد بن حارثة سبع

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص568-569

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص536

³ - صحيح البخاري: كتاب: الصلاة، باب: ما يذكر في الفخذ، رقم: 371

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص568-569

⁵ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرات من جهته، رقم: 3739

غزوات يؤمره عليهما)، قال ابن حجر: وقد تتبع ما ذكره أهل المغازي من سرايا زيد بن حارثة فبلغت سبعا كما قاله سلمة، وإن كان بعضهم ذكر ما لم يذكره بعض، فأولها: في جمادى الآخرة سنة 5هـ قبل نجد في مائة راكب، والثانية: في ربيع الآخر سنة 6هـ إلى بني سليم، والثالثة: في جمادى الأولى منها في مائة وسبعين فتلقى عيرا لقريش وأسروا أبا العاص بن الربيع، والرابعة: في جمادى الآخرة منها إلى بني ثعلبة، والخامسة: إلى حُسمي في خمسمائة إلى أناس من بني جذام بطريق الشام كانوا قطعوا الطريق على دحية وهو راجع من عند هرقل، والسادسة: إلى وادي القرى، والسابعة: إلى ناس من بني فزارة، وكان خرج قبلها في تجارة فخرج عليه ناس من بني فزارة فأخذوا ما معه وضربوه فجهزه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فأوقع بهم وقتل أم قُرَفة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر زوج مالك بن حذيفة بن بدر عم عيينة بن حصن بن حذيفة وكانت معظمة فيهم، فيقال ربطها في ذنب فرسين وأجراها فتقطعت، وأسر بنتها وكانت جميلة، ولعل هذه الأخيرة هي مراد البخاري¹.

111111/غزوة مؤتة سنة ثمان

1/مكان الغزوة وتاريخها وسببها

***مكان الغزوة:** مؤتة: قال ابن إسحاق هي بالقرب من البلقاء، وقال غيره هي على مرحلتين من بيت المقدس من أرض الشام².
***تاريخ الغزوة:** في مغازي أبي الأسود عن عروة (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيش إلى مؤتة في جمادى من سنة 8هـ)، وذكر خليفة في تاريخه أنها كانت سنة 7هـ³.

***سبب الغزوة:** يقال بأن السبب فيها أن شرحبيل بن عمرو الغساني - وهو من أمراء قيصر على الشام - قتل الحارث بن عمير الأزدي، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه إلى عظيم بُصْرِي، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر فأوثقه رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه، فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم النبي صلى الله عليه وسلم عسكرياً في ثلاثة آلاف⁴، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب⁵.

2/عدة الجيش وأمرائه

***عدة جيش مؤتة:** جهز النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مؤتة، عسكرياً في ثلاثة آلاف⁶.

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص570

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص583

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص583

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص583

⁵ - علي بن برهان الدين الحلبي [975-1044هـ]: السيرة الحلبية السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة-بيروت، 1400هـ، [2/786]، وصفني الرحمن

المباركفوري: الرحيق المختوم، مصدر الكتاب: ملتقى أهل الحديث www.ahlalhdeth.com [ص359]

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص583

* /أمراء غزوة مؤتة: روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قُتِلَ زيدٌ فجعفرٌ وإن قُتِلَ جعفرٌ فعبد الله بن رواحة قال عبد الله كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية¹.

* /عدد وعدة جيش الروم: مضوا حتى نزلوا من أرض الشام فبلغهم أن هرقل ملك الروم في مائة ألف من الروم وانضم إليه من قبائل العرب أي المنتصرة من بني بكر ولخم وجذام مائة ألف وفي رواية كانوا مائتي ألف من الروم وخمسين ألفا من العرب ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك أقاموا في ذلك المحل ليلتين ينظرون في أمرهم هل يبعثون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بعدد عدوهم فإذا أن يمدهم برجال أو يأمرهم بأمر فيمضوا إليه، فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال لهم يا قوم والله إن الذي تكهون للذي خرجتم له خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به فإنما هي إحدى الحسين إما ظهور وإما شهادة فقال الناس صدق والله ابن رواحة فمضوا للقتال فلقيتهم جموع هرقل ملك الروم من الروم والعرب².

3/أحداث المعركة: في حديث عبد الله بن جعفر (فلقوا العدو فأخذ الراية زيد فقاتل حتى قتل، ثم أخذها جعفر)، وعند أبي داود عن رجل من بني مرة قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب حين اقتحم عن فرس له شقراء فعقر لها، ثم تقدم فقاتل فقطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره فاحتضن الراية فأخذ الراية وقاتل حتى قتل رضي الله تعالى عنه³، قال ابن إسحاق عن عروة: ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فالتوى بها بعض الالتواء ثم تقدم على فرسه ثم نزل فقاتل حتى قتل، وحينئذ اختلط المسلمون والمشركون وأراد بعض المسلمين الانهزام فجعل عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه يقول يا قوم يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا فأخذ الراية ثابت بن أرقم رضي الله تعالى عنه وقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فقالوا أنت فقال ما أنا بفاعل فاصطلح الناس على خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وروى الطبراني من حديث أبي اليسر الأنصاري قال: أنا دفعت الراية إلى ثابت بن أرقم لما أصيب عبد الله بن رواحة، فدفعها إلى خالد بن الوليد وقال له: أنت أعلم بالقتال مني⁴، فلما تسلم الراية خالد سمها النبي -صلى الله عليه وسلم- سيف الله، وقال (اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره)، فمن يومئذ سمي سيف الله، وفي حديث عبد الله بن جعفر (ثم أخذها سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليهم)، ووضع خالد بن الوليد خطة جديدة للقتال، وعند الواقدي من طريق عبد الله بن الحارث بن فضيل عن أبيه قال: (لما أصبح خالد بن الوليد جعل مقدمته ساقية، وميمينته ميسرة، فأنكر العدو حالهم وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا وانكشفوا منهزمين)، وفي معازي أبي الأسود عن

¹ -صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: غزوة مؤتة من أرض الشام، رقم: 4261

² -علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية [2/ 787-788]

³ -علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية [2/ 787-788]

⁴ -ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص584

عروة: فحمل خالد على الروم فهزمهم، وعند الواقدي من حديث جابر قال: أصيب بمؤتة ناس من المشركين وغنم المسلمون بعض أمتعة المشركين، وفي مغازي ابن عائد: أن خالدًا لما أخذ الراية قاتلهم قتالا شديدا حتى انحاز الفريقان عن غير هزيمة، وقفل المسلمون فمروا على طريقهم بقرية بها حصن كانوا في ذهابهم قتلوا من المسلمين رجلا فحاصروهم، حتى فتح الله عليهم عنوة، وقتل خالد بن الوليد مقاتلتهم، فسمي ذلك المكان نقيع الدم إلى اليوم، وذكر موسى بن عقبة في المغازي أن يعلى بن أمية قدم بخبر أهل موتة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرك، قال فأخبرني، فأخبره خبرهم، فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفا لم تذكره)، وعند الطبراني من حديث أبي اليسر الأنصاري (أن أبا عامر الأشعري هو الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بمصائبهم)¹، وكانت مدة القتال سبعة أيام².

وفي الحديث جواز الإعلام بموت الميت ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه، وفيه جواز تعليق الإمامة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب، وقد اختلف هل تنعقد الولاية الثانية في الحال أو لا؟ والذي يظهر أنها في الحال تنعقد، ولكن بشرط الترتيب، وقيل تنعقد لواحد لا بعينه، وتتعين لمن عينها الإمام على الترتيب، وقيل: تنعقد للأول فقط، وأما الثاني فبطريق الاختيار، واختيار الإمام مقدم على غيره لأنه أعرف بالمصلحة العامة، وفيه جواز التأمير في الحرب بغير تأمير، قال الطحاوي: هذا أصل يؤخذ منه أن على المسلمين أن يقدموا رجلا إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر، وفيه جواز الاجتهاد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه علم ظاهر من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لخالد بن الوليد ولمن ذكر من الصحابة³.

سرية أسامة بن زيد بعد مؤتة: روى البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما يقول بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحُرقة فصَبَحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِثْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا عَشِينَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ فَطَعَنَتْهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُلْتُ كَانَ مُتَعَوِّدًا فَمَا زَالَ يُكْرِمُهَا حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَبِي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ⁴.

الحُرقة بطن من جهينة، قال ابن الكلبي: سموا بذلك لوقعة كانت بينهم وبين بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان فأحرقوهم بالسهم لكثرة من قتلوا منهم، وهذه السرية يقال لها سرية غالب بن عبيد الله الليثي وكانت في رمضان سنة سبع فيما ذكره ابن سعد، وكذا ذكره ابن إسحق في المغازي عن شيخ من أسلم عن رجال من قومه قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبيد الله الكلبي ثم الليثي إلى أرض بني مرة وبها مرداس بن نهيك حليف لهم من بني الحُرقة فقتله أسامة، فهذا يبين السبب في قول أسامة: بعثنا إلى الحُرقات من جهينة، وليس فيه تصريح بأن أسامة كان الأمير، وإن كان هو الأمير، وكانت الغزوة

¹ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص586-587

² علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية [2/ 787-788]

³ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص586

⁴ صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحُرقات من جهينة، رقم: 4269

سنة سبع أو ثمان فما كان أسامة يومئذ إلا بالغا لأنهم ذكروا أنه كان له لما مات النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر عاما¹، وقد ذكر أهل المغازي سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميِّقعة، وهي وراء بطن نخل، وذلك في رمضان سنة سبع، وقالوا: إن أسامة قتل الرجل في هذه السرية، فإن ثبت أن أسامة كان أمير الجيش فالذي صنعه البخاري هو الصواب لأنه ما أمر إلا بعد قتل أبيه بغزوة موتة وذلك في رجب سنة ثمان، وإن لم يثبت أنه كان أميرها رجع ما قال أهل المغازي².

الغزوة إلى عبيدة إلى سيف البحر:

1/ مكان الغزوة: كانت إلى ساحل البحر، وذكر ابن سعد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثهم إلى حي من جهينة بالقبلية مما يلي ساحل البحر، بينهم وبين المدينة خمس ليال، وأنهم انصرفوا ولم يلقوا كيدا، وهذا لا يغير ظاهره ما في الصحيح لأنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيرا لقريش ويقصدون حيا من جهينة³.

2/ سببها: خرجوا يتلقون عير لقريش، وفي الرواية الثانية في الباب قال فيها نرصد عير قريش، وذكر ابن سعد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثهم إلى حي من جهينة بالقبلية مما يلي ساحل البحر، ويمكن الجمع بينهما لما عند مسلم عن جابر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا إلى أرض جهينة فذكر هذه القصة، وقع عند مسلم من حديث عن جابر بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر علينا أبا عبيدة فتلقينا لقريش وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره وكان أبو عبيدة يعطينا تمرًا تمرًا⁴.

3/ تاريخ الغزوة: ذكر البخاري غزوة سيف البحر مع أبي عبيدة بن الجراح أنها كانت قبل فتح مكة بمدة، وكانت ذلك في رجب سنة ثمان، لكن تلقى عير قريش ما يتصور أن يكون في الوقت الذي ذكره بن سعد في رجب سنة ثمان لأنهم كانوا حينئذ في الهدنة، بل مقتضى ما في الصحيح أن تكون هذه السرية في سنة ست أو قبلها قبل هدنة الحديبية، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم بل لحفظهم من جهينة، ولهذا لم يقع في شيء من طرق الخبر أنهم قاتلوا أحدا بل فيه أنهم قاموا نصف شهر أو أكثر في مكان واحد⁵.

4/ عدد الجيش في هذه الغزوة: روى البخاري في كتاب الجهاد من طريق هشام بن عروة عن وهب بن كيسان خرجنا ونحن ثلاثمائة نحمل زادنا على رقابنا ففني زادنا حتى كان الرجل منا يأكل كل يوم تمرًا⁶.

¹- ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص202-203

²- ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص591

³- ابن حجر العسقلاني:فتح الباري، ج7، ص678

⁴- ابن حجر العسقلاني:فتح الباري، ج7، ص678-679

⁵- ابن حجر العسقلاني:فتح الباري، ج7، ص679

⁶- ابن حجر العسقلاني:فتح الباري، ج7، ص679

5/ قصة الغزوة: روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً قيل السَّاحِلِ فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَأَنَا فِيهِمْ فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فِي الرِّزْدِ فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ فَكَانَ مِرْوَدِي تَمْرٍ فَكَانَ يُقَوِّئُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى فِيَّ فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ فَعُلْتُ وَمَا تُعْجِي تَمْرَةٌ فَقَالَ لَقَدْ وَجَدْنَا قُفْدَهَا حِينَ فَنَيْتَ قَالَ ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الظَّرْبِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضَلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنُصِبَا ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرَحِلْتُ ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصِبهُمَا¹، وروى مسلم عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصَّامِتِ قَالَ خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا... ثُمَّ مَضَيْنَا حَتَّى أَتَيْنَا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي مَسْجِدِهِ... وَشَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجُوعَ فَقَالَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يُطْعِمَكُمْ فَأَتَيْنَا سَيْفَ الْبَحْرِ فَرَحَرَ الْبَحْرُ زَخْرَةً فَأَلْقَى دَابَّةً فَأَوْرَيْنَا عَلَى شِقِّهَا النَّارَ فَاطْبَخْنَا وَاشْتَوَيْنَا وَأَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا قَالَ جَابِرٌ فَدَخَلْتُ أَنَا وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ حَتَّى عَدَّ خَمْسَةً فِي حِجَاجِ عَيْنَيْهَا مَا يَرَانَا أَحَدٌ حَتَّى خَرَجْنَا فَأَخَذْنَا ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَقَوَّسْنَاهُ ثُمَّ دَعَوْنَا بِأَعْظَمِ رَجُلٍ فِي الرِّكْبِ وَأَعْظَمِ جَمَلٍ فِي الرِّكْبِ وَأَعْظَمِ كَفَلٍ فِي الرِّكْبِ فَدَخَلَ تَحْتَهُ مَا يُطَأُّ رَأْسُهُ².

ب/ غزوة فتح مكة سنة 8هـ

1/ سبب الغزوة وتاريخها والاستعداد السري لها

1/ سبب الغزوة: كان سبب ذلك أن قريشا نقضوا العهد الذي وقع بالحديبية، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فغزاهم، قال ابن إسحاق كان في الشرط: من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل، فدخلت بنو بكر ابن عبد مناة بن كنانة في عهد قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن إسحاق: فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر في بني الدليل حتى بيت خزاعة على ماء لهم يقال له الوتير، فأصاب منهم رجلا يقال له منبه، واستيقظت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ولم يتركوا القتال، وأمادت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل بعضهم معهم ليلا في خفية، فلما انقضت الحرب خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد فقال:

يا رب إني ناشد محمدا... حلف أبينا وأبيه الأتلا

فانصر هداك الله نصرنا أيذا... وادع عباد الله يأتوا مددا

إن قريشا أخلفوك الموعدا... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيوتنا بالوتير هجدا... وقتلونا ركعا وسجدا

¹ - كتاب المغازي، باب: غزوة سيف البحر، رقم: 4360

² - كتاب الزهد والرفائق، باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم: 5328.

وزعموا أن لست أدعو أحدا... وهم أذل وأقل عددا

قال ابن إسحاق: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نصرت يا عمرو بن سالم، فكان ذلك ما هاج فتح مكة، ويذكرون أن ممن أعانهم من قريش صفوان بن أمية وشيبة بن عثمان وسهل بن عمرو¹.

2/ تاريخ غزوة الفتح: لا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم استهل رمضان في عام غزوة الفتح وهو بالمدينة ثم سافر في أثنائه، والذي اتفق عليه أهل السير أنه خرج في عاشر رمضان ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه²، سنة ثمان من الهجرة، وأنه صلى الله عليه وسلم استعمل على المدينة أبا رهم الغفاري³.

3/ الاستعداد السري لفتح مكة: جاء في مرسل أبي سلمة عند ابن أبي شيبة: ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة جهزيني ولا تعلمي بذلك أحدا، فدخل عليها أبو بكر فأنكر بعض شأنها فقال: ما هذا؟ فقالت له، فقال: والله ما انقضت الهدنة بيننا، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فذكر له أنهم أول من غدر، ثم أمر بالطرق فحبست فعمي على أهل مكة لا يأتيهم خبر⁴، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها أي أوهم غيرها والتورية أن يذكر لفظا يحتمل معنيين أحدهما أقرب من الآخر فيوهم إرادة القريب وهو يريد البعيد، وزاد أبو داود عن الزهري وكان يقول الحرب خدعة⁵.

11/ كتاب حاطب لقريش: روى البخاري عن عبيد الله بن أبي رافع يقول سمعت عليا رضي الله عنه يقول بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا والزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوا منها قال فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالطعينة فلنا لها أخرجي الكتاب قالت ما معي كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب قال فأخرجته من عقاصها فأتيتنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حاطب ما هذا قال يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرأ مخلصا في قريش يقول كنت حليفا ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتحذ عندهم يدا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقكم فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله أطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص592-593

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج4، ص214

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص595

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص593

⁵ - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 117]

السُّورَةَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ إِلَى قَوْلِهِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ¹.

وعند ابن إسحاق عن عروة قال: فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بذلك، ثم أعطاه امرأة من مزينة² اسمها سارة، وقال الواقدي اسمها كنود، وذكر الواقدي أن حاطبا جعل لها عشرة دنانير على ذلك، وقيل: دينار واحد، وقيل: إنها كانت مولاة العباس، قال السهيلي: كان حاطب حليفا لعبد الله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبد العزى، واسم أبي بلتعة عمرو، وقيل: كان حليفا لقريش، وذكر بعض أهل المغازي أن لفظ الكتاب: أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام، وروى الواقدي أن حاطبا كتب إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد)³.

111/ خروج أبو سفيان إلى المدينة لتمديد الصلح: في رواية ابن عائد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يغز رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا حتى بعث إليهم ضمرة يخبرهم بين إحدى ثلاث: أن يودوا قتييل خزاعة، وبين أن يبرءوا من حلف بكر، أو ينبذ إليهم على سواء، فأتاهم ضمرة فخيرهم، فقال قرظة بن عمرو: لا نودي ولا نبرأ، ولكننا ننبد إليه على سواء، فانصرف ضمرة بذلك، فأرسلت قريش أبا سفيان يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تجديد العهد، وفي مغازي عروة عند ابن إسحاق وابن عائد: فخافت قريش، فانطلق أبو سفيان إلى المدينة فقال لأبي بكر: جدد لنا الحلف، قال: ليس الأمر إلي، ثم أتى عمر فأغلظ له عمر، ثم أتى فاطمة فقالت له: ليس الأمر إلي، فأتى عليا فقال: ليس الأمر إلي، فقال: ما رأيت كاليوم رجل أضل-أي من أبي سفيان-أنت كبير الناس، فجدد الحلف، قال: فضرب إحدى يديه على الأخرى وقال: قد أجزت بين الناس، ورجع إلى مكة فقالوا له: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا بصلح فنأمن⁴.

1111/ أحداث غزوة الفتح ونتائجها

1/ أحداث غزوة الفتح في صحيح البخاري: روى البخاري عن هشام عن أبيه قال لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فبلغ ذلك قريشا خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فإذا هم بينان كأنها نيران عرفة فقال أبو سفيان ما هذه لكأنتها نيران عرفة فقال بديل بن ورقاء نيران بني عمرو فقال أبو سفيان عمرو أقل من ذلك فراهم ناس من حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركوهم

¹- صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة الفتح وما بعث به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، رقم: 4269

²- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص593

³- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص594

⁴- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص598-599

فَأَخَذُوهُمْ فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ فَلَمَّا سَارَ قَالَ لِلْعَبَّاسِ أَحِبْسِنِ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الْحَيْلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ فَجَعَلَتْ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ فَمَرَّتْ كَتِيبَةً قَالَ يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِهِ قَالَ هَذِهِ غِفَارُ قَالَ مَا لِي وَلِغِفَارٍ ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُدَيْمٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ وَمَرَّتْ سُلَيْمٌ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةً لَمْ يَرِ مِثْلَهَا قَالَ مَنْ هَذِهِ قَالَ هُوَ لَاءِ الْأَنْصَارِ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ مَعَهُ الرَّايَةُ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ يَا أَبَا سُفْيَانَ يَا عَبَّاسُ حَبَدًا يَوْمَ الذَّمِّ ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةً وَهِيَ أَقْلُ الْكَتَائِبِ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ وَرَايَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأبي سُفْيَانَ قَالَ أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ قَالَ مَا قَالَ قَالَ كَذَا وَكَذَا فَقَالَ كَذَبَ سَعْدُ وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعْظَمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةُ وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ قَالَ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُرَكَّزَ رَايَتُهُ بِالْحُجُونِ قَالَ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ مِنْ كَدَاءٍ وَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَدَاءٍ فَفُتِلَ مِنْ خَيْلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ رَجُلَانِ حُبَيْشُ بْنُ الْأَشْعَرِ وَكُرْزُ بْنُ جَابِرِ الْفَهْرِيِّ¹.

وكان دخول خالد من أسفل مكة والنبي صلى الله عليه وسلم من أعلاها، وضربت له هناك قبة، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم².

2/ نتائج الغزوة

* /خسائر المسلمين: قتل من خيل خالد بن الوليد رضي الله عنه يومئذ رجلان: حبيش ابن الأشعر واسمه خالد بن سعد بن منقذ بن ربيعة بن أخزم الحزاعي، وهو أخو أم معبد التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم مهاجرا، وكُرْزُ بْنُ جَابِرِ بْنِ حَسْبَلِ بْنِ الْأَحْبَبِ بْنِ حَبِيبِ الْفَهْرِيِّ، وكان من رؤساء المشركين، وهو الذي أغار على سرح النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر الأولى، ثم أسلم قديما، وبعثه النبي صلى الله عليه وسلم في طلب العزنيين، وذكر ابن إسحاق أن هذين الرجلين سلكا طريقا فشذا عن عسكر خالد فقتلها المشركون يومئذ، وذكر ابن إسحاق أن أصحاب خالد لقوا ناسا من قريش، منهم سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية كانوا تجمعوا بالخدمة مكان أسفل مكة ليقاتلوا المسلمين، فناوشوهم شيئا من القتال، فقتل من خيل خالد مسلمة بن الميلاء الجهني، وقتل من المشركين اثنا عشر رجلا أو ثلاثة عشر وانهموا³.

¹ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح، رقم: 4280

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص603

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص603

***خسائر المشركين:** عند موسى بن عقبة: واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة وقد تجمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالدًا فقاتلهم، فانهزموا وقتل من بني بكر نحو عشرين رجلاً ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا في الدور، وارتفعت طائفة منهم على الجبال، وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه وكف يده فهو آمن، قال: ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البارقة فقال: ما هذا وقد نُهيت عن القتال؟ فقالوا: نظن أن خالدًا قوتل وبدئ بالقتال فلم يكن له بد من أن يقاتل، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن لخالد بن الوليد: لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟ فقال: هم بدأونا بالقتال ووضعوا فينا السلاح، وقد كففت يدي ما استطعت، فقال: قضاء الله خير، وذكر ابن سعد أن عدة من أصيب من الكفار أربعة وعشرون رجلاً، ومن هذيل خاصة أربعة، وقيل مجموع من قتل منهم ثلاثة عشر رجلاً، وروى الطبراني من حديث ابن عباس قال: وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أمراءه أن لا يقتلوا إلا من قاتلهم، غير أنه أهدر دم نفر سماهم، وهم: عبد العزى بن حنظل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد بنون وقاف مصغر، ومقيس بن صبابه وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن حنظل كانتا تغنيان بهجو النبي صلى الله عليه وسلم، وسارة مولاة بني المطلب وهي التي وجد معها كتاب حاطب، فأما ابن أبي سرح فكان أسلم ثم ارتد ثم شفع فيه عثمان يوم الفتح إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحقن دمه وقبل إسلامه، وأما عكرمة ففر إلى اليمن فتبعته امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فرجع معها بأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الحويرث فكان شديد الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فقتله علي يوم الفتح، وأما مقيس بن صبابه فكان أسلم ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، وكان الأنصاري قتل أخاه هشامًا خطأً، فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتل الأنصاري ثم ارتد، فقتله نميلة بن عبد الله يوم الفتح، وأما هبار فكان شديد الأذى للمسلمين وعرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجرت فنخس بغيرها فأسقطت، ولم يزل ذلك المرض بها حتى ماتت، فلما كان يوم الفتح بعد أن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه أعلن بالإسلام فقبل منه فعفا عنه، وأما القينتان فاسمهما فرتي وقرينة، فاستؤمن لإحدهما فأسلمت وقتلت الأخرى، وأما سارة فأسلمت وعاشت إلى خلافة عمر، وقال الحميدي: بل قتلت، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلائع الخزاعي قتله علي، وذكر غير ابن إسحاق أن فرتي هي التي أسلمت وأن قرينة قتلت، وذكر الحاكم أيضًا ممن أهدر دمه كعب بن زهير، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان وقد أسلمت، وأرنب مولاة ابن حنظل أيضًا قتلت، وأم سعد قتلت فيما ذكر ابن إسحاق فكمملت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد هما القينتان اختلف في اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب¹.

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 603-605

***تحطيم الأصنام:** روى البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاث مائة نُصبٍ فجعل يطعنُها بعودٍ في يده ويقولُ جاء الحقُّ وزهق الباطلُ جاء الحقُّ وما يُبدي الباطلُ وما يُعيد¹.

***عفو النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الطلقاء:** روى عبد الرزاق والطبراني عن الزهري: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعثمان بن طلحة يوم الفتح: ائتني بمفتاح الكعبة، فأبطأ عليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ويقول: ما يجسه؟ فسعى إليه رجل، وجعلت المرأة التي عندها المفتاح وهي أم عثمان واسمها سلافة بنت سعيد تقول: إن أخذه منكم لا يعطيكموه أبدا، فلم يزل بها حتى أعطت المفتاح، فجاء به ففتح، ثم دخل البيت، ثم خرج فجلس عند السقاية فقال علي: إنا أعطينا النبوة والسقاية والحجابه، ما قوم بأعظم نصيبا منا، فكره النبي صلى الله عليه وسلم مقالته، ثم دعا عثمان بن طلحة فدفع المفتاح إليه، وروى ابن عائد عن عبد الرحمن بن سابط أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان فقال: خذها خالدة مخلدة، إني لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم، ولا ينزعها منكم إلا ظالم، وروى ابن إسحاق عن صفية بنت شيبة قالت: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتح له فدخلها، ثم وقف على باب الكعبة فخطب، قال ابن إسحاق: ثم قال يا معشر قريش، ما ترون إني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء².

***مدة بقاء النبي -ص- بمكة بعد الفتح:** فأقام عام الفتح بمكة نصف شهر ولم يزد على ذلك، حتى أتاه أن هوازن وثقيفا قد نزلوا حنينا يريدون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم³، فخرج إلى حنين.

***فتح مكة بين الصلح والعمرة:** وقد اختلف في هذا الفتح هل هو صلحا أو عمرة، فمنهم من قال إن مكة فتحت عمرة وهو قول الأكثر، وعن الشافعي ورواية عن أحمد أنها فتحت صلحا لما وقع هذا التأمين، ولإضافة الدور إلى أهلها، ولأنها لم تقسم، ولأن الغانمين لم يملكوا دورها وإلا لجاز إخراج أهل الدور منها، وحجة الأولين ما وقع من التصريح من الأمر بالقتال ووقوعه من خالد بن الوليد، وبتصريحه صلى الله عليه وسلم بأنها أحلت ساعة من نهار، ونهيه عن التأسى به في ذلك، وأجابوا عن ترك القسمة بأنها لا تستلزم عدم العمرة فقد تفتح البلد عمرة ويمن على أهلها ويترك لهم دورهم وغنائمهم، لأن قسمة الأرض المغنومة ليست متفقا عليها، بل الخلاف ثابت عن الصحابة فمن بعدهم، وقد فتحت أكثر البلاد عمرة فلم تقسم وذلك في زمن عمر وعثمان مع وجود أكثر الصحابة، وقد زادت مكة عن ذلك بأمر يمكن أن يدعي اختصاصها به دون بقية البلاد، وهي أنها دار النسك ومتعبد الخلق، وقد جعلها الله تعالى حرما سواء العاكف فيه والباد، وأما قول النووي احتج الشافعي بالأحاديث المشهورة بأن النبي صلى الله عليه وسلم صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة ففيه نظر، لأن الذي أشار إليه إن كان مراده ما وقع له من قوله صلى الله عليه وسلم: (من

¹ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح، رقم: 4287

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 612

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج 7/621-622]

دخل دار أبي سفيان فهو آمن وكذا من دخل المسجد)، كما عند ابن إسحاق فإن ذلك لا يسمى صلحا إلا إذا التزم من أشير إليه بذلك الكف عن القتال، والذي ورد في الأحاديث الصحيحة ظاهر في أن قريشا لم يلتزموا ذلك لأنهم استعدوا للحرب، وإن كان مراده بالصلح وقوع عقد به فهذا لم ينقل ولا أظنه عنى إلا الاحتمال الأول، وفي ذلك تصريح بعموم التأمين، فكان هذا أمانا منه لكل من لم يقاتل من أهل مكة، فمن ثم قال الشافعي: كانت مكة مأمونة ولم يكن فتحها عنوة، والأمان كالصلح، وأما الذين تعرضوا للقتال أو الذين استثنوا من الأمان وأمر أن يقتلوا ولو تعلقوا بأستار الكعبة فلا يستلزم ذلك أنها فتحت عنوة، ويمكن الجمع بين حديث أبي هريرة في أمره صلى الله عليه وسلم بالقتال وبين حديث الباب في تأمينه صلى الله عليه وسلم لهم بأن يكون التأمين علق بشرط وهو ترك قريش المجاهرة بالقتال، فلما تفرقوا إلى دورهم ورضوا بالتأمين المذكور لم يستلزم أن أوياهم الذين لم يقبلوا ذلك وقاتلوا خالد بن الوليد ومن معه فقاتلهم حتى قتلهم وهزمهم أن تكون البلد فتحت عنوة، لأن العبرة بالأصول لا بالاتباع وبالأكثر لا بالأقل، ولا خلاف مع ذلك أنه لم يجر فيها قسم غنيمة ولا سبي من أهلها ممن باشر القتال أحد، وهو مما يؤيد قول من قال لم يكن فتحها عنوة، وجنحت طائفة - منهم الماوردي - إلى أن بعضها فتح عنوة لما وقع من قصة خالد بن الوليد المذكورة، والحق أن صورة فتحها كان عنوة ومعاملة أهلها معاملة من دخلت بأمان¹.

*إقبال قبائل العرب على الإسلام بعد الفتح: روى البخاري عن أبي قلابة قال وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَلَوُّمَ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ فَيَقُولُونَ اتْرَكُوهُ وَقَوْمُهُ فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ جِئْتُمْكَمُ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقًّا فَقَالَ صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينَ كَذَا وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينَ كَذَا فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّدْ أَحَدُكُمْ وَلْيُؤَمِّمْكُمْ أَكْثَرَكُمْ فُرَانًا فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ فُرَانًا مِنِّي لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّجْبَانِ فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصْتُ عَنِّي فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْحَيِّ أَلَا تُعْطُوا عَنَّا اسْتَفَارِكُمْ فَاشْتَرَوْا فَفَطَعُوا لِي فَمِيصًا فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرِحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ².

قال بن القيم اقتضت حكمة الله أن فتح مكة كان سببا لدخول كثير من قبائل العرب في الإسلام وكانوا يقولون دعوه وقومه فإن غلبهم دخلنا في دينه وأن غلبوه كفونا أمره فلما فتح الله عليه استمر بعضهم على ضلاله فجمعوا له وتأهبوا لحربه وكان من الحكمة في ذلك أن يظهر أن الله نصر رسوله لا بكثرة من دخل في دينه من القبائل ولا بانكفاف قومه عن قتاله ثم لما قدر الله عليه من غلبته إياهم³.

د/أحداث وتشريعات وفرائض هذه المرحلة

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 605-606

² - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة زمن الفتح، رقم: 4302

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج 7، ص 645

1/إرسال الكتب إلى الملوك: في السنة السابعة بعد الهجرة قرر الرسول -ص- اصطناع سياسة خارجية ترمي إلى نشر الدعوة الإسلامية خارج نطاق دولته في المدينة، فأرسل مبعوثين عنه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، وبعث الرسل كان بعد الهدنة سنة سبع¹، وجزم بن سعد بأن بعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى كان في سنة سبع في زمن الهدنة، وهو عند الواقدي من حديث الشفاء بنت عبد الله بلفظ منصرفه من الحديبية²، فأرسل في يوم واحد ستة مبعوثين فبعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى، وسليط بن عمرو إلى هوزة بن علي باليمامة، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي بهجر، وعمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجلندی بعمان، ودحية إلى قيصر، وشجاع بن وهب إلى بن أبي شمر الغساني، وعمرو بن أمية إلى النجاشي، فرجعوا جميعا قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم غير عمرو بن العاص، وزاد أصحاب السير أنه بعث المهاجرين أبي أمية بن الحارث بن عبد كلال وجريرا إلى ذي الكلاع، والسائب إلى مسيلمة وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، وفي حديث أنس عند مسلم أن النجاشي الذي بعث إليه مع هؤلاء غير النجاشي الذي أسلم³، أما عبد الله بن حذافة السهمي فدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى وعظيم البحرين هو المنذر بن ساوي وكسرى هو أبرويز بن هرمز⁴، فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه⁵، ذكر بن سعد أنه قال فقرأ عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذه فمزقه، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يمزقوا كل ممزق أي يتفروقا ويتقطعوا، وفي حديث عبد الله بن حذافة فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم مزق ملكه، وكتب إلى باذان عامله على اليمن ابعث من عندك رجلين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز فكتب باذان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه في هذه الليلة، قال وكان ذلك ليلة الثلاثاء لعشر ماضين من جمادى الأولى سنة سبع، وإن الله سلط عليه ابنه شيرويه فقتله، فلما بلغ باذان أسلم هو ومن معه من الفرس⁶، وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هؤلاء فيمزقون وأما هؤلاء فستكون لهم بقية⁷، أما شجاع بن وهب الأسدي الذي أرسله إلى أمير غسان الحارث بن أبي شمر الغساني، فقد أخرج ابن سعد من طريق الواقدي عن شيوخه قالوا بعث رسول الله {صلى الله عليه وسلم} شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وكتب معه كتابا قال شجاع فأنتهيت إليه وهو بغوطة دمشق فأتيت حاجبه فقلت إني رسول رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فقال لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا وجعل حاجبه وكان رجلا روميا اسمه مري يسألني عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فكنت أحدثه عن صفته وما يدعو إليه فيرق حتى يغلبه البكاء

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص733

² - ابن حجر: فتح الباري، [ج7، ص734]

³ - ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379، [ج8/ 128]

⁴ - ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379، [ج1/ 251]

⁵ - ابن حجر: فتح الباري، [ج1/ 44]

⁶ - فتح الباري - ابن حجر [ج7، ص734]

⁷ - ابن حجر: فتح الباري، [ج1/ 44]

ويقول إني قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي بعينه فأنا أؤمن به وأصدق وأخاف من الحارث أن يقتلني وخرج الحارث فجلس ووضع التاج على رأسه فدفعت إليه الكتاب فقرأه ثم رمى به وقال من ينتزع مني ملكي أنا سائر إليه ولو كان باليمن جثته علي بالناس فلم يزل يعرض حتى قام وأمر بالخليل تنعل ثم قال أخبر صاحبك ما ترى وكتب إلى قيصر يخبره فكتب إليه قيصر أن لا تسر إليه واله عنه فلما جاءه كتاب قيصر دعاني فقال متى تخرج قلت غدا فأمر لي بمائة مثقال ذهب وقال اقرأ على رسول الله { صلى الله عليه وسلم } مني السلام فقدمت على رسول الله { صلى الله عليه وسلم } فأخبرته فقال (باد ملكه فمات الحارث عام الفتح)¹.

2/ قدوم الأشعريين وأهل اليمن عقب فتح خيبر سنة سبع²: روى البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال قدمْتُ أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً ما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل البيت من كثرة دخولهم ولزومهم له³.

قال ابن حجر: كان قدوم أبي موسى على النبي صلى الله عليه وسلم عند فتح خيبر لما قدم جعفر بن أبي طالب وقيل إنه قدم عليه بمكة قبل الهجرة ثم كان ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى ثم قدم الثانية صحبة جعفر والصحيح أنه خرج طالبا المدينة في سفينة فألقتهم الريح إلى الحبشة فاجتمعوا هناك بجعفر ثم قدموا صحبته⁴، وقوله وأهل اليمن بعد الأشعريين المراد بهم بعض أهل اليمن وهم وفد حمير، في كتاب الصحابة لابن شاهين من طريق إياس بن عمير الحميري أنه قدم وافدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من حمير، فقالوا آتيناك لتتفقه في الدين، وحاصله أن الترجمة مشتملة على طائفتين وليس المراد اجتماعهما في الوفادة فإن قدوم الأشعريين كان مع أبي موسى في سنة سبع عند فتح خيبر وقدوم وفد حمير في سنة تسع وهي سنة الوفود، ولاجل هذا اجتمعوا مع بني تميم⁵، روى البخاري: في باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، قال: وَقَالَ أَبُو مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ⁶، وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا كُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرْقُ أَفْئِدَةً وَأَلْبِنُ قُلُوبًا الْإِيمَانَ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةَ يَمَانِيَّةً وَالْفَخْرَ وَالْحَيْلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ وَالسَّكِينَةَ وَالْوَقَارُ فِي أَهْلِ الْعَنَمِ⁷.

3/ إسلام عمرو بن العاص: بن وائل السهمي الصحابي المشهور الصحابي المشهور أسلم عام الحديبية وولي إمرة مصر مرتين وهو الذي فتحها، مات بمصر سنة نيف وأربعين وقيل بعد الخمسين⁸.

¹ - أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي: الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية - بيروت - 1405هـ/1985م، [2/ 19-20]

² - فتح الباري، ج7، ص701

³ - كتاب المغازي، باب: قدوم الأشعريين وأهل اليمن، رقم: 4384.

⁴ - فتح الباري، ج7، ص700

⁵ - فتح الباري، ج7، ص701

⁶ - كتاب المغازي، باب: قدوم الأشعريين وأهل اليمن

⁷ - كتاب المغازي، باب: قدوم الأشعريين وأهل اليمن، رقم: 4388.

⁸ - المباركفوري أبو العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، [ج10/ 231]

4/إسلام خالد بن الوليد سنة ثمان: هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ابن مرة بن كعب يجتمع مع النبي ومع أبي بكر جميعا في مرة بن كعب، وكان من فرسان الصحابة أسلم بين الفتح والحديبية ويقال قبل غزوة مؤتة بشهرين، وشهد مع رسول الله مشاهد ظهرت فيها نجابته ثم كان قتل أهل الردة على يديه، ثم فتوح البلاد الكبار ومات على فراشه بمصر وقيل بالمدينة والأول أصح سنة إحدى وعشرين¹.

11/تشريعات هذه المرحلة [عمرة القضاء]

1/تعريف عمرة القضاء وتاريخها

*/تعريفها: اختلف في سبب تسميتها عمرة القضاء، فقيل: المراد ما وقع من المقاضاة بين المسلمين والمشركين من الكتاب الذي كتب بينهم بالحديبية، فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الصلح، ولذلك يقال لها عمرة القضية، قال أهل اللغة: قاضي فلانا عاهده، وقاضاه عاوضه، فيحتمل تسميتها بذلك لأمرين قاله عياض، ويرجح الثاني تسميتها قصاصا قال الله تعالى: (والحرقات قصاص)، قال السهيلي: تسميتها عمرة القصاص أولى لأن هذه الآية نزلت فيها، وقال: سميت عمرة القضاء لأنه قاضي فيها قريشا، لا لأنها قضاء عن العمرة التي صد عنها، لأنها كانت عمرة تامة، ولهذا عدوا عمر النبي صلى الله عليه وسلم أربعاً، وقال آخرون: بل كانت قضاء عن العمرة الأولى، وعدت عمرة الحديبية في العمر لثبوت الأجر لا لأنها كملت، وهذا الخلاف مبني على الاختلاف في وجوب القضاء على من اعتمر فصد عن البيت²، قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان، قال وتسمى أيضا عمرة الصلح، فتحصل من أسمائها أربعة: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح³.

2/تاريخ عمرة القضاء: قال ابن إسحاق: خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة مثل الشهر الذي صد فيه المشركون معتمرا عمر القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها، وكذلك ذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب، وأبو الأسود عن عروة وسليمان التيمي جميعا في مغازيهم أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى عمرة القضاء في ذي القعدة، وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه عن ابن عمر قال: (كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع)، وفي مغازي سليمان التيمي (لما رجع من خيبر بث سراياه وأقام بالمدينة

¹ - بدر الدين العيني الحنفي: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، صدر الكتاب : ملفات وورد من ملتقى أهل الحديث،

<http://www.ahlalhddeeth.com> [ج24/ 394]

² - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص571

³ - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص572

حتى استهل ذو القعدة فنأدى في الناس أن تجهزوا إلى العمرة)، وقال ابن إسحاق: خرج معه من كان صد في تلك العمرة إلا من مات أو استشهد¹.

2/ عدد وعدة المسلمين في عمرة القضاء ومدتها

* /عدد وعدة المسلمين في عمرة القضاء: ذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب أنه صلى الله عليه وسلم خرج مستعدا بالسلاح والمقاتلة خشية أن يقع من قريش غدر فبلغهم ذلك ففزعوا، فلقية مكرز فأخبره أنه باق على شرطه وأن لا يدخل مكة بسلاح إلا السيوف في أغمادها، وإنما خرج في تلك الهيئة احتياطا فوثق بذلك، وأخر النبي صلى الله عليه وسلم السلاح مع طائفة من أصحابه خارج الحرم حتى رجع، قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان².

* /احترام النبي-صلى الله عليه وسلم- لبود الصلح أثناء العمرة: روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال لما اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام ... فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه وأن لا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليا فقالوا قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فتبعته ابنة حمزة تُنادي يا عم يا عم فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام دونك ابنة عمك حملتها فاختصم فيها علي ورئد وجعفر... فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها وقال الخالة بمنزلة الأم³.

خصائص ومميزات المرحلة المدنية الرابعة [8-11هـ]

أولا: الغزوات والسرايا في هذه المرحلة

أ/ سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بعد فتح مكة

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص572

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص572

³ - صحيح البخاري: كتاب: الصلاة، باب: عمرة القضاء، رقم: 4251

1/مكان السرية: بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وكانوا بأسفل مكة من ناحية يلملم.

2/تاريخ السرية: هذا البعث كان عقب فتح مكة في شوال قبل الخروج إلى حنين عند جميع أهل المغازي¹.

3/عدد الجيش: قال ابن سعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم خالد بن الوليد في ثلاثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار داعيا إلى الإسلام لا مقاتلا².

4/أحداث الغزوة في البخاري: روى البخاري: عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ صَبَانًا صَبَانًا فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِّنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ أَمْرٍ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِّنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِّنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَاهُ فَرَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ³.

قال بن إسحاق قال أبي جعفر الباقر: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة إلى بني جذيمة داعيا ولم يبعثه مقاتلا، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبانًا صبانًا، يدل على أنهم أرادوا الإسلام حقيقة، وأن قريشا كانوا يقولون لكل من أسلم صبا حتى اشتهرت هذه اللفظة وصاروا يطلقونها في مقام الدم، ومن ثم لما أسلم ثامة بن أثال وقدم مكة معتمرا قالوا له صبأت قال لا بل أسلمت، فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضع أسلمت استعملها هؤلاء، وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها لأن قولهم صبانًا أي خرجنا من دين إلى دين ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام، وقال الخطابي يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولا قولهم، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، وفي كلام ابن سعد أنه أمرهم أن يستأسروا فاستأسروا فكتف بعضهم بعضا وفرقهم في أصحابه فيجمع بأنهم أعطوا بأيديهم بعد المحاربة، ودفع إلى كل رجل منهم أسيره من أصحابه الذين كانوا معه في السرية، وفي رواية الباقر فقال لهم خالد ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا فوضعوا السلاح فأمر بهم فكتفوا ثم عرضهم على السيف، وعند أبي سعد فلما كان السحر نادى خالد من كان معه أسير فليضرب عنقه، وأن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، وعند ابن سعد فأما بنو سليم فقتلوا من كان في أيديهم وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم⁴.

ب/غزوة حنين بعد الفتح سنة 8هـ

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص653

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص653

³ - كتاب المغازي، باب: بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، رقم: 3994

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص653-654

1/مكان الغزوة: حُتَيْنَ واد إلى جنب ذي المجاز قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات، قال أبو عبيد البركري سمي باسم حنين بن قابتة بن مهلائيل¹، وقصد فيها هوازن وهي قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون ينسبون إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَةَ بن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر².

2/تاريخها: قال أهل المغازي خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين لست خلت من شوال وقيل لليلتين بقيتا من رمضان وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان وسار سادس شوال وكان وصوله إليها في عاشره³.

3/سببها: كان السبب في ذلك أن مالك بن عوف النصري جمع القبائل من هوازن ووافقهم على ذلك التقيون وقصدوا محاربة المسلمين، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم، قال عمر بن شبة في كتاب مكة عن عروة أنه كتب إلى الوليد أما بعد فإنك كتبت إلي تسألني عن قصة الفتح فذكر له وقتها فأقام عامئذ بمكة نصف شهر ولم يزد على ذلك، حتى أتاه أن هوازن وثقيفا قد نزلوا حنينا يريدون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأبي داود عن سهل بن الخنظلية أنهم ساروا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين، فأطنبوا السير فجاء رجل هو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي فقال إني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائمهم قد اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله تعالى⁴.

4/عدد الجيش يوم حنين: روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال لما كان يوم حنين التقي هوازن ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف والطلقاء فأذبوا⁵، أما المشركين من العدو فكانوا ضعفهم في العدد وأكثر من ذلك⁶.

11/أحداث الغزوة ومراحلها:

1/أحداث الغزوة في صحيح البخاري: روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وعطفان وغيرهم بنعمهم وذرائبهم ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف ومن الطلقاء فأذبوا عنه حتى بقي وحده فنأدى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما التفت عن يمينه فقال يا معشر الأنصار قالوا لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك ثم التفت عن يساره فقال يا معشر الأنصار قالوا لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك وهو على بعلة بيضاء فنزل فقال أنا عبد الله ورسوله فأنهزم

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/621]

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج7/623]

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/621]

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/621]

⁵ - كتاب : المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم: 3988

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/623]

الْمُشْرِكُونَ فَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ عَنَائِمٌ كَثِيرَةٌ فَفَسَمَ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالطَّلَقَاءِ وَمَنْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةً فَنَحْنُ نُدْعَى وَيُعْطَى الْعَنِيمَةَ غَيْرِنَا فَبَلَّغَهُ ذَلِكَ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ فَسَكَتُوا فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ تَحُوزُونَهُ إِلَى بُيُوتِكُمْ قَالُوا بَلَى فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَاذِيًّا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَأَخَذْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ¹.

2/ هزيمة الطلقاء يوم حنين: والعذر لمن انهزم من غير المؤلفة أن العدو كانوا ضعفهم في العدد وأكثر من ذلك، قال شعبة كانت هوازن رماة، قال وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا وللبخاري في الجهاد انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، وللبخاري في الجهاد قال خرج شبان أصحابه وإخفاؤهم حسرا ليس عليهم سلاح فاستقبلهم جمع هوازن وبني نضر ما يكادون يسقط لهم سهم فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطفون، وذكر بن إسحاق سبب انكشافهم أمرا آخر وهو أن مالك بن عوف سبق بهم إلى حنين فأعدوا وتهيؤا في مضايق الوادي وأقبل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى أنحط بهم الوادي في عماية الصبح، فثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين، وفي حديث أنس عند مسلم قال فجاء المشركون بأحسن صفوف، رأيت صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك ثم الغنم ثم النعم، قال ونحن بشر كثير وعلى ميمنة خيلنا خالد بن الوليد فجعلت خيلنا تلوذ خلف ظهورنا فلم نلبث أن انكشفت خيلنا وفرت الأعراب ومن تعلم من الناس²، وأنزل الله تعالى قوله في هذه الغزوة: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُوتُكُمْ فَلَمْ تُنِعْ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَدَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)}³.

3/ الثابتون معه يوم حنين: وبقي معه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان إسلامه قبل فتح مكة لأنه خرج إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلقيه في الطريق وهو سائر إلى فتح مكة فأسلم وحسن إسلامه وخرج إلى غزوة حنين فكان فيمن ثبت، وكانوا الذين كانوا يخدمونه في إمساك البغلة أربعة نفر ثلاثة من بني هاشم: علي والعباس بين يديه، وأبو سفيان بن الحارث أخذ بالعان، وابن مسعود من الجانب الأيسر، وثلاثون من المهاجرين والبقية من الأنصار ومن النساء أم سليم وأم حارثة، وروى الترمذي من حديث بن عمر بإسناد حسن قال لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولين وما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة رجل، وهذا أكثر ما ذكر من عدد من ثبت يوم حنين، وروى أحمد والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين فولى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلا من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدامنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، وما ذكره بن إسحاق في حديثه أنه ثبت معه العباس وابنه الفضل وعلي وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة وأسامة بن زيد وأخوه من أمه أيمن بن أم أيمن ومن

¹ - كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم: 3992

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/623-624]

³ - سورة التوبة، الآيات: [25، 26]

المهاجرين أبو بكر وعمر فهؤلاء تسعة وابن مسعود عشرة، ووقع في شعر العباس بن عبد المطلب أن الذين ثبتوا كانوا عشرة فقط، ولعل هذا هو الثابت، ومن زاد على ذلك يكون عجل في الرجوع فعد فيمن لم ينهزم، ومن ذكر الزبير بن بكار وغيره أنه ثبت يوم حنين أيضا جعفر بن أبي سفيان بن الحارث وقثم بن العباس وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وشيبة بن عثمان الحجبي فقد ثبت عنه أنه لما رأى الناس قد انهزموا استدبر النبي صلى الله عليه وسلم ليقتله فأقبل عليه فضربه في صدره وقال له قاتل الكفار فقاتلهم حتى انهزموا، وفي رواية مسلم من حديث العباس شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمته أنا وأبو سفيان بن الحارث فلم يفارقه، وفيه ولي المسلمون مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا آخذ بلجام رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه ويمكن الجمع بأن أبا سفيان كان آخذا أولا بزمامها فلما ركضها النبي صلى الله عليه وسلم إلى جهة المشركين خشى العباس فأخذ بلجام البغلة يكفها وأخذ أبو سفيان بالركاب وترك اللجام للعباس إجلالا له لأنه كان عمه¹.

4/دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم حنين: في رواية زهير فأقبلوا وهو على بغلته البيضاء وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به فنزل واستنصر، أي قال اللهم أنزل نصرك، وقال أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، وفيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب فكأنه قال أنا النبي والنبي لا يكذب فلست بكاذب فيما أقول حتى انهزموا، وأنا متيقن بأن الذي وعدني الله به من النصر حق فلا يجوز على الفرار، وروى مسلم من حديث سلمة بن الأكوع لما غشوا النبي صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب ثم استقبل به وجوههم فقال شأهت الوجوه فما خلق الله منهم إنسانا الا ملاً عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا منهزمين، وللبزار من حديث بن عباس أن عليا ناول النبي صلى الله عليه وسلم التراب فرمى به في وجوه المشركين يوم حنين، ويجمع بين هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم أولا قال لصاحبه ناولني فناوله فرماهم ثم نزل عن البغلة فأخذ بيده فرماهم أيضا فيحتمل أن الحصي في إحدى المرتين وفي الأخرى التراب².

5/هزيمة الكفار يوم حنين: روى مسلم من حديث العباس أن النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ صار يركض بغلته إلى جهة الكفار، فقال العباس ناد أصحاب الشجرة وكان العباس صيتا قال فناديت بأعلى صوتي أين أصحاب الشجرة قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا يا لبيك قال فاقتتلوا والكفار فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمطاول إلى قتالهم فقال هذا حين حمى الوطيس ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب الكعبة³.

¹ - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري [ج7/624-625]

² - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري [ج7/625-626-227]

³ - ابن حجر العسقلاني:فتح الباري [ج7/626]

قال العلماء في ركوبه صلى الله عليه وسلم البغلة البيضاء التي أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، دلالة على النهاية في الشجاعة والثبات، وزاد مسلم عن أبي إسحاق قال البراء كنا والله إذا أحمر البأس نتقي به، وأن الشجاع منا الذي يحاذيه يعنى النبي صلى الله عليه وسلم¹، وفي الحديث من الفوائد حسن الأدب في الخطاب والارشاد إلى حسن السؤال بحسن الجواب وذم الإعجاب، وفيه جواز الانتساب إلى الآباء ولو ماتوا في الجاهلية والنهي عن ذلك محمول على ما هو خارج الحرب ومثله الرخصة في الخيلاء في الحرب دون غيرها، وجواز التعرض إلى الهلاك في سبيل الله، ولا يقال كان النبي صلى الله عليه وسلم متيقنا للنصر لوعده الله تعالى له بذلك وهو حق لأن أبا سفيان بن الحارث قد ثبت معه أخذًا بلجام بغلته وليس هو في اليقين مثل النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه ركوب البغلة إشارة إلى مزيد الثبات لأن ركوب الفحولة مظنة الاستعداد للفرار والتولى، وإذا كان رأس الجيش قد وطن نفسه على عدم الفرار وأخذ بأسباب ذلك كان ذلك أدعى لاتباعه على الثبات، وفيه شهرة الرئيس نفسه في الحرب مبالغة في الشجاعة وعدم المبالاة بالعدو².

111/نتائج غزوة حنين

1/تقسيم غنائم حنين: روى البخاري عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة فلوئبهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكانت لهم وجدوا إذ لم يصيبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضاللاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي وعالاه فأعناكم الله بي كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمرنا قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمرنا قال لو شئتم قلتم جئنا كذا وكذا أنرضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم لولا الهجره لكنتم امراً من الأنصار ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها الأنصار شعراً والناس دثاراً إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض³.

فإنه صلى الله عليه وسلم كان أمر أن تجمع غنائم حنين بالجرعانة وتوجه هو بالعساكر إلى الطائف، فلما رجع منها قسم الغنائم حينئذ بالجرعانة⁴، قال ابن حجر: وفي المغازي لابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى من سبي هوازن علي بن أبي طالب جارية يقال لها ربيعة بنت حبان بن عمير، وأعطى عثمان جارية يقال لها زينب بنت خناس، وأعطى عمر قلابة فوهبها لابنه، قال ابن إسحاق عن بن عمر قال بعثت جاريتي إلى أخوالي في بني جمح ليصلحوا لي منها حتى أطوف بالبيت ثم أتيتهم فخرجت من المسجد فإذا الناس يشتدون قلت ما شأنكم قالوا رد علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءنا وأبناءنا فقلت

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/625-626]

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/627]

³ - كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم: 3985

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/643]

دونكم صاحبكم فهي في بني جمح فانطلقوا فأخذوها، وذكر الواقدي أنه أعطى لعبد الرحمن بن عوف وآخرين معه من الجوارى وأن جارية سعد بن أبي وقاص اختارته فأقامت عنده وولدت له¹.

أما الأموال فقد خص بها المؤلف قلوبهم وهم ناس من قريش أسلموا يوم الفتح إسلاماً ضعيفاً، وقيل كان فيهم من لم يسلم بعد كصفوان بن أمية، والمراد بهم الطلقاء وهم جميع من حصل من النبي صلى الله عليه وسلم المن عليه يوم فتح مكة من قريش وأتباعهم، وهم زيادة على أربعين نفساً، وقد ذكر السبب في ذلك عن أنس في البخاري حيث قال أن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم²، وأخرج أحمد ومسلم والبيهقي في الدلائل عن رافع بن خديج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى المؤلف قلوبهم من سبي حنين مائة مائة من الإبل فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة وأعطى صفوان بن أمية مائة، وأعطى عيينة بن حصن مائة، وأعطى مالك بن عوف مائة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة، وأعطى علقمة بن ثلاثمائة، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة فأنشأ يقول:

أجعل نهي ونهب العبيد... بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس... يفوقان مرداس في الجمع

وما كنت دون امرئ منهما... ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأكمل له المائة³.

2/ معاتبه الأنصار يوم حنين: روى البخاري من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم، قال: لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا؛ فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا، إِذْ لَمْ يُصِيبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَعَانَكُمُ اللَّهُ بِي كَلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرٌ؛ قَالَ: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ، كَلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرٌ قَالَ: لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْنَا كَذَا وَكَذَا، أَنْتَرَضُونَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاتَةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رِحَالِكُمْ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشَعْبًا لَسَلَكَتُ وَادِي الْأَنْصَارِ وَشَعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارُ وَالنَّاسُ دِتَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَنْتَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ⁴.

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/631]

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/644-645]

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/652]

⁴ - كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف، رقم: 4330

قال ابن حجر: في رواية الزهري فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم فلم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام فقال ما حديث بلغني عنكم فقال فقهاء الأنصار أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئا وأما ناس منا حديثه أسناهم فقالوا، ولأحمد من طريق ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أبا سفيان وعيينة والأقرع وسهيل بن عمرو في آخرين يوم حنين فقالت الأنصار سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالمغنم، فأخبره بمقاتلتهم سعد بن عباد، فقال له فأين أنت من ذلك يا سعد قال ما أنا إلا من قومي، قال فاجمع لي قومك فخرج فجمعهم، وقد رتب صلى الله عليه وسلم ما من الله عليهم على يده من النعم ترتيبا بالغا، فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يوازيها شيء من أمر الدنيا وثنى بنعمة الآفة، وهي أعظم من نعمة المال لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع لما وقع بينهم من حرب بعات وغيرها، فزال ذلك كله بالإسلام كما قال الله تعالى: {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ (63)}¹، وقوله عالة أي فقراء لا مال لهم والعيلة الفقر، وكلما قال شيئا قالوا الله ورسوله آمن، وفي حديث أبي سعيد فقال أما والله لو شئتم لقتلتم فصدقتهم وصدقتهم أتيتنا مكذبا فصدقتنا ومخذولا فنصرناك وطريدا فأوبناك وعائلا فواسيناك، وإنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك تواضعا منه وانصافا وإلا ففي الحقيقة الحجة البالغة والمنة الظاهرة في جميع ذلك له عليهم، فإنه لولا هجرته إليهم وسكناه عندهم لما كان بينهم وبين غيرهم فرق، وقد نبه على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم ألا ترضون... فنبههم على ما غفلوا عنه من عظيم ما اختصوا به منه بالنسبة إلى ما حصل عليه غيرهم من عرض الدنيا الفانية، وقوله لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار قال الخطابي أراد بهذا الكلام تألف الأنصار واستطابة نفوسهم والثناء عليهم في دينهم حتى رضي أن يكون واحدا منهم، لولا ما يمنعه من الهجرة التي لا يجوز تبديلها، وكانت المدينة دار الأنصار والهجرة إليها أمرا واجبا، ويحتمل أنه لما كانوا أحواله لكون أم عبد المطلب منهم أراد أن ينتسب إليهم بهذه الولادة لولا مانع الهجرة، وقال بن الجوزي لم يرد صلى الله عليه وسلم تغيير نسبه ولا محو هجرته وإنما أراد أنه لولا ما سبق من كونه هاجر لانتسب إلى المدينة وإلى نصره الدين، فالتقدير لولا أن النسبة إلى الهجرة نسبة دينية لا يسع تركها لانتسبت إلى داركم، وقيل التقدير لولا أن ثواب الهجرة أعظم لاخترت أن يكون ثوابي ثواب الأنصار ولم يرد ظاهر النسب أصلا².

وفي الحديث من الفوائد: إقامة الحجة على الخصم وإفحامه بالحق عند الحاجة إليه، وحسن أدب الأنصار في تركهم الممارسة والمبالغة في الحياء، وبيان أن الذي نقل عنهم إنما كان عن شبانهم لا عن شيوخهم وكهولهم، وفيه مناقب عظيمة لهم لما اشتمل من ثناء الرسول البالغ عليهم وأن الكبير ينبه الصغير على ما يغفل عنه ويوضح له وجه الشبهة ليرجع إلى الحق، وفيه المعاتبه واستعطاف المعاتب وإعتابه عن عتبه بإقامة حجة من عتب عليه والاعتذار والاعتراف، وفيه علم من أعلام النبوة لقوله ستلقون بعدي أثره فكان كما قال، قال الزهري قال أنس فلم يصبروا، وفيه أن للإمام تفضيل بعض الناس على بعض في مصارف الفيء، وأن له أن يعطي الغني منه للمصلحة، وأن من طلب حقه من الدنيا لا عتب عليه في ذلك، ومشروعية الخطبة عند الأمر الذي يحدث سواء كان خاصا أم عاما، وفيه جواز تخصيص بعض المخاطبين في الخطبة، وفيه تسلية من فاته شيء من الدنيا مما حصل له من ثواب

¹ - سورة الأنفال، الآية: 63

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص647-648

الآخرة والحض على طلب الهداية والألفة والغنى وأن المنة لله ورسوله على الاطلاق، وتقديم جانب الآخرة على الدنيا، والصبر عما فات منها ليدخر ذلك لصاحبه في الآخرة والآخرة خير وأبقى¹.

3/ فرار هوازن: ذكر بن إسحاق أن هوازن لما انهزموا صارت طائفة منهم إلى الطائف وطائفة إلى بجيلة وطائفة إلى أوطاس فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عسكرياً مقدمهم أبو عامر الأشعري إلى من مضى إلى أوطاس².

4/ رد النبي -صلى الله عليه وسلم- السبي إلى هوازن: عن عروة بن الزبير أن مروان بن الحكم والمسور بن مخزوم أخبراه أن النبي صلى الله عليه وسلم، قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يردهم أمواتهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (أحب الحديث إلى أصدقائه، فأختاروا إحدى الطائفتين، إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنتيت بهم)، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انتظرهم بضعة عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإننا نختار سبينا، فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المسلمين فأتى على الله بما هو أهله ثم قال: (أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أردد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل)، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إننا لا ندرى من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم)، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذِنوا³.

قال ابن حجر: عن موسى بن عقبة في المغازي... ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف في شوال إلى الجعرانة وبها السبي يعني سبي هوازن، وقدمت عليه وفد هوازن مسلمين، فيهم تسعة نفر من أشرافهم، فأسلموا وبايعوا ثم كلموه فقالوا يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازي الأقباط، فقال سأطلب لكم وقد وقعت المقاسم فأبي الأمرين أحب إليكم آل سبي أم المال، قالوا خيرتنا يا رسول الله بين الحسب والمال فالحسب أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بغير، فقال أما الذي لبني هاشم فهو لكم وسوف أكلم لكم المسلمين فكلموهم وأظهروا إسلامكم، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرة، قاموا فتكلم خطباؤهم فأبلغوا ورجعوا إلى المسلمين في رد سبيهم، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغوا فشفع لهم وحض المسلمين عليه، وقال قد رددت الذي لبني هاشم عليهم، وقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- قد كنت استأنتيت بكم أي استنظرت وأخرت قسم السبي لتحضروا فأبطأتم، وكان ترك السبي بغير قسمة وتوجه إلى الطائف فحاصرها ثم رجع عنها إلى الجعرانة ثم قسم الغنائم هناك، فجاءه وفد هوازن بعد ذلك، وفي رواية عمرو بن شعيب فقال المهاجرون

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص649

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص638

³ - كتاب المغازي، باب: قول الله تعالى وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ، رقم: 4319

ما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار كذلك، وقال الأقرع بن حابس أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم بل ما كان لنا فهو لرسول الله قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول فيء نصيبه فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم¹.

وفي هذا الحديث من الفقه جواز سبي العرب واسترقاقهم كالعجم، وفيه أن من جاء وأسلم بعد ما غنم ماله لا يجب رد ماله عليه، ويستدل بهذا من يقبل إقرار الوكيل على الموكل، لأن العرفاء بمنزلة الوكلاء، وقد أطلق النبي (صلى الله عليه وسلم) السبايا بقول العرفاء من غير أن يرجع على الموكلين، أما من أسلم قبل أن يقع في الأسر فقد أحرز أمواله وأولاده².

قال بن القيم اقتضت حكمة الله... لما قدر الله علي رسوله من غلبته إياهم، قدر وقوع هزيمة المسلمين مع كثرة عددهم وقوة عددهم ليتبين لهم أن النصر الحق إنما هو من عنده لا بقوتهم ولو قدر أن لا يغلبوا الكفار ابتداء لرجع من رجع منهم شامخ الرأس متعازما فقدر هزيمتهم، ثم اعقبهم النصر ليدخلوا مكة كما دخلها النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح متواضعا متخشعا، واقتضت حكمته أيضا أن غنائم الكفار لما حصلت ثم قسمت على من لم يتمكن الإيمان من قلبه لما بقي فيه من الطبع البشري في محبة المال فقسمه فيهم لتطمئن قلوبهم وتجتمع على محبته، لأنها جبلت على حب من أحسن إليها، ومنع أهل الجهاد من أكابر المهاجرين ورؤساء الأنصار مع ظهور استحقاتهم لجميعها لأنه لو قسم ذلك فيهم لكان مقصورا عليهم بخلاف قسمته على المؤلفلة، لأن فيه استحلاب قلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضي رئيسهم، فلما كان ذلك العطاء سببا لدخولهم في الإسلام ولتقوية قلب من دخل فيه قبل تبعهم من دونهم في الدخول فكان في ذلك عظيم المصلحة، ولذلك لم يقسم فيهم من أموال أهل مكة عند فتحها قليلا ولا كثيرا مع احتياج الجيوش إلى المال الذي يعينهم على ما هم فيه، فحرك الله قلوب المشركين لغزوهم، فرأى كثيرهم أن يخرجوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم فكانوا غنيمة للمسلمين، ولو لم يقذف الله في قلب رئيسهم أن سوقه معه هو الصواب لكان الرأي ما أشار إليه دريد فخالفه، فكان ذلك سببا لتصييرهم غنيمة للمسلمين، ثم اقتضت تلك الحكمة أن تقسم تلك الغنائم في المؤلفلة ويوكل من قلبه ممتلىء بالإيمان إلى إيمانه، ثم كان من تمام التأليف رد من سبي منهم إليهم فانشرحت صدورهم للإسلام، فدخلوا طائعين راغبين، وجبر ذلك قلوب أهل مكة بما نالهم من النصر والغنيمة عما حصل لهم من الكسر والرعب، فصرف عنهم شر من كان يجاورهم من أشد العرب من هوازن وثقيف بما وقع بهم من الكسرة وبما قبيض لهم من الدخول في الإسلام، ولولا ذلك ما كان أهل مكة يطيقون مقاومة تلك القبائل مع شدتها وكثرتها، وأما قصة الأنصار وقول من قال منهم فقد اعتذر رؤسائهم بأن ذلك كان من بعض أتباعهم ولما شرح لهم صلى الله عليه وسلم ما خفي عليهم من الحكمة فيما صنع رجعوا مدعنين ورأوا أن

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص628-629

² - البغوي الحسين بن مسعود: شرح السنة، تح: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي دمشق. بيروت، ط2، 1403هـ/1983م،

الغنيمة العظمى ما حصل لهم من عود رسول الله إلى بلادهم فسلوا عن الشاة والبعير والسبايا من الأنثى والصغير بما حازوه من الفوز العظيم ومجاورة النبي الكريم لهم حيا وميتا، وهذا دأب الحكيم يعطي كل أحد ما يناسبه¹.

ج/غزوة الطائف بعد حنين في شوال سنة 8هـ

ا/لمحة عن الغزوة

1/مكان الغزوة: الطائف هو بلد كبير مشهور كثير الأعناب والنخيل على ثلاث مراحل أو اثنتين من مكة من جهة المشرق، وسار النبي صلى الله عليه وسلم إليها بعد منصرفه من حنين وحبس الغنائم بالجرعانة².

2/تاريخ الغزوة: كانت في شوال سنة 8هـ، وهو قول جمهور أهل المغازي، وقيل وصل إليها في أول ذي القعدة³.

3/سبب الغزوة: كان مالك بن عوف النضري قائد هوازن لما انهزم دخل الطائف، وكان له حصن بلية على أميال من الطائف فمر به النبي صلى الله عليه وسلم وهو سائر إلى الطائف فأمر بهدمه⁴.

ا/أحداث الغزوة

1/فرض الحصار على الطائف: روى البخاري عن عبد الله بن عمرو قال لما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فلم ينل منهم شيئا قال إنا قافلون إن شاء الله فثقل عليهم وقالوا نذهب ولا نفتحها وقال مرة نقتل فقال أعدوا على القتال فعدوا فأصابهم جراح فقال إنا قافلون غدا إن شاء الله فأعجبهم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال سفيان مرة فتبسم⁵.

قال ابن حجر: لما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فلم ينل منهم شيئا، وفي مرسل ابن الزبير عند بن أبي شيبه قال لما حاصر النبي صلى الله عليه وسلم الطائف قال أصحابه يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم فقال اللهم اهد ثقيفا، وذكر أهل المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما استعصى عليه الحصن وكانوا قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة، ورموا على المسلمين سكك الحديد المحماة ورموهم بالنبل فأصابوا قوما فاستشار نوفل بن معاوية الديلي فقال هم ثعلب في حجر إن أقيمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك فرحل عنهم، وذكر أنس في حديثه عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوما، وعند أهل السير اختلاف قيل عشرين يوما وقيل بضع عشرة وقيل ثمانية عشر وقيل خمسة عشر⁶، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- إنا

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص645-646

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص640

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص640

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص640

⁵ - كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم: 3981.

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص641

قافلون أي راجعون إلى المدينة، فثقل عليهم فقالوا نذهب ولا نفتح، وحاصل الخبر أنهم لما أخبرهم بالرجوع بغير فتح لم يعجبهم فلما رأى ذلك أمرهم بالقتال فلم يفتح لهم، فأصيبوا بالجراح لأنهم رموا عليهم من أعلى السور فكانوا ينالون منهم بسهامهم ولا تصل السهام إلى من على السور، فلما رأوا ذلك تبين لهم تصويب الرجوع فلما أعاد عليهم القول بالرجوع أعجبهم حينئذ فضحك النبي -صلى الله عليه وسلم-¹.

2/ فرار عبيد أهل الطائف إلى المسلمين: روى البخاري: عَنْ عَاصِمٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَثْمَانَ قَالَ سَمِعْتُ سَعْدًا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبَا بَكْرَةَ وَكَانَ تَسْوَرُ حِصْنَ الطَّائِفِ فِي أَنْاسٍ فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ سَمِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ وَقَالَ هِشَامٌ وَأَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَوْ أَبِي عَثْمَانَ النَّهْدِيِّ قَالَ سَمِعْتُ سَعْدًا وَأَبَا بَكْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عَاصِمٌ قُلْتُ لَقَدْ شَهِدَ عِنْدَكَ رَجُلَانِ حَسْبُكَ بِهِمَا قَالَ أَحَلَّ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَأَوَّلُ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَتَنَزَّلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَالِثَ ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ مِنْ الطَّائِفِ².

قال ابن حجر: وكان وأبو بكره ممن نزل من حصن الطائف من عبيدهم فأسلم، وذكر أهل المغازي منهم مع أبي بكره المنبعث وكان عبدا لعثمان بن عامر بن معتب وكذا مرزوق والأزرق زوج سمية والدة زياد بن عبيد الذي صار يقال له زياد بن أبيه، والأزرق أبو عقبة وكان لكلدة الثقفي ثم حالف بني أمية لأن النبي صلى الله عليه وسلم دفعه لخالد بن سعيد بن العاص ليعلمه الإسلام، ووردان وكان لعبد الله بن ربيعة ويحنس النبال وكان لابن مالك الثقفي وإبراهيم بن جابر وكان لخرشة الثقفي، وبشار وكان لعثمان بن عبد الله، ونافع مولى الحارث بن كلدة، ونافع مولى غيلان بن سلمة الثقفي، وكلهم ممن تسور من حصن الطائف فنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين منهم، وروى بن أبي شيبه وأحمد من حديث بن عباس قال أعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الطائف كل من خرج إليه من رقيق المشركين³.

111/ نتائج الغزوة: استشهد فيها عبد الله بن أبي أمية هو أخو أم سلمة، وكان إسلامه مع أبي سفيان بن الحارث في غزوة الفتح أصابه سهم فقتله⁴، وجرحوا منهم الكثير فأصيبوا بالجراح، لأنهم رموا عليهم من أعلى السور فكانوا ينالون منهم بسهامهم ولا تصل السهام إلى من على السور⁵.

ج/ السرايا بعد حنين والطائف

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص641

² - كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم: 3982

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص642

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص640

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص641

1/مكان الغزوة: قال عياض هو واد في دار هوازن وهو موضع حرب حنين، وهذا الذي قاله ذهب إليه بعض أهل السير والراجح أن وادي أوطاس غير وادي حنين كما ذكر بن إسحاق أن الوقعة كانت في وادي حنين¹، وقال أبو عبيدة البكري أوطاس واد في ديار هوازن وهناك عسكروا هم وثقيف ثم التقوا بحنين².

2/سبب الغزوة: ذكر بن إسحاق أن الوقعة كانت في وادي حنين وأن هوازن لما انهزموا صارت طائفة منهم إلى الطائف وطائفة إلى بجيلة وطائفة إلى أوطاس فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عسكرا مقدمهم أبو عامر الأشعري إلى من مضى إلى أوطاس³.

3/أحداث الغزوة في صحيح البخاري: روى البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال لما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقى دُرَيْدَ بْنَ الصَّمَّةِ فقتل دُرَيْدًا وهزم الله أصحابه قال أبو موسى وبعتني مع أبي عامر فرمى أبو عامر في ركبته رماء جشمي بسهم فأثبتته في ركبتيه فانتهيته إليه فقلت يا عم من رماك فأشار إلى أبي موسى فقال ذاك قاتلي الذي رماني فصدت له فلحقت له فلما رأني ولي فاتبعته وجعلت أقول له ألا تستحيي ألا تثبت فكف فاختلنا ضربتين بالسيف فقتلته ثم قلت لأبي عامر قتل الله صاحبك قال فانزع هذا السهم فنزعته فنزا منه الماء قال يا ابن أخي أفرى النبي صلى الله عليه وسلم السَّلامَ وقل له استغفر لي واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيرًا ثم مات فرجعت فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في بيته على سرير مُرْمَلٍ وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَحَنْبِيهِ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِنَا وَخَبَرَ أَبِي عَامِرٍ وَقَالَ قُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِي فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبِيدِ أَبِي عَامِرٍ وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ فَقُلْتُ وَلِي فَاسْتَغْفِرْ فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ دَنْبُهُ وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا قَالَ أَبُو بُرْدَةَ إِحْدَاهُمَا لِأَبِي عَامِرٍ وَالْأُخْرَى لِأَبِي مُوسَى⁴.

قال ابن حجر: أبا عامر هو عبيد بن سليم بن حضار الأشعري وهو عم أبي موسى، فلقى دريد بن الصمة فقتل دريد أما الصمة بن بكر بن علقمة ويقال بن الحارث بن بكر بن علقمة الجشمي من بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن فالصمة لقب لأبيه، واسمه الحارث فقتل، وبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - أبو موسى مع أبي عامر إلى من التجأ إلى أوطاس، وقال بن إسحاق بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا عامر الأشعري في آثار من توجه إلى أوطاس فأدرك بعض من انهزم فناوشوه القتال، فرمى أبو عامر في ركبته رماء جشمي رجل من بني جشم، وأخذ الراية أبو موسى الأشعري فقاتلهم ففتح الله عليه⁵.

¹- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص637-638

²- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص638

³- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص638

⁴- كتاب المغازي، باب: غزوة أوطاس، رقم: 3979.

⁵- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص638

يستفاد من هذا الحديث استحباب التطهير لإزالة الدعاء ورفع اليدين في الدعاء خلافا لمن خص ذلك بالاستسقاء¹.

11/سرية نجد بعد الطائف: ذكرها البخاري بعد غزوة الطائف، والذي ذكره أهل المغازي أنها كانت قبل التوجه لفتح مكة، فقال بن سعد كانت في شعبان سنة 8هـ، وذكر غيره أنها كانت قبل مؤتة ومؤتة كانت في جمادى من السنة، وقيل كانت في رمضان، قالوا وكان أبو قتادة أميرها، وكانوا خمسة وعشرين وغنموا من غطفان بأرض محارب مائتي بعير وألفي شاة²، روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية قبل نجد فكنت فيها فبلغت سهاؤنا أنني عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا فرجعنا بثلاثة عشر بعيرا³.

111/سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجرز المدلجي سنة 9هـ

1/سببها: كان سببها أنه بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن ناسا من الحبشة تراهم أهل جدة فبعث إليهم علقمة بن مجرز في ربيع الآخر في سنة 9هـ في ثلاثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر فلما خاض البحر إليهم هربوا فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم، فأمر عبد الله بن حذافة على من تعجل، وذكر بن إسحاق أن سبب هذه القصة أن وقاص بن مجرز كان قتل يوم ذي قرد فأراد علقمة بن مجرز أن يأخذ بثأره، فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه السرية، وهذا يخالف ما ذكره بن سعد إلا أن يجمع بأن يكون أمر بالأمرين وأرخها بن سعد في ربيع الآخر سنة 9هـ⁴.

2/قصة السرية في صحيح البخاري: عن علي رضي الله عنه قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية فاستعمل رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه فعضب فقال أليس أمركم النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني قالوا بلى قال فاجمعوا لي حطبا فجمعوا فقال أوقدوا نارا فأوقدوها فقال ادخلوها فهموا وجعل بعضهم بمسك بعضا ويقولون فرزنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النار فما زالوا حتى حمدت النار فسكن غضبه فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة الطاعة في المعروف⁵، وروى أحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علقمة بن مجرز على بعث أنا فيهم حتى انتهينا إلى رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش وأمر عليهم عبد الله بن حذافة السهمي وكان من أصحاب بدر وكانت فيه دعاية⁶.

وفي الحديث من الفوائد أن الحكم في حال الغضب ينفذ منه ما لا يخالف الشرع، وأن الغضب يغطي على ذوى العقول، وفيه أن الإيمان بالله ينجى من النار لقولهم إنما فرزنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النار، والفرار إلى النبي صلى الله عليه وسلم

¹- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص639

²- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص653

³- كتاب المغازي، باب: السرية التي قبل نجد، رقم: 3993

⁴- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص655-656

⁵- كتاب المغازي، باب: سرية عبد الله بن حذافة السهمي، رقم: 3995

⁶- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص655

فرار إلى الله، والفرار إلى الله يطلق على الإيمان، وفيه أن الأمر المطلق لا يعم الأحوال لأنه صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يطيعوا الأمير فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب، وفي حال الأمر بالمعصية فبين لهم صلى الله عليه وسلم أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه في غير معصية، واستنبط منه الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة أن الجمع من هذه الأمة لا يجتمعون على خطأ لانقسام السرية قسامين منهم من هان عليه دخول النار فظنه طاعة، ومنهم من فهم حقيقة الأمر وأنه مقصور على ما ليس بمعصية، فكان اختلافهم سببا لرحمة الجميع، قال وفيه أن من كان صادق النية لا يقع إلا في خير ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه، ولهذا قال بعض أهل المعرفة من صدق مع الله وقاه الله ومن توكل على الله كفاه الله¹.

1111/ غزوة ذي الخَلَصَة بعد سرية عبد الله بن حذافة

1/ مكان الغزوة: الخَلَصَة نبات له حب أحمر، وذو الخَلَصَة اسم للبيت الذي كان فيه الصنم، وقيل اسم البيت الخَلَصَة واسم الصنم ذو الخَلَصَة، وحكى المبرد أن موضع ذي الخَلَصَة صار مسجدا جامعاً لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم، وهي قبيلة شهيرة ينتسبون إلى خثعم بن أئمار بن إراش بن عَنَز بن وائل ينتهي نسبهم إلى ربيعة بن نزار إخوة مضر بن نزار جد قريش، فكانوا قد بنوا بيتا يضاؤون به الكعبة².

2/ قصة الغزوة في صحيح البخاري: روى البخاري عن جرير قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تُرِيحُنِي مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ فَعُلْتُ بَلَى فَاَنْطَلَقْتُ فِي خَمْسِينَ وَمِائَةِ فَارِسٍ مِنْ أَحْمَسَ وَكَانُوا أَصْحَابَ خَيْلٍ وَكُنْتُ لَا أَتُبْتُ عَلَى الْخَيْلِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَرَبَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ يَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ واجعله هاديًا مهديًا قال فما وقعت عن فرسٍ بعدُ قال وكان ذو الخَلَصَةِ بَيْتًا بِالْيَمَنِ لِحِثْمَ وَجِيلَةٍ فِيهِ نُصُبٌ تُعْبَدُ يُقَالُ لَهُ الْكَعْبَةُ قَالَ فَأَتَاهَا فَحَرَّقَهَا بِالنَّارِ وَكَسَرَهَا قَالَ وَلَمَّا قَدِمَ جَرِيرٌ الْيَمَنَ كَانَ بِهَا رَجُلٌ يَسْتَقْسِمُ بِالْأَزْلَامِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَا هُنَا فَإِنْ قَدَرَ عَلَيْكَ ضَرَبَ عُقُوكَ قَالَ فَبَيْنَمَا هُوَ يَضْرِبُ بِهَا إِذْ وَقَفَ عَلَيْهِ جَرِيرٌ فَقَالَ لَتَكْسِرَنَّهَا وَلَتَشْهَدَنَّ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَوْ لِأَضْرِبَنَّ عُقُوكَ قَالَ فَكَسَرَهَا وَشَهِدَ ثُمَّ بَعَثَ جَرِيرٌ رَجُلًا مِنْ أَحْمَسَ يُكْنَى أَبُو أَرْطَاةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَشِّرُهُ بِذَلِكَ فَلَمَّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا جِئْتُ حَتَّى تَرَكْتُهَا كَأَنَّهَا جَمَلٌ أَجْرَبُ قَالَ فَبَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى خَيْلِ أَحْمَسَ وَرِجَالِهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ³.

قال ابن حجر: وخص جريرا بذلك لأنها كانت في بلاد قومه وكان هو من أشرافهم، وروى الحاكم في الإكليل من حديث البراء بن عازب قال قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مائة رجل من بني بجيلة وبني قشير جرير بن عبد الله فسأله عن بني خثعم فأخبره أنهم أبوا أن يجيبوا إلى الإسلام فاستعمله على عامة من كان معه وندب معه ثلاثمائة من الأنصار وأمره أن يسير إلى خثعم

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص657

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص670

³ - كتاب المغازي، باب: غزوة ذي الخَلَصَة، رقم: 4357

فيدعوهم ثلاثة أيام فإن أجابوا إلى الإسلام قبل منهم وهدم صنمهم ذا الخلصة وإلا وضع فيهم السيف، فنفرت مسرعا في مائة وخمسين راكبا، وكانوا أصحاب خيل أي يثبتون عليها، وفي كتاب الصحابة لابن السكن أنهم كانوا أكثر من ذلك فذكر عن قيس بن غربة الأحمسي أنه وفد في خمسمائة، قال وقدم جرير في قومه وقدم الحجاج بن ذي الأعين في مائتين قال وضم إلينا ثلاثمائة من الأنصار وغيرهم فغزونا بني خثعم فكان المائة والخمسين هم قوم جرير وتكلمة المائتين أتباعهم، وأما الرواية التي فيها سبعمائة فهم من كان من رهط جرير وقيس بن غربة لأن الخمسين كانوا من قبيلة واحدة، فدعا لنا ولأحمس وهم إخوة بجيلة رهط جرير ينتسبون إلى أحمس بن الغوث بن أنمار وبجيلة امرأة نسبت إليها القبيلة المشهورة ومدار نسبهم أيضا على أنمار ووقع في الرواية التي بعد هذه فبارك في خيل أحمس ورجالها خمس مرات أي دعا لهم بالبركة¹.

1111/غزوة ذات السلاسل إلى لحم وجذام بعد ذي الخلصة

1/مكان الغزوة: ذكر بن سعد أنها وراء وادي القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام، قيل سميت ذات السلاسل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا وقيل لأن بها ماء يقال له السلسل، وهي غزوة لحم وجذام، وعند ابن إسحاق أنه ماء لبني جذام ولحم، أما لحم فهي قبيلة كبيرة شهيرة ينسبون إلى لحم واسمه مالك بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد، وأما جذام فهي قبيلة كبيرة شهيرة أيضا ينسبون إلى عمرو بن عدي وهم إخوة لحم على المشهور، وقيل هم من ولد أسد بن خزيمه².

2/تاريخ الغزوة: قال ابن سعد: كانت في جمادى الآخرة سنة 8هـ من الهجرة وقيل كانت سنة 7هـ وبه جزم بن أبي خالد في كتاب صحيح التاريخ ونقل بن عساكر الاتفاق على أنها كانت بعد غزوة مؤتة إلا بن إسحاق فقال قبلها³

3/سبب الغزوة: وذكر بن سعد أن جمعا من قضاة تجمعوا وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة فدعا النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ثم أمد به بأبي عبيدة بن الجراح في مائتين وأمره أن يلحق بعمرو وأن لا يختلفا فأراد أبو عبيدة أن يؤم بهم فمنعه عمرو وقال إنما قدمت على مددا وأنا الأمير فأطاع له أبو عبيدة فصلى بهم عمرو⁴.

4/قصة الغزوة: روى البخاري عن أبي عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل قال فأتيته فقلت أي الناس أحب إليك قال عائشة فقلت من الرجال قال أبوها فقلت ثم من قال عمرو فعد رجالا فسكت محافة أن يجعلني في آخرهم⁵.

¹- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص671-672

²- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص674

³- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص674

⁴- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص674

⁵- كتاب المغزي، باب: غزوة ذات السلاسل وهي غزوة لحم وجذام، رقم: 4358.

قال ابن حجر: وسار عمرو حتى وطىء بلاد بلى وعذرة، وذكر بن إسحاق أن أم عمرو بن العاص كانت من بلى فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عمرا يستنفر الناس إلى الإسلام ويستألفهم بذلك، وروى إسحاق بن راهويه والحاكم من حديث بريدة أن عمرو بن العاص أمرهم في تلك الغزوة أن لا يوقدوا نارا فأنكر ذلك عمر فقال له أبو بكر دعه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب فسكت عنه، فكلموا أبا بكر فكلمه في ذلك فقال لا يوقد أحد منهم نارا الا قدفته فيها، فلما انصرفوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فسأله فقال كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قتلهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فحمد أمره¹.

الغزوة عيينة بن حصن بن حذيفة

قال بن إسحاق غزوة عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر يعني الفزاري، بني العنبر من بني تميم، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فأغار وأصاب منهم ناسا وسي منهم سباء، وذكر الواقدي أن سبب بعث عيينة أن بني تميم أغاروا على ناس من خزاعة فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم عيينة بن حصن في خمسين ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري، فأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا، فقدم رؤساؤهم بسبب ذلك على النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال بن سعد كان ذلك في المحرم سنة 9هـ²، وجاء في البخاري باب قال ابن إسحاق غزوة عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، بني العنبر من بني تميم بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فأغار وأصاب منهم ناسا وسي منهم نساء³.

الغزوة تبوك سنة 9هـ

1/ تاريخ الغزوة: غزوة تبوك كانت في شهر رجب من سنة 9هـ قبل حجة الوداع بلا خلاف، وعند بن عائد من حديث بن عباس أنها كانت بعد الطائف بستة أشهر، وليس مخالفا لقول من قال في رجب إذا حذفنا الكسور لأنه صلى الله عليه وسلم قد دخل المدينة من رجوعه من الطائف في ذي الحجة⁴.

2/ مكان الغزوة: تبوك مكان معروف هو نصف طريق المدينة إلى دمشق⁵، بينها وبين المدينة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة، وبينها وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة، ووقعت تسميتها بذلك في الأحاديث الصحيحة منها حديث مسلم: إنكم ستأتون غدا عين تبوك، وقيل سميت بذلك لقوله صلى الله عليه وسلم للرجلين اللذين سبقاه إلى العين ما زلتما تبوكا منذ اليوم، قال ابن قتيبة فبذلك سميت عين تبوك والبوك كالحفر، وعند مالك ومسلم عن معاذ بن جبل: إنهم خرجوا في عام تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص674-675

² - ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص685

³ - كتاب المغازي، باب: غزوة عيينة بن حصن بن حذيفة

⁴ - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 111]

⁵ - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 111]

وسلم، فقال إنكم ستأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا، فجنناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ويديه بشيء من مائها ثم أعاده فيها فحرت العين بماء كثير فاستقى الناس¹.

3/سبب الغزوة: كان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وغيره قالوا: بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم لحم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، فندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج وأعلمهم بجهة غزوهم، وروى الطبراني من حديث عمران بن حصين قال كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل، أن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلا من عظمائهم يقال له قباذ وجهز معه أربعين ألفا فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك².

4/عدد وعدة الجيش في غزوة تبوك: روى الحاكم في الإكليل عن معاذ: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفا³، وأورد الواقدي بسند موصول أنه كان معه عشرة آلاف فرس⁴.

5/ تجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك: جاء نفر كلهم معسر يستحملونه في غزوة تبوك لا يجنون التحلف عنه فقال لا أجد، ومن هؤلاء نفر من الأنصار ومن بني مزينة⁵، وأخرج بن خزيمة عن ابن عباس: قيل لعمر حدثنا عن شأن ساعة العسرة، قال خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فأصابنا عطش، وفي تفسير عبد الرزاق عن بن عقيل قال خرجوا في قلة من الظهر وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة من الماء وفي الظهر وفي النفقة فسميت غزوة العسرة⁶ ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد جهز عيرا إلى الشام فقال يا رسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتا أوقية قال فسمعتة يقول لا يضر عثمان ما عمل بعدها، روى الترمذي عن عبد الرحمن بن سمره قال جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار... حين جهز جيش العسرة فيئثرها في حجره قال عبد الرحمن فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يُقَلِّبُهَا فِي حَجْرِهِ وَيَقُولُ مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ.

وروى البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الخُمْلَانَ هُم إِذْ هُمْ مَعَهُ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ وَهِيَ غَزْوَةُ تَبُوكَ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ أَصْحَابِي أَرْسَلُونِي إِلَيْكَ لِتَحْمِلَهُمْ فَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَحْمِلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ وَوَأَفْقَتْهُ وَهُوَ غَضْبَانٌ وَلَا أَشْعُرُ وَرَجَعْتُ حَزِينًا مِنْ مَنَعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ مَخَافَةِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

¹ - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 111]

² - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 111]

³ - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 117]

⁴ - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 118]

⁵ - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 112]

⁶ - فتح الباري - ابن حجر [ج8/ 111]

وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَلَيَّ فَرَجَعْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَأَخْبَرْتُهُمُ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا سُوَيْعَةً إِذْ سَمِعْتُ بِأَلَا يُنَادِي أَيُّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ فَأَجَبْتُهُ فَقَالَ أَحِبَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوكَ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ قَالَ خُذْ هَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ وَهَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ لِسِتَّةِ أَبْعَرَةٍ ابْتَاعَهُنَّ حِينِيذٍ مِنْ سَعْدٍ فَاَنْطَلِقْ بِهِنَّ إِلَى أَصْحَابِكَ فُقُلْ إِنَّ اللَّهَ أَوْ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ فَارْكَبُوهُنَّ فَاَنْطَلَقْتُ إِلَيْهِنَّ بِهِنَّ فَقُلْتُ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ¹ ...

6/أحداث غزوة تبوك: في السنة 9هـ من الهجرة جمع الروم جموعاً كثيرة بالشام مع قبائل العرب المنتصرة من لحم وغسان وزحفوا إلى أطراف شبه الجزيرة²، وتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك، ولكن الجيش كان كبيراً ثلاثون ألف مقاتل، ولم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط، فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزاً كاملاً، بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلاً يعقبون بغيراً واحداً، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير -مع قتلها-، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العُسرة، ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح رسول الله، ثم فَنَعَ رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي، واشتدت في الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله، ولما وصل ماء تبوك غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ويده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقي الناس، ونزل الجيش الإسلامي بتبوك فمسكرو هناك، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم خطيباً، فخطب خطبة بليغة أتى بجوامع الكلم، وحض على خير الدنيا والآخرة وحذر وأندر وبشر وأبشر حتى رفع معنوياتهم، وجبر بما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة، وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذهم الرعب، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة، لعلمهم لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين³، ونصب معسكره في تبوك عشرين يوماً، عقد فيها المعاهدات مع قبائل الحدود بين الجزيرة العربية والشام⁴، وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير⁵.

وعزم الرسول -صلى الله عليه وسلم- على مواجهة الدولة الرومانية الشرقية في عقر دارها، وعدم الانتظار حتى تقوم بإغارتها على الدولة الإسلامية الفتية، وفور توحيد شبه الجزيرة وأداء حجة الوداع في السنة 10هـ من الهجرة، عمل على إعداد جيش

¹ - كتاب المغازي، باب: غزوة تبوك، رقم: 4415

² - عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف-القاهرة-، ص28

³ - صفى الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، [ص 425-426]

⁴ - عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا، ص28

⁵ - صفى الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، [ص 426]

آخر أسند قيادته إلى أسامة بن زيد بن حارثة وهو شاب، لغزو أطراف الشام الجنوبية، وجَهَّز جيش أسامة قبل أن يمرض وأمره على جيش عامتهم المهاجرون، منهم عمر بن الخطاب في آخر عهده صلى الله عليه وسلم، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بأيام، وتوفي وأسامة معسكر بجيشه في الجرف، فلما جلس أبو بكر للخلافة أنفذه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.¹

7/ المتخلفون عن غزوة تبوك: والثلاثة الذين تخلفوا رهط من الأنصار في بضعة وثمانين رجلا، فلما رجع صدقه أولئك واعترفوا بذنوبهم وكذب سائرهم فحلفوا ما حبسهم إلا العذر فقبل ذلك منهم، ونهى عن كلام الذين تخلفوا²، منهم كعب بن مالك الذي روى البخاري قصته عن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائدا كعب من بيته حين عمي قال سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غير فريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها كان من حبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بعيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتعيب إلا ظن أن سيخمي له ما لم ينزل فيه وحى الله وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أعدو لكي أجهز معهم فأرجع ولم أفض شيئا فأقول في نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادي بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ولم أفض من جهازي شيئا فقلت أجهز بعده بيوم أو يومين ثم أطفهم فعدوت بعد أن فصلوا لأجهز فرجعت ولم أفض شيئا ثم عدوت ثم رجعت ولم أفض شيئا فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرحل فأذركهم ولتيني فعلت فلم يقدر لي ذلك فكننت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفقت فيهم أحزني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه بزاده ونظره في عطفه فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كعب بن مالك فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه

¹ - شيخ الإسلام ابن تيميم: منهاج السنة 411/1-412، و بريك بن محمد بريك أبو مabile العمري: غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، عمادة البحث العلمي

بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424هـ/2004م، [ص 476]

² - فتح الباري - ابن حجر [8/ 117]

أَبْدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَخْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضَعَّةٍ وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمْ وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُعْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَ فَجِئْتُ أُمْسِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي مَا خَلَقَكَ أَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ فَقُلْتُ بَلَى إِيَّيْ وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِغُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِييَّ وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِيَّيْ لِأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَمَنْ حَتَّى يَفْضِي اللَّهُ فِيكَ فَفُئْتُ وَتَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنِبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلَّفُونَ قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْتِبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأَكْذَبَ نَفْسِي ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَّ هَذَا مَعِيَ أَحَدٌ قَالُوا نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ فَقُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بِنْتُ الرَّبِيعِ الْعُمَرِيَّةُ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَعَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِئْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا بَيْنَكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدُهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَكْتُ شَفْتَيْهِ بَرْدَ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ثُمَّ أَصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ فِإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا التَّمْتُ نَحْوَهُ أُعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعَلَّمَنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ قَالَ فَبَيْنَا أَنَا أُمْسِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ بِيَعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ عَسَانَ فِإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ فَالْحَقُّ بِنَا نُؤَاسِكَ فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنَوُّرَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْحُمْسِينَ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَرَلَ امْرَأَتَكَ فَقُلْتُ أَطَلُّهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلْ اعْتَرَلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا وَأَرْسَلْ إِلَى صَاحِبِي مِثْلَ ذَلِكَ لَامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكَ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَفْضِي اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَعْبٌ فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَا يَثْرَبُكَ قَالَتْ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لَامْرَأَةٍ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنَتْهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَلَامِنَا فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بِيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَافَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَافَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِحٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلَعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبَشِرْ قَالَ فَخَرَزْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَأَذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ تَوْبِيَّ فَكَسَوْتُهُ إِبَاهُمَا بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعْرَضْتُ تَوْبِيَّ فَلَبِسْتُهُمَا وَأَنْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ قَالَ كَعْبُ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يُهَزُّهُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ الشَّرورِ أَبَشِرْ بِحَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ قَالَ قُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالَ لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنْارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَخْلَجَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قُلْتُ فَإِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِحَيْرٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِذَا جَاءَنِي بِالصَّدَقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيَتْ فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَتْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَى قَوْلِهِ وَكُوتُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَى قَوْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} قَالَ كَعْبُ وَكُنَّا نَخْلِفُنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ فَبَدَّلَكَ قَالَ اللَّهُ {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا} وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خَلَفْنَا عَنْ الْعَزْوِ إِذَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِذَا نَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرًا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ

د/أحداث وتشريعات هذه المرحلة

1/أحداث المرحلة

1/ عام الوفود آخر سنة ثمان بعد رجوعه من الجعرانة وبعد تبوك¹: الوفود كان بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الجعرانة في أواخر سنة 8هـ وما بعدها، وذكر بن إسحاق أن الوفود كانوا بعد غزوة تبوك، نعم اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة 9هـ، قال بن هشام حدثني أبو عبيدة قال كانت سنة 9هـ تسمى سنة الوفود، وقد سرد محمد بن سعد في الطبقات الوفود وتبعه الدمياطي في السيرة التي جمعها وتبعه بن سيد الناس ومغلطاي وفي نظم السيرة ومجموع ما ذكره يزيد على الستين².

2/ قدوم أهل اليمن: كان قدوم وفد حمير في سنة 9هـ وهي سنة الوفود، ولاجل هذا اجتمعوا مع بني تميم³.

3/ وفد بني تميم: بن مُرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار، وذكر بن إسحاق أن أشراف بني تميم قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم منهم عطارد بن حاجب الدارمي، والأقرع بن حابس الدارمي، والزيرقان بن بدر السعدي، وعمرو بن الأهثم المنقري، والحباب بن يزيد الجاشعي، ونعيم بن يزيد بن قيس بن الحارث، وقيس بن عاصم المنقري، قال ابن إسحاق ومعهم عيينة بن حصن، وكان الأقرع وعيينة شهدا الفتح ثم كانا مع بني تميم، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته، ذكر الواقدي أن سبب بعث عيينة أن بني تميم أغاروا على ناس من خزاعة فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم عيينة بن حصن في خمسين ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري فأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا فقدم رؤسأؤهم بسبب ذلك قال بن سعد كان ذلك في المحرم سنة 9هـ⁴.

4/ وفد عبد القيس: هي قبيلة كبيرة يسكنون البحرين، ينسبون إلى عبد القيس بن أفضى بن دُعَمِيّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وكان لعبد القيس وفادتان إحداهما قبل الفتح، وثانيتها كانت في سنة الوفود وكان عددهم حينئذ أربعين رجلا فيهم الجارود العبدي، وقد ذكر بن إسحاق قصته وأنه كان نصرانيا فأسلم وحسن إسلامه، ويؤيد التعداد ما أخرجه بن حبان من وجه آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم مالي أرى ألوانكم تغيرت ففيه إشعار بأنه كان رآهم قبل التغير⁵.

5/ وفد بني حنيفة في سنة 9هـ: أما حنيفة فهو بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، وهي قبيلة كبيرة شهيرة ينزلون اليمامة بين مكة واليمن، وكان وفد بني حنيفة في سنة 9هـ، وذكر الواقدي أنهم كانوا سبعة عشر رجلا فيهم مسيلمة⁶.

روى البخاري عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قَبْلَ بَحْدِ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ تُمَامَةُ بْنُ أَنُتَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا تُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلَنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٌ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا

¹- ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص684

²- ابن حجر: فتح الباري، [ج7/684]

³- فتح الباري، ج7، ص701

⁴- ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص684-685

⁵- ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص686-687

⁶- ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص688

شئت فترك حتى كان العُدُّ ثم قال له ما عندك يا ثمامة قال ما قلت لك إن تُنعم تُنعم على شاكرٍ فتركه حتى كان بعد العُدِّ فقال ما عندك يا ثمامة فقال عندي ما قلت لك فقال أطلِّعوا ثمامة فأنطلق إلى بئجِلٍ قريبٍ من المسجد فاعتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله يا محمدُ والله ما كان على الأرضِ وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك فقد أصبحَ وجهك أحبَّ الوجوهِ إليَّ والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دينك فأصبحَ دينك أحبَّ الدينِ إليَّ والله ما كان من بلدٍ أبغضَ إليَّ من بلدك فأصبحَ بلدك أحبَّ البلادِ إليَّ وإنَّ حَيْلَكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتِمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ فَائِلٌ صَبَّوتُ قَالَ لَا وَلَكِنْ أَسَلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ¹، وأما ثمامة بن أثال فابوه ابن النعمان بن مسلمة الحنفي وهو من فضلاء الصحابة وكانت قصته قبل وفد بني حنيفة بزمان، فإن قصته صريحة في أنها كانت قبل فتح مكة، زاد ابن هشام قال بلغني أنه خرج معتمرا حتى إذا كان ببطن مكة لبي فكان أول من دخل مكة يلي فأخذته قريش فقالوا لقد اجترأت علينا وأرادوا قتله فقال قائل منهم دعوه فإنكم تحتاجون إلى الطعام من اليمامة فتركوه، فاعتمر ثمامة ثم رجع إلى بلاده ثم منعهم أن يميروا أهل مكة ثم شكوا أهل مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ثم بعث يشفع فيهم عند ثمامة، زاد ابن هشام ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئا فكتبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنك تأمر بصلة الرحم فكتب إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل إليهم².

وفي قصة ثمامة من الفوائد ربط الكافر في المسجد والمن على الأسير الكافر وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبا في ساعة واحدة، لما اسداه النبي صلى الله عليه وسلم إليه من العفو والمن بغير مقابل، وفيه الاغتسال عند الإسلام، وأن الإحسان يزيل البغض ويثبت الحب، وأن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير، وفيه الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير³.

وروى مسلم عن ابن عباس قال قال قديمٌ مُسَيِّمَةٌ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَقُولُ إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ فَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَفِي يَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِطْعَةٌ جَرِيدَةٍ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيِّمَةَ فِي أَصْحَابِهِ قَالَ لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أُعْطَيْتُكَهَا وَلَنْ أَتَعَدَّى أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ وَلَنْ أَدْبَرْتُ لِيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ وَإِنِّي لَأُرَاكَ الَّذِي أُرِيْتُ فِيكَ مَا أُرِيْتُ وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي ثُمَّ انصرفت عنه فقال ابنُ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُ عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكَ أَرَى الَّذِي أُرِيْتُ فِيكَ مَا أُرِيْتُ فَأَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ

¹ - كتاب المغازي، باب: وفد بني حنيفة، رقم: 4372

² - ابن حجر: فتح الباري، ج 7، ص 688-689-690

³ - ابن حجر: فتح الباري، ج 7، ص 690

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا فَأَوْحَى إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ أَنَّ انْفُخْتُهُمَا فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا فَأَوْلَتْهُمَا كَذَّابِينَ يَخْرُجَانِ مِنْ بَعْدِي فَكَانَ أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيُّ صَاحِبَ صَنْعَاءَ وَالْآخَرُ مُسَيْلِمَةَ صَاحِبَ الْيَمَامَةِ¹.

وروى البخاري عن صالح عن ابن عبيدة بن نسيط وكان في موضع آخر اسمه عبد الله أن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال بلغنا أن مسيلمة الكذاب قدم المدينة فنزل في دار بنت الحارث وكان تحتها بنت الحارث بن كرز وهي أم عبد الله بن عامر فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس وهو الذي يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيب فوقف عليه فكلمه فقال له مسيلمة إن شئت خلّيت بيننا وبين الأمر ثم جعلته لنا بعدك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتك وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت وهذا ثابت بن قيس وسيحيبك عني فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم قال عبيد الله بن عبد الله بن عباس عن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ذكر فقال ابن عباس ذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا نائم أريت أنه وضع في يدي سواران من ذهب ففطعتهما وكرهتتهما فأدب لي فنفختهما فطارا فأولتتهما كذابين يخرجان فقال عبيد الله أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن والآخر مسيلمة الكذاب².

قال ابن حجر: مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة وهو صاحب اليمامة، قدم المدينة فنزل في دار رملة بنت الحارث بن كرز وكانت تحتها ابنة الحارث بن كرز وهي أم عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، والصواب أم أولاد عبد الله بن عامر لأنها زوجته لا أمه، فإن أم بن عامر ليلي بنت أبي حنمة العدوية، واسمها كيسة وهي بنت عبد الله بن عامر بن كرز ولها منه، وكانت كيسة قبل عبد الله بن عامر بن كرز تحت مسيلمة الكذاب، وإذا ثبت ذلك ظهر السر في نزول مسيلمة وقومه عليها لكونها كانت امرأته، وأما ما وقع عند ابن إسحاق أنهم نزلوا بدار بنت الحارث، وذكر غيره أن اسمها رملة بنت الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن زيد وهي من الأنصار ثم من بني النجار وله صحبة، وتكنى أم ثابت وكانت زوج معاذ بن عفراء الصحابي المشهور، فكلام بن سعد يدل على أن دارها كانت معدة لنزول الوفود فإنه ذكر في وفد بني محارب وبني كلاب وبني تغلب وغيرهم أنهم نزلوا في دار بنت الحارث، وكذا ذكر بن إسحاق أن بني قريظة حبسوا في دار بنت الحارث، والصواب ما وقع عند بن إسحاق وأن مسيلمة والوفد نزلوا في دار بنت الحارث وكانت دارها معدة للوفود وكان يقال لها أيضا بنت الحارث كذا صرح به محمد بن سعد في طبقات النساء فقال رملة بنت الحارث ويقال لها ابنة الحارث بن ثعلبة الأنصارية وساق نسبها وأما زوجة مسيلمة وهي كيسة بنت الحارث، وكان مسيلمة عند قومه ذا مقام فيقال له رحمان اليمامة، لعظم قدره فيهم وفي

¹ - كتاب الرؤيا، باب: رؤيا النبي، رقم: 4218، والبخاري: باب: وفد بني حنيفة، رقم: 4373

² - كتاب: المغازي، باب: قصة الأسود العنسي، رقم: 4379

هذا الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع به وخاطبه وصرح له بحضرة قومه أنه لو سأله القطعة الجريدة ما أعطاه، قال ابن إسحاق ادعى النبوة سنة 10هـ¹.

ويستفاد من هذه القصة أن الإمام يأتي بنفسه إلى من قدم يريد لقاءه من الكفار إذا تعين ذلك طريقا لمصلحة المسلمين، ويؤخذ منه استعانة الإمام بأهل البلاغة في جواب أهل العناد ونحو ذلك².

6/ قصة الأسود العنسي: واسمه عيهلة بن كعب ولقبه الأسود، وكان يقال له أيضا ذو الخمار لأنه كان يخمر وجهه، وقيل هو اسم شيطانه تنبأ باليمن فقتل بصنعاء قتله فيروز، خرج بصنعاء وادعى النبوة وغلب على عامل صنعاء المهاجر بن أبي أمية، ويقال أنه مر به فلما حاذاه عثر الحمار فادعى أنه سجد له ولم يقم الحمار حتى قال له شيئا فقام، وروى يعقوب بن سفيان والبيهقي في الدلائل من حديث النعمان بن بُزُج قال خرج الأسود الكذاب وهو من بني عنس، وكان معه شيطانان يقال لأحدهما سحيق والآخر شقيق، وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمور الناس، وكان باذان عامل النبي صلى الله عليه وسلم بصنعاء، فمات فجاء شيطان الأسود فأخبره فخرج في قومه حتى ملك صنعاء وتزوج المرزبانة زوجة باذان، وذكر القصة في مواعدها دادويه وفيروز وغيرهما حتى دخلوا على الأسود ليلا، وقد سقته المرزبانة الخمر حتى سكر، وكان على بابة ألف حارس فنقب فيروز ومن معه الجدار حتى دخلوا فقتله فيروز، واحتز رأسه وأخرجوا المرأة وما أحبوا من متاع البيت، وأرسلوا الخبر إلى المدينة فوافى بذلك عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبو الأسود عن عروة أصيب الأسود قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيوم وليلة فأتاه الوحي فأخبر به أصحابه ثم جاء الخبر إلى أبي بكر رضي الله عنه وقيل وصل الخبر بذلك صبيحة دفن النبي صلى الله عليه وسلم³.

7/ وفد أهل نجران سنة 9هـ: بَنَجْرَان موضع بين الحجاز واليمن، قال في المراصد هو عدة مواضع منها نجران من مخاليف اليمن من ناحية مكة⁴، وهو بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، يشتمل على ثلاثة وسبعين قرية مسيرة يوم للراكب السريع⁵، كان فيها أساقفة مقيمين منهم السيد والعاقب الذين جاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابهما ودعاهم إلى المباهلة وبقوا بها حتى أجالهم عمر رضي الله عنه⁶، والسيد والعاقب صاحبا نجران أما السيد فكان اسمه الأيهم ويقال شرحبيل وكان صاحب رحاهم ومجتمعهم ورئيسهم في ذلك، وأما العاقب فاسمه عبد المسيح وكان صاحب مشورتهم، وكان معهم أيضا أبو الحارث بن علقمة وكان أسقفهم وحبهم وصاحب مدراسهم، ذكر ابن إسحاق أنهم وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهم حينئذ عشرون رجلا لكنه أعاد ذكرهم في الوفود بالمدينة فكأنهم قدموا مرتين⁷، وقال ابن سعد وكان وفد نجران سنة 9هـ¹، وكان النبي صلى الله

¹- ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص691

²- ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص691

³- ابن حجر: فتح الباري، ج7، ص695

⁴- أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية - بيروت ط2، 1415، [ج8/ 193]

⁵- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري [ج7/ 696]

⁶- محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، [ج8/ 193]

⁷- فتح الباري - ابن حجر [ج7/ 696]

عليه وسلم كتب إليهم فخرج إليه وفدهم في أربعة عشر رجلا من أشرفهم، وعند بن إسحاق أيضا من حديث كرز بن علقمة أنهم كانوا أربعة وعشرين رجلا وسرد أسماءهم، ولما دخلوا المسجد النبوي دخلوا في تحمل وثياب حسان وقد حانت صلاة العصر فقاموا يصلون إلى المشرق فقال رسول الله دعوهم²، قال بن سعد دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، فقال إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم فانصرفوا على ذلك، يريدان أن يلاعنا أي يباهلاه، وذكر بن إسحاق أن ثمانين آية من أول سورة آل عمران نزلت في ذلك يشير إلى قوله تعالى: {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ} (61)³، فقال أحدهما لصاحبه فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا أبدا⁴، وفي رواية يونس بن بكير أنه صالحهم على ألفى حلة ألف في رجب وألف في صفر ومع كل حلة أوقية وساق الكتاب الذي كتبه بينهم مطولا وذكر ابن سعد أن السيد والعاقب رجعا بعد ذلك فأسلما⁵، وتوجه معهم أبي عبيدة فقبض مال الصلح ورجع، وذكر بن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عليا إلى أهل نجران ليأتيه بصدقاتهم وحزبتهم فأرسله النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقبض منهم ما استحق عليهم من الجزية ويأخذ ممن أسلم منهم ما وجب عليه من الصدقة⁶.

روى البخاري عن حذيفة قال جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعنا قال فقال أحدهما لصاحبه لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالا إنا نعطيك ما سألتنا وأبعث معنا رجلا أمينا ولا تبعث معنا إلا أمينا فقال لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أمين هذه الأمة⁷.

8/ قدوم وفد بني تميم سنة تسع: بنو تميم بن مَرِّ بن أَدِّ بن طابخة بن إلياس بن مضر وفيهم بطون كثيرة جدا⁸، روى البخاري: عن عمران بن حصين قال جاءت بنو تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبشروا يا بني تميم قالوا أما إذ بشرتنا فأعطينا فتعير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء ناس من أهل اليمن فقال النبي صلى الله عليه وسلم اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قد قبلنا يا رسول الله⁹.

¹ - بدر الدين العيني الحنفي: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، [ج 24/ 381]

² - بدر الدين العيني الحنفي: عمدة القاري، [ج 24/ 381]

³ - [آل عمران: 61]

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج 7/ 697]

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج 8/ 94]

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج 7/ 697]

⁷ - كتاب المغازي، باب: قصة أهل نجران، رقم: 4380

⁸ - فتح الباري - ابن حجر [ج 6/ 544]

⁹ - كتاب المغازي، باب: قدوم الأشعريين وأهل اليمن، رقم: 4386.

9/بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع بعد غزوة تبوك: روى البخاري عن أبي بريدة قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال وبعث كل واحد منهما على مخالفة قال واليمن مخالفة ثم قال يسرا ولا تعسرا ويسرا ولا تنفرا فانطلق كل واحد منهما إلى عمله وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه كان قريبا من صاحبه أحدث به عهدا فسلم عليه فسار معاذ في أرضه قريبا من صاحبه أبي موسى فجاء يسير على بعثته حتى انتهى إليه وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس وإذا رجل عنده قد جمعت يده إلى عنقه فقال له معاذ يا عبد الله بن قيس أئتم هذا قال هذا رجل كفر بعد إسلامه قال لا أنزل حتى يقتل قال إنما جيء به لذلك فأنزل قال ما أنزل حتى يقتل فأمر به فقتل ثم نزل فقال يا عبد الله كيف تقرأ القرآن قال أتفوقه تفوقا قال فكيف تقرأ أنت يا معاذ قال أنا أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم فأقرأ ما كتب الله لي فأحتسب نومي كما أحتسب قومي¹.

قال ابن حجر: واليمن مخالفة هو بلغة أهل اليمن، وهو الكورة والإقليم والرستاق، وكانت جهة معاذ العليا إلى صوب عدن، وكان من عمله الجند وله بها مسجد مشهور إلى اليوم، وكانت جهة أبي موسى السفلى²، وقع في رواية سعيد بن أبي بردة فجعل يتراوران فزار معاذ أبا موسى، زاد في رواية حميد بن هلال فلما قدم عليه ألقى له وسادة، وإذا رجل عنده في رواية سعيد بن أبي بردة أنه يهودي، وكان بعث أبي موسى إلى اليمن بعد الرجوع من غزوة تبوك لأنه شهد غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم، واستدل به على أن أبا موسى كان عالما فطنا حاذقا، ولولا ذلك لم يوله النبي صلى الله عليه وسلم الإمارة، ولو كان فوض الحكم لغيره لم يحتج إلى توصيته بما وصاه به، ولذلك اعتمد عليه عمر ثم عثمان ثم علي، وأما الخوارج والروافض فطعنوا فيه ونسبوه إلى الغفلة وعدم الفطنة لما صدر منه في التحكيم بصفين قال بن العربي وغيره والحق أنه لم يصدر منه ما يقتضى وصفه بذلك، وغاية ما وقع منه أن اجتهاده أداه إلى أن يجعل الأمر شورى بين من بقي من أكابر الصحابة من أهل بدر ونحوهم لما شاهد من الاختلاف الشديد بين الطائفتين بصفين وآل الأمر إلى ما آل إليه³.

10/بعث خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب إلى اليمن قبل حجة الوداع: روى البخاري عن أبي إسحاق سمعت البراء رضي الله عنه يقول بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع خالد بن الوليد إلى اليمن قال ثم بعث عليا بعد ذلك مكانه فقال مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ومن شاء فليقبل فكنث فيمن عقب معه قال فعنمت أواق ذوات عدد⁴، وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن علي قال بعثني النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقلت يا رسول الله تبعني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء، قال فوضع يده على صدري وقال اللهم ثبت لسانه وأهد قلبه، وقال يا علي إذا جلس

¹- كتاب المغازي، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم: 3996.

²- فتح الباري - ابن حجر [ج 8/ 61]

³- فتح الباري - ابن حجر [ج 8/ 62]

⁴- كتاب المغازي، باب: بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم: 4002

إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر، ثم بعث عليا وقال له من شاء من أصحاب خالد أن يعقب معك، أي يرجع إلى اليمن والتعقيب أن يعود بعض العسكر بعد الرجوع ليصيبوا غزوة من الغد، وفي البخاري قال البراء فكنت ممن عقب معه فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلى بنا على وصفنا صفا واحدا ثم تقدم بين أيدينا فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت همدان جميعا فكتب علي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم فلما قرأ الكتاب خر ساجدا ثم رفع رأسه وقال السلام على همدان، وفي آخر الباب حديث جابر أن عليا قدم من اليمن فلاقى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في حجة الوداع¹.

وروى البخاري عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا إِلَى خَالِدٍ لِيَقْبِضَ الْخُمْسَ وَكُنْتُ أُبْغِضُ عَلِيًّا وَقَدْ اغْتَسَلْتُ فَقُلْتُ لِحَالِدٍ أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ يَا بُرَيْدَةُ أَتُبْغِضُ عَلِيًّا فَقُلْتُ نَعَمْ قَالَ لَا تُبْغِضْهُ فَإِنَّ لَهُ فِي الْخُمْسِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ².

11/ باقي أحداث السنة الأخيرة من وفاته -صلى الله عليه وسلم:

ثم دخلت سنة عشرة من الهجرة وهي سنة حجة الوداع فبعث سرية عكاشة بن محصن إلى الجناح فلم يلق كيذا ثم بعث سرية أسامة بن زيد إلى بلقاء من أرض فلسطين قال أثير بدم أبيك فقتل وسي وأحرق ثم بعث سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن لقبض الصدقات ويقال كان مرتين ثم بعث سرية عبد الله بن حذافة السهمي وفي هذه ضربت الوفود إلى رسول الله صلعم وذلك أن الناس كانوا يتربصون بالإسلام فلما أسلمت قريش أسلمت العرب ودخلوا في دين الله أفواجا وفيها حج رسول الله صلعم لخمس بقين من ذي القعدة وأحج نساءه كلهن وساق الهدى وخطب خطبة الوداع ويقال خطبة البلاغ وهي مشهورة في العامة فقال يا أيها الناس اسمعوا قولي فأني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا أبدا وقفل إلى المدينة وفي هذه السنة كتب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله صلعم ثم دخلت سنة إحدى عشرة من الهجرة وهي سنة الوفاة فبعث عمرو بن العاص إلى جيفر بن جلندي الأزدي ملك عمان يدعوه إلى الإسلام وأمر أسامة بن زيد على البعث إلى الشام ومرض رسول الله مرضة قبضه الله فيها وذلك أنه نعي نفسه وأصحابه قبل موته بشهر ثم ابتداء بشكواه في ليال بقين من ربيع الأول صلى الله عليه وعلى آله وصحابه³.

11/تشريعات المرحلة:

¹ - فتح الباري - ابن حجر [8 / 65-66]

² - كتاب المغازي، باب: بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم: 4003

³ - ابن المطهر: البدء والتاريخ [ص 257] موقع الوراق <http://www.alwarraq.com>

1/ حج عتاب بن أسيد سنة ثمان: نقل المحب الطبري قال وإنما حج فيها عتاب بن أسيد، وكأنه تبع الماوردي فإنه قال إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عتابا أن يحج بالناس عام الفتح، والذي جزم به الأزرقى في أخبار مكة خلافه فقال لم يبلغنا أنه استعمل في تلك السنة على الحج أحدا، وإنما ولى عتابا إمرة مكة فحج المسلمون والمشركون جميعا وكان المسلمون مع عتاب لكونه الأمير¹.

2/ حج أبي بكر بالناس في سنة تسع: وقع الاختلاف في أي شهر حج أبو بكر فذكر بن سعد وغيره بإسناد صحيح عن مجاهد أن حجة أبي بكر وقعت في ذي القعدة، وذكر بأن حجة أبي بكر كانت في ذي الحجة كالدوادى وبه جزم من المفسرين الرماني والثعلبي والماوردي وتبعهم جماعة، والمعتمد ما قاله مجاهد وبه جزم الأزرقى ويؤيده أن ابن إسحاق صرح بأن النبي صلى الله عليه وسلم أقام بعد أن رجع من تبوك رمضان وشوالا وذا القعدة ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج، فهو ظاهر في أن بعث أبي بكر كان بعد انسلاخ ذي القعدة فيكون حجة في ذي الحجة على هذا، واستدل بهذا الحديث على أن فرض الحج كان قبل حجة الوداع والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة، وقال بن القيم في الهدى ويستفاد أيضا من قول أبي هريرة في حديث الباب قبل حجة الوداع أنها كانت سنة تسع لأن حجة الوداع كانت سنة عشر اتفاقا، وذكر الواقدى أنه خرج في تلك الحجة مع أبي بكر ثلاثمائة من الصحابة، وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بدنة².

روى البخاري عن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمره النبي صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤدون في الناس لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان³.

وفيها نزل قوله تعالى: إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، قال ابن إسحاق نزلت براءة وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا علي الحج، فقبل لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي ثم دعا عليا فقال أخرج بصدر براءة وأذن في الناس يوم النحر بمنى، ومن طريق زيد بن يشيع قال سألت عليا بأي شيء بعثت في الحجة قال بأربع لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يطوف بالبيت عريان ولا يحج بعد العام مشرك ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهد إلى مدته⁴.

3/ حجة الوداع:

*/إسمها وتاريخها: روى الإسماعيلي عن أبي عاصم عن عمر بن محمد: كنا نسمع بحجة الوداع، ولا ندري ما حجة الوداع كأنه شيء ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فتحدثوا به وما فهموا أن المراد بالوداع وداع النبي صلى الله عليه وسلم حتى وقعت وفاته صلى الله عليه وسلم بعدها بقليل، فعرفوا المراد وعرفوا أنه ودع الناس بالوصية التي أوصاهم بها أن لا يرجعوا بعده كفارا وأكد

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج7/683]

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، [ج7/683-684]

³ - كتاب المغازي، باب: حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، رقم: 4363

⁴ - ابن حجر: فتح الباري، [ج7/684]

التوديع بأشهاد الله عليهم بأنهم شهدوا أنه قد بلغ ما أرسل إليهم به فعرفوا حينئذ المراد بقولهم حجة الوداع، وعند البيهقي أن سورة إذا جاء نصر الله والفتح نزلت في وسط أيام التشريق فعرف النبي صلى الله عليه وسلم أنه الوداع فركب واجتمع الناس فذكر الخطبة فحمد الله وأثنى عليه، وذكر فيه قصة الدجال وفيه ألا إن الله حرم عليكم دماءكم، وهذا يدل على أن هذه الخطبة كلها كانت في حجة الوداع، وقد ذكر الخطبة في حجة الوداع جماعة من الصحابة لم يذكر أحد منهم قصة الدجال فيها إلا بن عمر بل اقتصر الجميع على حديث أن أموالكم عليكم حرام¹، وكانت قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بأكثر من ثمانين يوماً، وقد ذكر جرير أنه حج مع النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع²، ذكر جابر في حديثه الطويل في صفتها كما أخرجه مسلم وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين أي منذ قدم المدينة لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة أن النبي صلى الله عليه وسلم حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي حديث بن عباس أن خروجه من المدينة كان لخمسة بقين من ذي القعدة، وجزم بن حزم بأن خروجه كان يوم الخميس، ويحمل قول من قال لخمسة بقين أي إن كان الشهر ثلاثين فاتفق أن جاء تسعا وعشرين فيكون يوم الخميس أول ذي الحجة بعد مضي أربع ليال لا خمس وبهذا تتفق الأخبار هكذا جمع الحافظ عماد الدين بن كثير بين الروايات وقوى هذا الجمع بقول جابر أنه خرج لخمسة بقين من ذي القعدة أو أربع وكان دخوله صلى الله عليه وسلم مكة صباح رابعة كما ثبت في حديث عائشة وذلك يوم الأحد وهذا يؤيد أن خروجه من المدينة كان يوم السبت كما تقدم فيكون مكثه في الطريق ثمان ليال وهي المسافة الوسطى ثم ذكر المصنف في الباب سبعة عشر حديثاً تقدم غالبها في كتاب الحج مشروحة وسأبين ذلك مع مزيد فائدة الحديث الأول حديث عائشة وقد تقدم شرحه مستوفى في باب التمتع والقرآن من كتاب الحج³.

* /حجة الوداع حجته - صلى الله عليه وسلم- الوحيدة بعد الهجرة: روى البخاري في باب حجة الوداع، عن عائشة رضي الله عنها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فأهللنا بعمرته ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً فقدمت معه مكة وأنا حائض ولم أطف بالبيت ولا ببرئ الصفا والمروة⁴...، وروى مسلم عن أبي إسحاق قال حدثني زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا تسع عشرة وأنه حج بعد ما هاجر حجة واحدة وحجة الوداع قال أبو إسحاق وبمكة أخرى⁵.

وأنه حج بعد ما هاجر حجة واحدة لم يحج بعدها حجة الوداع يعني ولا حج قبلها إلا أن يريد نفى الحج الأصغر وهو العمرة فلا فإنه اعتمر قبلها قطعاً، قال أبو إسحاق وبمكة أخرى وغرض أبي إسحاق أن لقوله بعد ما هاجر مفهوماً، وأنه قبل أن

¹ - فتح الباري - ابن حجر [8/ 107]

² - فتح الباري - ابن حجر [8/ 108]

³ - فتح الباري - ابن حجر [8/ 104]

⁴ - كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع، رقم: 4395.

⁵ - كتاب: الحج، باب: عدد عمر النبي وزمانه، رقم: 2198.

يهاجر كان قد حج لكن اقتصره على قوله أخرى قد يوهم أنه لم يحج قبل الهجرة إلا واحدة وليس كذلك بل حج قبل أن يهاجر مرارا بل الذي لا ارتاب فيه أنه لم يترك الحج وهو بمكة قط لأن قريشا في الجاهلية لم يكونوا يتركون الحج وإنما يتأخر منهم عنه من لم يكن بمكة أو عاقه ضعف وإذا كانوا وهم على غير دين يحرصون على إقامة الحج ويرونه من مفاخرهم التي امتازوا بها على غيرهم من العرب فكيف يظن بالنبي صلى الله عليه و سلم أنه يتركه وقد ثبت من حديث جبير بن مطعم أنه رآه في الجاهلية واقفا بعرفة وأن ذلك من توفيق الله له وثبت دعاؤه قبائل العرب إلى الإسلام بمضى ثلاث سنين متوالية كما بينته في الهجرة إلى المدينة¹.

* /أحداثها في صحيح مسلم: روى مسلم: عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَسَأَلَ عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ فَقُلْتُ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى رَأْسِي فَزَعَزَعْتُ زُرِّي الْأَعْلَى ثُمَّ نَزَعْتُ زُرِّي الْأَسْفَلَ ثُمَّ وَضَعْتُ كَفَّهُ بَيْنَ تَدْيِي وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ شَابٌّ فَقَالَ مَرَّحَبًا بِكَ يَا ابْنَ أَخِي سَلْ عَمَّا شِئْتَ فَسَأَلْتُهُ وَهُوَ أَعْمَى وَخَصَرَ وَفُتَّ الصَّلَاةَ فَقَامَ فِي نَسَاجَةٍ مُلْتَحِمًا بِهَا كَلَّمَا وَضَعَهَا عَلَى مَنْكِبِي رَجَعَ طَرَفَاهَا إِلَيْهِ مِنْ صِغَرِهَا وَرِدَاؤُهَا إِلَى جَنْبِهِ عَلَى الْمَشْحَبِ فَصَلَّى بِنَا فَقُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ بِيَدِهِ فَعَقَدَ تِسْعًا فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ ثُمَّ أَدَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاجٌّ فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بِشَرِّ كَثِيرٍ كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَيْنَا دَا الْحَلِيفَةَ فَوَلَدَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ أَصْنَعُ قَالَ اغْتَسِلِي وَاسْتَنْفِرِي بِتَوْبٍ وَأَحْرِمِي فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ رَكِبَ الْقُصْوَاءَ حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصْرِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهَرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ... فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِمِرَّةٍ فَنَزَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاعَتْ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقُصْوَاءِ فَرَحَلَتْ لَهُ فَأَتَى بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دِمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دِمَ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدِ فَقَتَلْتُهُ هَذَا وَإِنِّي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِيَا أَضَعُ رِيَانَا رِيَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمُ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُوجَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ وَهَنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَبْكُهَا إِلَى النَّاسِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ²...، والمراد حجة الوداع، يعني مكث بالمدينة بعد الهجرة، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج، وأعلمهم بذلك وأشاعه بينهم ليتأهبوا للحج معه، ويتعلموا

¹ - فتح الباري - ابن حجر [8/ 107]

² - صحيح مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي

المناسك والأحكام، ويشهدوا أقواله وأفعاله، ويوصيهم ليلبغ الشاهد الغائب وتشيع دعوة الإسلام، وتبلغ الرسالة القريب والبعيد، حتى أتينا البيت: فيه بيان أن السنة للحجاج أن يدخلوا مكة قبل الوقوف بعرفات ليطوفوا للقُدوم وغير ذلك، وفيه دخل مكة قبل الوقوف بعرفات وطاف طواف القُدوم، ثم استلم الركن معناه مسحه بيده وهو سنة في كل طواف، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرا {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} فجعل المقام بينه وبين البيت، وصلى خلف المقام ركعتي الطواف، وإذا أكثر الطواف استحَب أن يصلي عقب كل طواف ركعتيه، ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا، فيستحب للطائف طواف القُدوم إذا فرغ من الطواف وصلاته خلف المقام أن يعود إلى الحجر الأسود فيستلمه ثم يخرج ليسعى، فلما دنا من الصفا قرا {إن الصفا والمروة من شعائر الله} أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبر وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة، ويشترط ألا يترك شيئا من المسافة بين الصفا والمروة فليصق عقبه بدرج الصفا، إذا وصل المروة ألصق أصابع رجليه بدرجها، يستحب أن يرقى على الصفا والمروة حتى يرى البيت إن أمكنه، والمبيت بمنى هذه الليلة وهي ليلة التاسع من ذي الحجة، ثم يمكث حتى طلوع الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة، وهي موضع بجانب عرفات وليست من عرفات، لأن السنة ألا يدخلوا عرفات إلا بعد زوال الشمس وبعد صلاتي الظهر والعصر جمعا، ويغتسل للوقوف قبل الزوال، فإذا زالت الشمس سار بهم الإمام إلى مسجد إبراهيم عليه السلام، وخطب بهم خطبتين خفيفتين، ويخفف الثانية جدا فإذا فرغ منها صلى بهم الظهر والعصر جمعا بينهما، فإذا فرغ من الصلاة سار إلى الموقف، أتى بطن الوادي وهو وادي عُرنة، فخطب الناس يوم عرفة في هذا الموضع، ومذهب الشافعي أن في الحج أربع خطب مسنونة إحداها يوم السابع من ذي الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر، والثانية هذه التي ببطن عرنة يوم عرفات، والثالثة يوم النحر، والرابعة يوم النفر الأول، وهو اليوم الثاني من أيام التشريق، وكل هذه الخطب أفراد، وبعد صلاة الظهر، إلا التي يوم عرفات فإنها خطبتان وقبل الصلاة، وقال في هذه الخطبة: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا: إبطال أفعال الجاهلية وبيعوها التي لم يتصل بها قبض، وأنه لا قصاص في قتلها، وأول دم وضعه لغلام اسمه إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان هذا الابن المقتول طفلا صغيرا يحبو بين البيوت، فأصابه حجر في حرب كانت بين بني سعد وبني ليث بن بكر، كما أوصى فيها على مراعاة حق النساء والوصية بمن ومعاشرتهن بالمعروف، وقد جاءت أحاديث كثيرة صحيحة في الوصية بمن وبيان حقوقهن، والتحذير من التقصير في ذلك، ونهى عن ضربهن المنتشر بين العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، إلا للتأديب بشرط أن يكون ضربا ليس بشديد ولا شاق، وأوصى فيها بوجوب حقوقهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف¹.

¹ - النووي أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط2، 1392هـ، [ج8/ 183]

*/ما نزل من القرآن يوم عرفة: روى البخاري عن قيس عن طارق بن شهاب قالت اليهود لعمر إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لأخذناها عيداً فقال عمر إني لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت يوم عرفة وإنا والله بعرفة قال سفيان وأشك كان يوم الجمعة أم لا اليوم أكملت لكم دينكم

*/خطبة يوم النحر: روى البخاري عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس ذو الحجة قلنا بلى قال فأبي بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فإن دماءكم وأموالكم قال محمد وأحسبته قال وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فسيسألکم عن أعمالکم ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعن بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه فكان محمد إذا ذكره يقول صدق محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال ألا هل بلغت مرتين¹.

*/خطب أيام العيد: عن حفص بن عمر بن أبي طلحة الأنصاري قال لما أراد عمر بن عبد العزيز أن يحج من المدينة وهو واليهما في خلافة الوليد بن عبد الملك دخل عليه أنس بن مالك وهو يومئذ بالمدينة فقال يا أبا حمزة ألا تخبرنا عن خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال خطب رسول الله بمكة قبل التروية بيوم وخطب بعرفة يوم عرفة وخطب بمنى الغد من يوم النحر والغد من يوم النفر²

مرض ووفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- ونتائجها

أ/مرض النبي -صلى الله عليه وسلم- ووفاته ودفنه

1/بشائر وعلامات الوفاة: لقد حدثت أمور في السنة الأخيرة من حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لم تكن من قبل، أو كانت ولكنها بشكلا يختلف عما حصل له في السنة الأخيرة، وهذه الأمور كلها كانت إشارة إلى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة، وانتهى دوره الذي كان يؤديه، ولعل أبرز هذه الأمور الحاصلة والطارئة والمستجدة في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- في السنة الأخيرة، كانت إشارة إلى وفاته، ومن أهمها: تتابع الوحي وتكاثره، تشبته في صدر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من كتاب الوحي خصوصاً، ونعي النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى نفسه في القرآن الكريم واجتهاده في العبادة أكثر من قبل وغيرها.

¹ - كتاب المغازي، باب: حجة الوداع، رقم: 4046.

² - الطبقات الكبرى [ج5/ 331-332]

1/تابع الوحي: يستدل بتتابع الوحي وتكاثره على النبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة في الستة أشهر الأخيرة على أن الوحي قد كمل وأن الصلة المباشرة بين السماء والأرض بواسطته -صلى الله عليه وسلم- قد انتهت، وأن الدين قد كمل، روى البخاري: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَابَعَ عَلَيَّ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيَ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تَوَفَّاهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ ثُمَّ تُوِّجِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ¹، وهذا يعني أن الزمان الذي وقعت فيه وفاته كان نزول الوحي فيه أكثر من غيره من الأزمنة، فأكثر نزول الوحي كان قرب وفاته صلى الله عليه وسلم، والسر في ذلك أن الوفود بعد فتح مكة كثروا وكثر سؤا لهم عن الأحكام فكثر النزول بسبب ذلك، وقال الإمام الزهري "سألت أنس بن مالك: هل فتر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت قال: أكثر ما كان وأجمه"، فإن الوحي في أول البعثة فتر فترة ثم كثر، وفي أثناء النزول بمكة لم ينزل من السور الطوال إلا القليل، وما بعد الهجرة نزلت السور الطوال المشتملة على غالب الأحكام، إلا أنه كان الزمن الأخير من الحياة النبوية أكثر الأزمنة نزولاً².

2/نعي النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى نفسه في القرآن: إن نعي النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى نفسه في القرآن من أوضح الإشارات وأبرزها، التي دلت على قرب وفاته -صلى الله عليه وسلم-، روى البخاري من حديث ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا الغلام معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم، فقال ما تقولون في قول الله عز وجل: إذا جاء نصر الله والفتح، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت لا؟ فقال ما تقول؟ فقلت هو أجل رسول الله أعلمه له... فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول³، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال لما نزلت... قال رسول الله -ص- نعت إلى نفسي، فإنه مقبوض في تلك السنة⁴، كما روى الطبراني عن ابن عباس قال... فأخذ بأشد ما كان قط اجتهادا في الآخرة⁵.

3/تخيير النبي -صلى الله عليه وسلم- واختياره لقاء ربه: روى البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ عَبْدُ خَيْرِ اللَّهِ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَهُ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ فَدَيْنَاكَ يَا بَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا قَالَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرُ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أُمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّحِداً خَلِيلاً لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ لَا تُبْقِيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ

¹ -صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم: 4982

² -ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني [773-852]: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تح: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية القاهرة، ط3، 1407هـ، ج 8، ص 617

³ -صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، رقم: 4970

⁴ -مسند أحمد

⁵ -ابن كثير عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقي [774هـ]: تفسير بن كثير، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1414هـ/1990م، ج 7، ص 218

خَوْخَةَ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ¹، وكان أبو بكر رضي الله عنه علم أن النبي صلى الله عليه وسلم هو العبد المخير، فبكى حزنا على فراقه وانقطاع الوحي، وغيره من الخير².

كما روى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَأَخَذَتْهُ بَحَّةٌ يَقُولُ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ³، فهم عائشة من قوله صلى الله عليه وسلم: "في الرفيق الأعلى" أنه خير، نظير فهم أبيها رضي الله عنها من قوله صلى الله عليه وسلم: "إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده" أن العبد المراد هو النبي صلى الله عليه وسلم حتى بكى، قال السهيلي: وجدت في بعض كتب الواقدي أن أول كلمة تكلم بها صلى الله عليه وسلم وهو مسترضع عند حليلة "الله أكبر" وآخر كلمة تكلم بها كما في حديث عائشة "في الرفيق الأعلى"⁴، وروى أحمد من حديث أبي مويهبة قال: "قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة فاخترت لقاء ربي والجنة"⁵.

ويعضد هذا ماورد في البخاري: عَنْ عُرْوَةَ بِنِ الرُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يَحْيَا أَوْ يُخَيَّرُ فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَحْدِ عَائِشَةَ غَشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَّصَ بَصَرَهُ نَحْوَ سَفْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى فَقُلْتُ إِذَا لَا يُجَاوِرُنَا فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ⁶.

11/علامات مرض النبي-صلى الله عليه وسلم-

1/علامات مرض الكبر: روى الترمذي عَنْ حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا حَتَّى كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِعَامٍ فَإِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا وَيَقْرَأُ بِالسُّورَةِ وَيُرْتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلٍ مِنْهَا⁷، قال في تحفة الأحودي: أي أن النبي صلى الله عليه وسلم مدة سنة قبل وفاته ظهرت عليه علامات الضعف والمرض حتى صار يصلي جالسا، وكان يصلي قبل ذلك قائما حتى تفتطرت قدماه-صلى الله عليه وسلم-⁸.

¹ - صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي-صلى الله عليه وسلم-سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر: رقم:3654، وكتاب المناقب، باب: هجرة النبي

وأصحابه إلى المدينة، رقم:3615

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص16-17

³ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي ووفاته، رقم:4081

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص744

⁵ - مسند الإمام أحمد: كتاب: مسند المكين، باب: حديث أبي مويهبة مولى رسول الله، رقم:15424

⁶ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي ووفاته، رقم:4083

⁷ - سنن الترمذي: كتاب الصلاة، باب: ما جاء في الرجل يتطوع جالسا، رقم:340، وأخرجه أحمد ومسلم والنسائي

⁸ - تحفة الأحودي

وَعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «لَمَّا بَدَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقَلَّ، كَانَ أَكْثَرَ صَلَاتِهِ جَالِسًا»¹، قال القاضي عياض رحمه الله قال أبو عبيد في تفسير هذا الحديث بدن الرجل بفتح الدال المشددة تبدينا إذا أسن²، وعن أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ حَتَّى كَانَ كَثِيرًا مِنْ صَلَاتِهِ وَهُوَ جَالِسٌ»³، وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُوتِرُ بِتِسْعٍ حَتَّى إِذَا بَدَنَّ وَكَثُرَ لَحْمُهُ أُوتِرَ بِسَبْعٍ، وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ يَفْرَأُ فِيهِمَا: {إِذَا زُلْزِلَتْ} وَ{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}⁴ وزاد الطبراني و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}⁵، قال السندي: قولها: فلما بدَّ، ككزَّم من البدانة، بمعنى كثرة اللحم، وبالتشديد بمعنى كبر السن، وقد ضبط هاهنا بالتشديد، وهو الوجه، لئلا يكون قوله: لحم تكررًا، ولحم كعلم وكرم: إذا كثر لحمه⁶.

عن معاوية بن أبي سفيان : عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: (لا تبادروني بالركوع والسجود فإني ما أسبقكم به حين أسجد تدركوني به إذا رفعت وما أسبقكم به حين أركع تدركوني به حين أرفع و إني قد بدنت)⁷، قَوْلُهُ: «بَدَّنتُ» مُشَدَّدَةٌ الدَّالِ، مَعْنَاهُ: كَبُرَ السِّنُّ، يُقَالُ: بَدَنَّ الرَّجُلُ تَبْدِينًا: إِذَا أَسَنَّ، وَبَعْضُهُمْ يَرَوِي: بَدَّنتُ مَضْمُومَةً الدَّالِ مُحَقَّقَةً، وَمَعْنَاهُ: زِيَادَةُ الْجِسْمِ، وَاحْتِمَالُ اللَّحْمِ، وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «لَمَّا طَعَنَ فِي السِّنِّ احْتَمَلَ بَدَنَهُ اللَّحْمَ»⁸

2/أسباب مرض النبي -صلى الله عليه وسلم-: روى البخاري في باب مَرَضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَفَاتِهِ: من حديث عُرْوَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْرٍ فَهَذَا أَوَانٌ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ⁹.

¹ - باب جواز النافلة قائما قاعدا، مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ج1/ 506)

² - باب جواز النافلة قائما قاعدا، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (261هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ج1/ 506)

³ - باب جواز النافلة قائما قاعدا، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (261هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ج1/ 506)

⁴ - زَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ

⁵ - أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، ط2،، 1404هـ/ 1983م، (ج8/ 277)

⁶ - أحمد بن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/ 2001م، (ج43/ 76)

⁷ - الطبراني: المعجم الكبير (ج19/ 367)

⁸ - البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 516هـ): شرح السنة، تح: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط2، 1403هـ/ 1983م، (ج3/ 415)

⁹ -صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي-ص-ووفاته، رقم:4428

وأما ابتداء مرضه فكان في بيت ميمونة، واختلف في مدة مرضه، فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يوماً، يؤكد ذلك ما رواه ابن سعد من طريق عمر بن علي بن أبي طالب قال: "اشتكى رسول الله يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر فاشتكى ثلاث عشرة ليلة، ومات يوم الاثنين لاثني عشرة مضت من ربيع الأول¹، وروى أبو داود عن ابن شهاب قال كان جابر بن عبد الله يحدث أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية ثم أهدتها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذراع فأكل منها وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ارفعوا أيديكم وأرسل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى اليهودية فدعاها فقال لها أسمت هذه الشاة قلت اليهودية من أخبرك قال أخبرني هذه في يدي للذراع، قالت نعم، قال فما أردت على ذلك قالت قلت إن كان نبيا فلن يضره وإن لم يكن نبيا استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يعاقبها، وتوفى بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة واحتجم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على كاهله... فمات بشر بن البراء بن معمر الأنصاري فأرسل إلى اليهودية... فأمر بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقتلت²، وللحاكم موصول من حديث أم مبشر قالت: "قلت: يا رسول الله ما تتهم بنفسك؟ فإني لا أتهم بابني إلا الطعام الذي أكل بخيبر، وكان ابنها بشر بن البراء بن معمر مات إثر ذلك، فقال وأنا لا أتهم غيرها³، وعن الواقدي بأسانيد متعددة في قصة الشاة التي سمت له في غزوة خيبر⁴، فقال في آخر ذلك: "وعاش بعد ذلك ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي قبض فيه، وتوفي شهيدا⁵."

3/تمريره في بيت عائشة: قال صاحب المختصر في أخبار البشر: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من حجة الوداع أقام بالمدينة، وابتدأ مرضه لليليتين بقيتا من صفر سنة 11هـ، وهو في بيت زينب بنت جحش وكان يدور على نسائه، فجمعهن وهو في بيت ميمونة بنت الحارث، واستأذنه في أن ينام في بيت إحداهن، فأذن له أن يمرض في بيت عائشة -رضه- فانتقل إليها⁶، وروى البخاري عن عائشة قالت إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعدد في مرضه أين أنا اليوم أين أنا غدا استبطاء ليوم عائشة فلما كان يومي قبضه الله بين سحرى وسحرى ودون في بيتي⁷، وروى البخاري: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عائشة قالت لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم واشتد به وجعه استأذن أزواجه في أن يمرض في بيتي فأذن له فخرج النبي صلى الله عليه وسلم بين رجلين تحط رجلاه في الأرض بين عباس ورجل آخر قال عبيد الله فأخبرت عبد الله بن عباس فقال أتدري من الرجل الآخر قلت لا قال هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانت عائشة رضي الله عنها تحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص736

² - سنن أبي داود: كتاب الديات، باب: فيمن سقي رجلا سما أو أطعمه فمات أيقاد منه، رقم: 3911

³ - الحاكم

⁴ - نص الحديث في البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- شاة فيها سم، كتاب المغازي، باب: الشاة التي سمت للنبي -صلى الله عليه وسلم- بخيبر، فقال لها ما حملك على ذلك؟ قالت أردت إن كنت نبيا فيطلعك الله، وإن كنت كاذبا فأريح الناس منك، قال فما عرض لها، ابن

حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص569

⁵ - الواقدي

⁶ - المختصر في أخبار البشر، ج1، ص151

⁷ - صحيح البخاري: كتاب الجنائز، ما جاء في قبر النبي وأبي بكر وعمر، رقم: 1300

بَعْدَمَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَاشْتَدَّ وَجَعُهُ هَرَبُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قَرَبٍ لَمْ تُحَلَّلْ أَوْ كَيْتُهُنَّ لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ وَأَجْلِسَ فِي مِحْضَبِ حِفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ طَفِقْنَا نَضُبُّ عَلَيْهِ تِلْكَ حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا أَنْ قَدْ فَعَلْتُمْ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى بِهَمْ وَخَطَبَهُمْ¹ ، قال الخطابي: يشبه أن يكون خص السبع تبركا بهذا العدد، والظاهر أن ذلك للتداوي وأجلس في محضب حفصة وكان من نحاس² .

4/الرقية والاستطباب: روى البخاري: عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُؤْفِي فِيهِ طَفِقْتُ أَنْفَثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ وَأَمْسَحَ بِيَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ³ ، وفي رواية المفضل بن فضالة عن عقيل في فضائل القرآن "كان إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما ثم يقرأ قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس" والمراد بالمعوذات سورة قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس⁴ ، كما روى البخاري: عن عائشة قَالَتْ لَدَدْنَا فِي مَرَضِهِ فَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْنَا أَنْ لَا تَلْدُونِي فَعَلْنَا كَرَاهِيَةَ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ أَلَمْ أَنَهَكُمُ أَنْ تَلْدُونِي فَعَلْنَا كَرَاهِيَةَ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ فَقَالَ لَا يَبْقَى أَحَدٌ فِي الْبَيْتِ إِلَّا لَدَّ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَّا الْعَبَّاسَ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ⁵ ، وإنما فعل بهم ذلك عقوبة لهم لتركهم امتثال نهيهم عن ذلك، أما من باشره فطاهر، وأما من لم يباشره فلكونهم تركوا نهيهم عما نهاهم هو عنه، والذي يظهر أنه أراد بذلك تأديبهم لئلا يعودوا، فكان ذلك تأديبا لا قصاصا ولا انتقاما، قيل: وإنما كره اللد مع أنه كان يتداوى لأنه تحقق أنه يموت في مرضه، ومن حقق ذلك كره له التداوي، والذي يظهر أن ذلك كان قبل التخيير والتحقيق، وإنما أنكر التداوي لأنه كان غير ملائم لدائه، لأنهم طنوا أن به ذات الجنب فداووه بما يلائمها⁶ .

111/أهم أعماله آخر حياته

1/تجهيز جيش أسامة لغزو الروم: روى البخاري: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثًا وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنْ كَانَ لَخَلِيفًا لِلإِمَارَةِ وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ⁷ ، جاء في شرح النووي: وإن كان لخليفا للإمارة أي حقيقا بها، وكان أسامة صغيرا جدا، توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، وقيل: عشرين، وفي هذه الأحاديث فضائل ظاهرة لزيد ولأسامة رضي الله عنهما⁸ .

¹ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4442

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص748

³ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4439

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج6، ص737

⁵ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4458

⁶ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج6، ص745

⁷ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4469

⁸ - شرح النووي على مسلم (ج15/196)

2/تقديمه لأبي بكر في الصلاة: روى البخاري: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ بَلَى تُقَالُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَصَلَّى النَّاسُ قُلْنَا لَا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ قَالَ ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ قَالَتْ فَفَعَلْنَا فَاعْتَسَلَ فَذَهَبَ لِيَنْوِيَ فَأُعْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَلَّى النَّاسُ قُلْنَا لَا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ قَالَتْ فَفَعَدَ فَاعْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْوِيَ فَأُعْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ صَلَّى النَّاسُ قُلْنَا لَا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الْأَيَّامَ ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِيفَةً فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَلَاةِ الطُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ لَا يَتَأَخَّرَ قَالَ أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّيَ وَهُوَ يَأْتُمُّ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَدَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ لَهُ أَلَا أَعْرِضُ عَلَيْكَ مَا حَدَّثْتَنِي عَائِشَةُ عَنْ مَرَضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَاتِ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَدِيثَهَا فَمَا أَنْكَرَ مِنْهُ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ أَسَمَّتْ لَكَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ مَعَ الْعَبَّاسِ قُلْتُ لَا قَالَ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ¹، قال ابن حجر: وقد صرح الشافعي بأنه صلى الله عليه وسلم لم يصل بالناس في مرض موته في المسجد إلا مرة واحدة، وهي هذه التي صلى فيها قاعدا، وكان أبو بكر فيها أولا إماما ثم صار مأموما يسمع الناس التكبير، وقد صلى صلى الله عليه وسلم قبله خلف عبد الرحمن بن عوف، وهو ثابت بلا خلاف، وصرح أيضا أنه صلى خلف أبي بكر، ... صلاته في مرض موته فإنها كانت في المسجد يجمع كثير من الصحابة، فاحتاج أبو بكر أن يسمعهم التكبير، في تلك الحالة لأنه يحمل على أن صوته صلى الله عليه وسلم كان خفيا من الوجود، وكان من عادته أن يجهر بالتكبير فكان أبو بكر يجهر عنه بالتكبير لذلك².

كما روى البخاري: عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَذَكَرْنَا الْمُوَاطَّعَةَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالتَّعْظِيمَ لَهَا قَالَتْ لَمَّا مَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَحَضَرَتْ الصَّلَاةَ فَأُذِّنَ فَقَالَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ وَأَعَادَ فَأَعَادُوا لَهُ فَأَعَادَ الثَّلَاثَةَ فَقَالَ إِنَّكَ صَوَاحِبُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فَصَلَّى فَوَجَدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَفْسِهِ خِيفَةً فَخَرَجَ يُهَادِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ كَأَنِّي أَنْظُرُ رِجْلَيْهِ تَحْتَاطَانِ مِنَ الْوَجَعِ فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ مَكَانَكَ ثُمَّ أَتَى بِهِ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ قِيلَ

¹- صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب: إنما جعل الإمام ليؤتم به، رقم: 646

²- ابن حجر: فتح الباري، ج2، ص207

لِلأَعْمَشِ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِصَلَاتِهِ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ بِرَأْسِهِ نَعَمْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ بَعْضُهُ وَزَادَ أَبُو مُعَاوِيَةَ جَلَسَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي قَائِمًا¹

قول عائشة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إنه أسيف من الأسف وهو شدة الحزن، والمراد أنه رقيق القلب، قال عاصم والأسيف الرقيق الرحيم، ومن حديث ابن عمر في هذه القصة " فقالت له عائشة: إنه رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء"، ومن رواية مالك عن هشام عن أبيه عنها بلفظ "قالت عائشة: قلت إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر" وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشاءم الناس به، وقد صرحت هي فيما بعد ذلك فقالت "لقد راجعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يجب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أبي بكر"².

3/خروجه للخطبة وهو مريض: روى البخاري عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يَمْرُضَ فِي بَيْتِي فَأَذِنَ لَهُ فَخَرَجَ وَهُوَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَحْتَ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ ... قَالَتْ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى بِهِمْ وَخَطَبَهُمْ³.

وروى البخاري: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبٌ رَأْسَهُ بِحِزْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ خَلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةٍ أَبِي بَكْرٍ⁴، وفي فضل أبي بكر من حديث ابن عباس "أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في مرضه - فذكر الحديث وقال فيه - لو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر، وفيه: أنه آخر مجلس جلسته"⁵

4/تفقدته للمصلين في المسجد: روى البخاري: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ وَكَانَ تَبَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَدَمَهُ وَصَحْبُهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ فَكَشَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَهُ مُصْحَفٍ ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ فَهَمَمْنَا أَنْ

¹-صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب: حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم: 624

²-صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4445

³- صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4088

⁴-صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب: الخوخة والممر في المسجد، رقم: 447

⁵-ابن حجر: فتح الباري، ج 7، ص 748

نَفْتَتَنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَصَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقْبِيهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَارِجٌ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتُوا صَلَاتَكُمْ وَأَرْحَى السُّتْرَ فَتُوِّبِي مِنْ يَوْمِهِ¹.

5/إرادة النبي -صلى الله عليه وسلم- كتابة الكتاب: روى البخاري: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا اشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعُهُ قَالَ اثْنُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ قَالَ عُمَرُ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّعْطُ قَالَ قَوْمُوا عَنِّي وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ الرِّزْيَةَ كُلَّ الرِّزْيَةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ كِتَابِهِ²، قال القرطبي وغيره: وكان حق المأمور أن يبادر للامتثال، لكن ظهر لعمر رضي الله عنه مع طائفة أنه ليس على الوجوب، وأنه من باب الإرشاد إلى الأصلح فكرهوا أن يكلفوه من ذلك ما يشق عليه في تلك الحالة مع استحضارهم قوله تعالى: { مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ }³ وقوله تعالى: { تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ }⁴، ولهذا قال عمر: حسبنا كتاب الله، وظهر لطائفة أخرى أن الأولى أن يكتب لما فيه من امتثال أمره وما يتضمنه من زيادة الإيضاح، ودل أمره لهما بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار، ولهذا عاش صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أياما ولم يعاود أمرهم بذلك، ولو كان واحبا لم يتركه لاختلافهم لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجز بالأمر، فإذا عزم امتثلوا⁵، وإنما خاف عمر أن يكون ما يكتبه في حالة غلبة المرض فيجد بذلك المنافقون سبيلا إلى الطعن في ذلك المكتوب، قال القرطبي: واختلافهم في ذلك كاختلافهم في قوله لهم: "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة" فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا، وتمسك آخرون بظاهر الأمر فلم يصلوا، فما عنف أحدا منهم من أجل الاجتهاد المسوغ والمقصد الصالح⁶.

وقيل بأنه أراد أن ينص على أسامي الخلفاء بعده حتى لا يقع بينهم الاختلاف، ويؤيده أنه صلى الله عليه وسلم قال في أوائل مرضه وهو عند عائشة: "ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتابا، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر"⁷.

كما روى البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ يَوْمَ الْحَمِيسِ وَمَا يَوْمَ الْحَمِيسِ ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَ دَمْعُهُ الْخُصَى قُلْتُ يَا أَبَا عَبَّاسٍ مَا يَوْمَ الْحَمِيسِ قَالَ اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعُهُ فَقَالَ اثْنُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا فَتَنَازَعُوا وَلَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيِّ تَنَازُعٍ فَقَالُوا مَا لَهُ أَهَجَرَ اسْتَفْهَمُوهُ فَقَالَ دُرُوبِي فَأَلَذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ فَأَمَرَهُمْ

¹- صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، رقم: 639

²- صحيح البخاري: كتاب العلم، باب: كتابة العلم، رقم: 111

³- سورة الأنعام، الآية: 38

⁴- سورة النحل، الآية: 89

⁵- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج 7، ص 252

⁶- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج 7، ص 252

⁷- صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق، رقم: 4399

بِثَلَاثٍ قَالَ أَخْرَجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ وَالثَّلَاثَةُ خَيْرٌ إِمَّا أَنْ سَكَتَ عَنْهَا وَإِمَّا أَنْ قَالَهَا فَنَسِيَتْهَا¹.

6/ أمره بسد أبواب المسجد إلا باب أبا بكر: روى البخاري: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبٌ رَأْسُهُ بِحِزْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ أَمِنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِنِ أَبِي فُحَافَةَ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ خُلَّةَ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةٍ أَبِي بَكْرٍ².

7/ لعنه من اتخذ قبور الأنبياء مساجد: روى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: لما نزل برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو كذلك يقول: لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يَحْذَرُ مَا صَنَعُوا³، ولهذا لما وسع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة، قال الكرماني: مفاد الحديث منع اتخاذ القبر مسجدا⁴.

1111/ آخر أقواله

1/ آخر خطبة خطبها في موسم الحج: روى مسلم: عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَسَأَلَ عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ فَقُلْتُ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ فَأَهْوَى يَدَيْهِ إِلَى رَأْسِي فَتَنَزَعَ زَبِّي الْأَعْلَى ثُمَّ نَزَعَ زَبِّي الْأَسْفَلَ ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ تَدْيِيَّ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ شَابٌّ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ أَحِي سَلْ عَمَّا شِئْتَ فَسَأَلْتُهُ وَهُوَ أَعْمَى وَحَضَرَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَقَامَ فِي نِسَاجَةٍ مُلْتَحِفًا بِهَا كُلَّمَا وَضَعَهَا عَلَى مَنْكِبِهِ رَجَعَ طَرْفَاهَا إِلَيْهِ مِنْ صِعْرِهَا وَرِدَاؤُهُ إِلَى جَنْبِهِ عَلَى الْمَشْجَبِ فَصَلَّى بِنَا فَقُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَدِيهِ فَعَقَدَ تِسْعًا فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحْجَّ ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاجٌّ فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بِشَرِّ كَثِيرٍ كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتِمَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَيْنَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَوَلَدَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْنَعُ قَالَ اغْتَسَلِي وَاسْتُرِي بِثَوْبٍ وَأَحْرِمِي فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ ... فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمْرَةٍ فَنَزَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا رَاغَتْ الشَّمْسُ أَمَرَ

¹ - صحيح البخاري: كتاب الجزية، باب: إخراج اليهود من جزيرة العرب، رقم: 2932

² - صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب: الخوخة والممر في المسجد، رقم: 447

³ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب:، رقم: 4443-4444

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج6، ص747

بِالْفُصْوَاءِ فَرِحَلَتْ لَهُ فَأَتَى بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضْعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَيْتِي سَعْدٍ فَقَتَلْتَهُ هُدَيْلٌ وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رَبَا أَضْعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كَلُّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيُنْكِتُهَا إِلَى النَّاسِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ¹ ...

المراد بالحديث حجة الوداع، يعني مكث بالمدينة بعد الهجرة، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج، وأعلمهم بذلك وأشاعه بينهم ليتأهبوا للحج معه، ويتعلموا المناسك والأحكام، ويشهدوا أقواله وأفعاله، ويوصيهم ليلبغ الشاهد الغائب وتشيع دعوة الإسلام، وتبلغ الرسالة القريب والبعيد، وفيه بيان أن السنة للحجاج أن يدخلوا مكة قبل الوقوف بعرفات ليطوفوا للقدوم وغير ذلك، وفيه دخل مكة قبل الوقوف بعرفات وطاف طواف القدوم، ثم استلم الركن معناه مسحه بيده وهو سنة في كل طواف، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} ²، فجعل المقام بينه وبين البيت، وصلى خلف المقام ركعتي الطواف، وإذا أكثر الطواف استحب أن يصلي عقب كل طواف ركعتيه، ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا، فيستحب للطائف طواف القدوم إذا فرغ من الطواف وصلاته خلف المقام أن يعود إلى الحجر الأسود فيستلمه ثم يخرج لليسعى، فلما دنا من الصفا قرأ {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} ³ أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبر وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة، ويشترط ألا يترك شيئا من المسافة بين الصفا والمروة فليصق عقبه بدرج الصفا، وإذا وصل المروة ألصق أصابع رجليه بدرجها، ويستحب أن يرقى على الصفا والمروة حتى يرى البيت إن أمكنه، والمبيت بمنى هذه الليلة وهي ليلة التاسع من ذي الحجة، ثم يمكث حتى طلوع الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة وهي موضع بجانب عرفات وليست من عرفات، لأن السنة ألا يدخلوا عرفات إلا بعد زوال الشمس وبعد صلاتي الظهر والعصر جمعا، ويغتسل للوقوف قبل الزوال، فإذا زالت الشمس سار بهم الإمام إلى مسجد إبراهيم عليه السلام، وخطب بهم خطبتين خفيفتين، ويخفف الثانية جدا فإذا فرغ منها صلى بهم الظهر والعصر جامعا بينهما، فإذا فرغ من

¹ - صحيح مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي

² - سورة البقرة، الآية: 125

³ - سورة البقرة، الآية: 158

الصلاة سار إلى الموقف، أتى بطن الوادي وهو وادي عُرنَة، فخطب الناس يوم عرفة في هذا الموضع، ومذهب الشافعي أن في الحج أربع خطب مسنونة إحداها يوم السابع من ذي الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر، والثانية هذه التي يبطن عرنة يوم عرفات، والثالثة يوم النحر، والرابعة يوم النفر الأول، وهو اليوم الثاني من أيام التشريق، وكل هذه الخطب أفراد، وبعد صلاة الظهر، إلا التي يوم عرفات فإنها خطبتان وقبل الصلاة، وقال في هذه الخطبة: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا: إبطال أفعال الجاهلية وبيوعها التي لم يتصل بها قبض، وأنه لا قصاص في قتلها، وأول دم وضعه لغلام اسمه إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان هذا الابن المقتول طفلاً صغيراً يحبو بين البيوت، فأصابه حجر في حرب كانت بين بني سعد وبني ليث بن بكر، كما أوصى فيها على مراعاة حق النساء والوصية بهن ومعاشرتهن بالمعروف، وقد جاءت أحاديث كثيرة صحيحة في الوصية بهن وبيان حقوقهن، والتحذير من التقصير في ذلك، ونهى عن ضربهن المنتشر بين العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، إلا للتأديب بشرط أن يكون ضرباً ليس بشديد ولا شاق وأوصى فيها بوجود حقوقهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف¹.

2/ آخر خطبة خطبها في المدينة وهو مريض: روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه بملحفة قد عصّب بعصاية دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإن الناس يكثرُونَ وَيَقِلُّ الأَنْصَارُ حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ الْمَلْحِ فِي الطَّعَامِ فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ شَيْئًا يَضُرُّ فِيهِ قَوْمًا وَيَنْفَعُ فِيهِ آخَرِينَ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَحَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ فَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ².

3/ آخر وصيته قبل وفاته: روى ابن ماجه: عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في مرضه الذي توفى فيه الصلاة وما ملكت أيمانكم فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه³.

4/ آخر كلمة تلفظ بها: قال السهيلي: وجدت في بعض كتب الواقدي أن أول كلمة تكلم بها صلى الله عليه وسلم وهو مسترضع عند حليلة " الله أكبر " وآخر كلمة تكلم بها كما في حديث عائشة " في الرفيق الأعلى"⁴

1111/ يوم وفاته وسنه الذي توفي فيه

1/ معاناته من سكرات الموت: روى البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه وهو يوعك ووعكاً شديداً وقُلْتُ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا قُلْتُ إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ قَالَ أَجَلٌ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى إِلَّا حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا نَحَاتُ وَرَقُّ الشَّجَرِ⁵، قال ابن حجر: والحاصل أنه أثبت أن المرض إذا اشتد ضاعف الأجر، ثم زاد عليه بعد

¹ - الإمام النووي: شرح صحيح مسلم،

² - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3356

³ - ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب: ما جاء في الجنائز، ماجاه في ذكر مرض رسول الله، رقم: 1614

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص744

⁵ - صحيح البخاري: كتاب المرضى، باب: شدة المرض، رقم: 5215

ذلك أن المضاعفة تنتهي إلى أن تحط السيئات كلها، أو المعنى: قال نعم شدة المرض ترفع الدرجات وتحط الخطيئات أيضا حتى لا يبقى منها شيء، والسرف فيه أن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشد، ومن ثم ضعف حد الحر على العبد، وقيل لأمهات المؤمنين {مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} ¹ قال ابن الجوزي: في الحديث دلالة على أن القوي يحمل ما حمل، والضعيف يرفق به إلا أنه كلما قويت المعرفة بالمبتلى هان عليه البلاء، ومنهم من ينظر إلى أجر البلاء فيهبون عليه البلاء، وأعلى من ذلك درجة من يرى أن هذا تصرف المالك في ملكه فيسلم ولا يعترض، وأرفع منه من شغلته الحجة عن طلب رفع البلاء، وأنهى المراتب من يتلذذ به لأنه عن اختياره نشأ ².

كما روى البخاري: أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تَقُولُ إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوِّفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَخَجْرِي وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرَيْقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السَّوَاكُ وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السَّوَاكَ فَقُلْتُ آخِذْهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ وَقُلْتُ أَلَيْتُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ فَلَيْتُهُ فَأَمَرَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رُكُودٌ أَوْ غَلْبَةٌ يَشْكُ عُمُرُ فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسُخُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ ³.

2/وفاته يوم الإثنين: روى الإمام أحمد عن عائشة قالت تُوِّفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَدُفِنَ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ ⁴.

3/سنه عند وفاته: روى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوِّفِّيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ ⁵، كما ورد عند البخاري: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ ثُمَّ أَمَرَ بِالْحِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ ⁶.

|||||/تجهيزه ودفنه

1/تغسيل النبي -صلى الله عليه وسلم- ودفنه: روى أبو داود: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَمَّا أَرَادُوا غَسْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا وَاللَّهِ مَا نَدْرِي أَجْرُدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ثِيَابِهِ كَمَا بُجِرْدُ مَوْتَانَا أَمْ نَعْسِلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَدَفَنُهُ فِي صَدْرِهِ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ مُكَلِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ لَا يَدْرُونَ مَنْ هُوَ أَنْ اغْسِلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَسَلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ يَصُبُّونَ الْمَاءَ فَوْقَ الْقَمِيصِ وَيُدْلِكُونَهُ بِالْقَمِيصِ

¹ - سورة الأحزاب، الآية: 30

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج10، ص117

³ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4094

⁴ - مسند أحمد: كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة، رقم: 23646

⁵ - صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: وفاة النبي، رقم: 3272

⁶ - صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، رقم: 3613

دُونَ أَيْدِيهِمْ وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَلَهُ إِلَّا نِسَاءُ¹، وروى أبو داود: عَنْ غَامِرٍ قَالَ غَسَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَالْفَضْلُ وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَهُمْ أَدْخَلُوهُ قَبْرَهُ قَالَ حَدَّثَنَا مَرْحَبٌ أَوْ أَبُو مَرْحَبٍ أَنَّهُمْ أَدْخَلُوا مَعَهُمْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فَلَمَّا فَرَغَ عَلِيٌّ قَالَ إِنَّمَا يَلِي الرَّجُلَ أَهْلُهُ².

2/ كنفه- صلى الله عليه وسلم-: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْفَ فِي ثَلَاثَةِ أَنْوَاجٍ بَيِّنَةٍ بِيضٍ سَخُولِيَّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ لَيْسَ فِيهِمْ قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ³، وسحولية أي بيض وهو جمع سحل، والثوب الأبيض النقي لا يكون إلا من قطن، والكرسف هو القطن⁴.

3/ الصلاة عليه قبل دفنه: روى الإمام أحمد عن أَبِي عَسِيْبٍ أَوْ أَبِي عَسِيْبٍ قَالَ بَهْزٌ إِنَّهُ شَهِدَ الصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْهِ قَالَ أَدْخُلُوا أَرْسَالًا أَرْسَالًا قَالَ فَكَانُوا يَدْخُلُونَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنَ الْبَابِ الْآخِرِ قَالَ فَلَمَّا وُضِعَ فِي لِحْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمُغِيرَةُ قَدْ بَقِيَ مِنْ رِجْلَيْهِ شَيْءٌ لَمْ يُصَلِّحُوهُ قَالُوا فَادْخُلْ فَأَصْلِحْهُ فَدَخَلَ وَأَدْخَلَ يَدَهُ فَمَسَّ قَدَمَيْهِ فَقَالَ أَهْيَلُوا عَلَيَّ التُّرَابَ فَأَهَالُوا عَلَيْهِ التُّرَابَ حَتَّى بَلَغَ أَنْصَافَ سَاقَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ فَكَانَ يَقُولُ أَنَا أَحَدُنْكُمْ عَهْدًا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁵.

4/ لحدده في قبره- صلى الله عليه وسلم-: روى الترمذي عن جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ الَّذِي أَحَدَ قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو طَلْحَةَ وَالَّذِي أَلْقَى الْقَطِيفَةَ تَحْتَهُ شُقْرَانُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ جَعْفَرٌ وَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ قَالَ سَمِعْتُ شُقْرَانَ يَقُولُ أَنَا وَاللَّهِ طَرَحْتُ الْقَطِيفَةَ تَحْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَبْرِ⁶.

يقال لحد يلحد كذهب يذهب وألحد يلحد إذا حفر اللحد وهو الشق تحت الجانب القبلي من القبر، والذي ألقى القطيفة قال في النهاية: هي كساء له خمل، شُقْرَانُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ اسْمُهُ صَالِحٌ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ مَمْلُوكٌ ثُمَّ عَتَقَ، قَالَ الْحَافِظُ أَظْنَهُ مَاتَ فِي خِلَافَةِ عَثْمَانَ، قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ هَذِهِ الْقَطِيفَةُ أَلْقَاهَا شُقْرَانٌ وَقَالَ كَرِهْتَ أَنْ يَلْبَسَهُمَا أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ جُعِلَ تَحْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ دُفِنَ قَطِيفَةٌ حَمْرَاءُ⁷، زَادَ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ قَالَ وَكَيْعٌ هَذَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةٌ وَهُوَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

¹ - سنن أبي داود: كتاب الجنائز، باب: في ستر الميت عند غسله، رقم: 2733

² - سنن أبي داود: كتاب الجنائز، باب: كم يدخل القبر، رقم: 2794

³ - صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب: الثياب البيض للكفن، رقم: 1158

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج3، ص162

⁵ - مسند الإمام أحمد: كتاب: أول مسند البصريين، باب: حديث أبي عسيب، رقم: 19838

⁶ - سنن الترمذي: كتاب الجنائز عن رسول الله، باب: ماجاء في الثوب الواحد، رقم: 968

⁷ - سنن النسائي: كتاب الجنائز، باب: وضع الثوب في اللحد، رقم: 1985

بسط تحته شمل قطيفة حمراء كان يلبسها قال وكانت أرض ندية وله من طريق آخر عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افرشوا لي قطيقتي في لحدي فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء .

كما روى أبو داود: عَنْ عَامِرٍ قَالَ غَسَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَالْفَضْلُ وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَهُمْ أَدْخَلُوهُ قَبْرَهُ قَالَ حَدَّثَنَا مَرْحَبٌ أَوْ أَبُو مَرْحَبٍ أَنَّهُمْ أَدْخَلُوا مَعَهُمْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فَلَمَّا فَرَّغَ عَلِيٌّ قَالَ إِنَّمَا يَلِي الرَّجُلَ أَهْلُهُ¹.

5/المكان الذي دفن فيه: روى أحمد عن عائشة قالت ما علمنا أين يُدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من آخر الليل ليلة الأربعاء قال ابن إسحاق والمساحي المورور².

قال الإمام مالك حدثني يحيى عن مالك أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تُويَّ يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء وصلى الناس عليه أفذاذاً لا يؤمُّهم أحدٌ فقال ناسٌ يُدفن عند المنبر وقال آخرون يُدفن بالبقيع فجاء أبو بكر الصديق فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي تُويَّ فيه فحفرت له فيه فلما كان عند غسله أرادوا نزع قميصه فسمعوا صوتاً يقول لا تنزعوا القميص فلم يُنزع القميص وغسل وهو عليه صلى الله عليه وسلم³.

111111/ميراثه بعد وفاته: روى البخاري: عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ خَتَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحِي جُورِيَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ قَالَ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَعَلْتُهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً⁴، وروى مسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم من طريق مسروق عن عائشة قالت: "ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم درهما ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً ولا أوصى بشيء"⁵.

وروى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِنْتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَفَدَكَ وَمَا بَقِيَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا نُورَثُ مَا تَرَكَنَا صَدَقَةٌ إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْمَالِ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُعِيرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَمَلَنَ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئًا فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ فَهَجَرَتْهُ فَلَمْ تُكَلِّمَهُ حَتَّى تُوفِّيتْ وَعَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ فَلَمَّا تُوفِّيتْ دَفَنَهَا زَوْجُهَا عَلِيٌّ لَيْلًا وَلَمْ يُؤْذِنْ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا وَكَانَ لِعَلِيِّ مِنَ النَّاسِ وَجْهٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ فَلَمَّا تُوفِّيتْ اسْتَنْكَرَ عَلِيٌّ وَجْهَ النَّاسِ فَالْتَمَسَ مُصَالِحَةَ أَبِي بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ وَلَمْ يَكُنْ

¹ - سنن أبي داود: كتاب الجنائز، باب: كم يدخل القبر، رقم: 2794

² - مسند أحمد: كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: باقي المسند السابق، رقم: 24854

³ - مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك، محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، ط1، 1425هـ/2004م، [ج2/ 232]

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4461

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج7، ص755

يُبَايِعُ تِلْكَ الْأَشْهُرَ فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ آتِنَا وَلَا يَأْتِنَا أَحَدٌ مَعَكَ كَرَاهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرَ فَقَالَ عُمَرُ لَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحَدَّكَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَمَا عَسَيْتُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي وَاللَّهِ لَا تَيْتَنَّهُمْ فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ فَتَشَهَّدَ عَلَيَّ فَقَالَ إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَكَ وَمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ وَلَمْ نَنْفَسْ عَلَيْكَ خَيْرًا سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَكِنَّكَ اسْتَبَدَدْتَ عَلَيْنَا بِالْأَمْرِ وَكُنَّا نَرَى لِقْرَابَتِنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصِيبًا حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَا أَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِقْرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قْرَابَتِي وَأَمَّا الَّذِي شَجَرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ فَلَمْ أَلْ فِيهَا عَنِ الْخَيْرِ وَمَ أَتْرُكُ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلَّا صَنَعْتُهُ فَقَالَ عَلِيُّ لِأَبِي بَكْرٍ مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةَ لِلْبَيْعَةِ فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الظُّهْرَ رَفِيَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَتَشَهَّدَ وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِيٍّ وَتَحَلَّفَهُ عَنِ الْبَيْعَةِ وَعُدْرَهُ بِالَّذِي اعْتَدَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ اسْتَعْفَرَ وَتَشَهَّدَ عَلَيَّ فَعَظَمَ حَقَّ أَبِي بَكْرٍ وَحَدَّثَ أَنَّهُ لَمْ يَجْمَلْهُ عَلَى الَّذِي صَنَعَ نَفَاسَةً عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَا إِنْكَارًا لِلَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ وَلَكِنَّا نَرَى لَنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ نَصِيبًا فَاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا فَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا فَسْرَ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا أَصَبَتْ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيبًا حِينَ رَاجَعَ الْأَمْرَ الْمَعْرُوفَ¹

أثر وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- على أهل المدينة

روى أحمد: عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ فَحُيِسَ بِقِيَّتِهِ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ وَالْعَدَا حَتَّى دُفِنَ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ وَقَالُوا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ عُرِجَ بِرُوحِهِ كَمَا عُرِجَ بِرُوحِ مُوسَى فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ عُرِجَ بِرُوحِهِ كَمَا عُرِجَ بِرُوحِ مُوسَى وَاللَّهِ لَا يَمُوتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي أَقْوَامٍ وَأَلْسِنَتَهُمْ فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ حَتَّى أَزِيدَ شِدْقَاهُ مِمَّا يُوعَدُ وَيَقُولُ فَقَامَ الْعَبَّاسُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ وَإِنَّهُ لَبَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْسُنُ كَمَا يَأْسُنُ الْبَشَرُ أَيُّ قَوْمٍ فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنَّهُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُمَيِّتَهُ إِمَاتَتَيْنِ أَيْمِثُ أَحَدِكُمْ إِمَاتَةً وَبُيُتُهُ إِمَاتَتَيْنِ وَهُوَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ أَيُّ قَوْمٍ فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنْ يَكُ كَمَا تَقُولُونَ فَلَيْسَ بِعَزِيزٍ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ الشَّرَابَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ مَا مَاتَ حَتَّى تَرَكَ السَّبِيلَ نَهْجًا وَاضِحًا فَأَحَلَّ الْحَلَالَ وَحَرَّمَ الْحَرَامَ وَنَكَحَ وَطَلَّقَ وَحَارَبَ وَسَامَ مَا كَانَ رَاعِي غَنَمٍ يَتَّبِعُ بِهَا صَاحِبُهَا رُءُوسَ الْجِبَالِ يَخْبِطُ عَلَيْهَا الْعُضَاةَ بِمِخْبِطِهِ وَيَمْدُرُ حَوْضَهَا بِيَدِهِ بِأَنْصَبٍ وَلَا أَدَابٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِيكُمْ أَيُّ قَوْمٍ فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ قَالَ وَجَعَلَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تَبْكِي فَقِيلَ لَهَا يَا أُمَّ أَيْمَنَ تَبْكِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ إِيَّيَّيْ وَاللَّهِ مَا أَبْكِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى خَبْرِ السَّمَاءِ انْقِطَعَ قَالَ حَمَادٌ خَنَقَتْ الْعَبْرَةُ أُيُوبَ حِينَ بَلَغَ هَا هُنَا².

¹ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، 4240، 4241

² - سنن النسائي: كتاب الجنائز، باب: في البكاء على الميت، رقم: 1820

كما روى الترمذي: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ وَلَمَّا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَيْدِي وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا.¹

قال التوربشتي: يريد أنهم لم يجدوا قلوبهم على ما كانت عليه من الصفاء والألفة لانقطاع مادة الوحي وفقدان ما كان يمدهم من الرسول صلى الله عليه وسلم من التأييد والتعليم ولم يرد أنهم لم يجدوها على ما كانت عليه من التصديق وقال في اللغات: لم يرد عدم التصديق الإيماني بل هو كناية عن عدم وجدان النورانية والصفاء الذي كان حاصلًا من مشاهدته وحضوره صلى الله عليه وسلم لتفاوت حال الحضور والغيبة.²

ب/ نتائج وأثار وفاة النبي-صلى الله عليه وسلم- على المسلمين

كان موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم "قاصمة الظهر" ومصيبة العمر: فأما علي فاستخفى في بيته مع فاطمة، وأما عثمان فسكت، وأما عمر فأهجر روى أحمد: عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ تُوِّفِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ فَحِسَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَلَيْلَتَهُ وَالْعَدَّ حَتَّى دُفِنَ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ وَقَالُوا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ عُرِجَ بِرُوحِهِ كَمَا عُرِجَ بِرُوحِ مُوسَى فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ عُرِجَ بِرُوحِهِ كَمَا عُرِجَ بِرُوحِ مُوسَى وَاللَّهِ لَا يَمُوتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي أَقْوَامٍ وَأَلْسِنَتَهُمْ فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ حَتَّى أَزِيدَ شِدْقَاهُ مِمَّا يُوعَدُ وَيَقُولُ³، وتعلق بآل العباس وعلي بامر أنفسهما في مرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم، روى البخاري: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوِّفِيَ فِيهِ... فَأَخَذَ بِيَدِهِ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ أَنْتَ وَاللَّهِ بَعْدَ ثَلَاثِ عَشْرَةِ عَامٍ وَاللَّهِ لَأَرَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَوْفَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هَذَا إِنِّي لَأَعْرِفُ وَجُوهَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ الْمَوْتِ أَذْهَبَ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَنَسْأَلُهُ فِيْمَنْ هَذَا الْأَمْرُ إِنْ كَانَ فِيْنَا عِلْمُنَا ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فِي عَيْرِنَا عِلْمُنَاهُ فَأَوْصِنَا بِنَا⁴، وتعلق بآل العباس وعلي بميراثهما فيما تركه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من فدك وبني النضير وخيبر، واضطرب أمر الأنصار يطلبون الأمر لأنفسهم، أو الشركة فيه مع المهاجرين وانقطعت قلوب الجيش الذي كان قد برز مع أسامة بن زيد بالجرف فتدارك الله الإسلام والأنام - وانجابت الغمة انجياب الغمام، ونفذ وعد الله باستئثار رسول الله، وإقامة دينه على التمام، وإن كان قد أصاب ما أصاب من الرزية الإسلام - بأبي بكر الصديق رضي الله عنه¹،

¹ - سنن الترمذي: كتاب: المناقب عن رسول الله، باب: في فضل النبي، رقم: 3551

² - تحفة الأhoodي (10/ 62)

³ - سنن النسائي: كتاب: الجنائز، باب: في البكاء على الميت، رقم: 1820

⁴ - صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: مرض النبي - ص - ووفاته، رقم: 4447

¹ - القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (543هـ): العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم،

تح: محب الدين الخطيب - ومحمود مهدي الاستانبولي، دار الجيل بيروت - لبنان، ط2، 1407هـ/1987م [ص54 - 60]

وقال أبو محمد بن حزم في "الملل والنحل": انقسمت العرب بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم على أربعة أقسام: طائفة بقيت على ما كانت عليه في حياته وهم الجمهور، وطائفة بقيت على الإسلام أيضا إلا أنهم قالوا نقيم الشرائع إلا الزكاة وهم كثير لكنهم قليل بالنسبة إلى الطائفة الأولى، والثالثة أعلنت بالكفر والردة كأصحاب طليحة وسجاح وهم قليل بالنسبة لمن قبلهم إلا أنه كان في كل قبيلة من يقاوم من ارتد، وطائفة توقفت فلم تطع أحدا من الطوائف الثلاثة وتربصوا لمن تكون الغلبة فأخرج أبو بكر إليهم البعوث وكان فيروز ومن معه غلبوا على بلاد الأسود وقتلوه وقتل مسيلمة باليمامة وعاد طليحة إلى الإسلام وكذا سجاح ورجع غالب من كان ارتد إلى الإسلام فلم يجل الحول إلا والجميع قد راجعوا دين الإسلام والله الحمد¹.

1/ موقف آل البيت عليهم الرضوان وانشغالهم بتجهيزه ودفنه

1/ موقف العباس: لما رأى العباس الموت في وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- عرف أنه آخر أجله، ولما كانت مكانة علي بن أبي طالب أكبر من مكانة العباس -رضي الله عنهما-، طلب منه أن يسأل النبي * -صلى الله عليه وسلم- * عن الأمر بعده، روى البخاري: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُؤَيِّ فِيهِ فَقَالَ النَّاسُ يَا أَبَا حَسَنِ كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِتًا فَأَخَذَ بِيَدِهِ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ أَنْتَ وَاللَّهِ بَعْدَ ثَلَاثِ عَبْدِ الْعَصَا وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَوْفَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هَذَا إِنِّي لَأَعْرِفُ وَجُوهَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ الْمَوْتِ أَذْهَبَ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلْتَسْأَلُهُ فِيمَنْ هَذَا الْأَمْرُ إِنْ كَانَ فِينَا عِلْمُنَا ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِنَا عَلِمْنَا فَاَوْصَى بِنَا فَقَالَ عَلِيٌّ إِنَّا وَاللَّهِ لَعِنَ سَأَلْنَاهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْعَنَاهَا لَا يُعْطِينَاهَا النَّاسُ بَعْدَهُ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَسْأَلُهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ².

قال ابن حجر: برأ بمعنى أفاق من المرض، وقول العباس لعلي رضي الله عنهما: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا: هو كناية عن يصير تابعا لغيره، والمعنى أنه يموت بعد ثلاث وتصير أنت مأمورا عليك، وهذا من قوة فراسة العباس رضي الله عنه، وفي مرسل الشعبي "فقال علي: وهل يطمع في هذا الأمر غيرنا، وزاد ابن سعد في آخره "فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم قال العباس لعلي: ابسط يدك أبايعك تبايعك الناس فلم يفعل"³.

وروى أحمد: عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ تُوِيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ فَحُسِبَ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَلَيْلَتُهُ وَالْعَدَّ حَتَّى دُفِنَ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ وَقَالُوا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ عُرِجَ بِرُوحِهِ كَمَا عُرِجَ بِرُوحِ مُوسَى فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ عُرِجَ بِرُوحِهِ كَمَا عُرِجَ بِرُوحِ مُوسَى وَاللَّهِ لَا يَمُوتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي أَقْوَامٍ وَأَلْسِنَتَهُمْ فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ حَتَّى أَزِيدَ شِدْقَاهُ مِمَّا يُوعَدُ وَيَقُولُ فَقَامَ الْعَبَّاسُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

¹ - فتح الباري - ابن حجر [ج 12/ 276]

² - صحيح البخاري : كتاب المغازي، باب مرض النبي -ص- ووفاته، رقم: 4447

³ - فتح الباري، ج 7، ص 750

قَدْ مَاتَ وَإِنَّهُ لَبَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْسُنُ كَمَا يَأْسُنُ الْبَشَرُ أَيُّ قَوْمٍ فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنَّهُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُمَيِّتَهُ إِمَاتَتَيْنِ أُمَيِّتُ أَحَدِكُمْ إِمَاتَةٌ وَهُوَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ أَيُّ قَوْمٍ فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنْ يَكُ كَمَا تَقُولُونَ فَلَيْسَ بِعَزِيزٍ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ التُّرَابَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ مَا مَاتَ حَتَّى تَرَكَ السَّبِيلَ نَهَجًا وَاضِحًا فَأَحْلَ الْحَالِ وَحَرَّمَ الْحَرَامَ وَنَكَحَ وَطَلَّقَ وَحَارَبَ وَسَالَمَ مَا كَانَ رَاعِي غَنَمٍ يَتَّبِعُ بِهَا صَاحِبُهَا رُءُوسَ الْجِبَالِ يَخْبِطُ عَلَيْهَا الْعِضَاءَ بِمِخْبَطِهِ وَيَمْدُرُ حَوْضَهَا بِيَدِهِ بِأَنْصَبٍ وَلَا أَدَابَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِيكُمْ أَيُّ قَوْمٍ فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ قَالَ وَجَعَلْتُ أُمَّ أَيْمَنَ تَبْكِي فَقِيلَ لَهَا يَا أُمَّ أَيْمَنَ تَبْكِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ إِيَّيَّيْ وَاللَّهِ مَا أَبْكِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أَكُونُ أَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَكِيَّيَّ أَبْكِي عَلَى خَبْرِ السَّمَاءِ انْقِطَعُ قَالَ حَمَّادٌ خَنَقَتْ الْعَبْرَةُ أُيُوبَ حِينَ بَلَغَ هَا هُنَا¹.

ب/موقف علي -رضه-: تلخص موقف علي -رضي الله عنه- من الوفاة في كونه بقي منشغلا كسائر أهل البيت بأمر الجنائز واستقبال التعازي، ومواساة زوجته فاطمة رضي الله عنها في وفاة أبيها، ولم يعلم بأمر السقيفة، روى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِنْتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرْسِلَتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَفَدَكَ وَمَا بَقِيَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تُورَثُ مَا تَرَكَنا صَدَقَةٌ إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْمَالِ وَإِيَّيَّيْ وَاللَّهِ لَا أُعِيرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَلْعَمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئًا فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ فَهَجَرَتْهُ فَلَمَّ تَكَلَّمْتُ حَتَّى تُؤْفِيَتْ وَعَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ فَلَمَّا تُؤْفِيَتْ دَفَنَهَا رُؤُوسَ الْجِبَالِ لَيْلًا وَلَمْ يُؤْذَنَ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا وَكَانَ لِعَلِيِّ مِنَ النَّاسِ وَجْهٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ فَلَمَّا تُؤْفِيَتْ اسْتَنَكَرَ عَلِيُّ وَجُوهَ النَّاسِ فَالْتَمَسَ مُصَاحِبَةً أَبِي بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ وَلَمْ يَكُنْ يُبَايِعُ تِلْكَ الْأَشْهُرَ فَأُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ ائْتِنَا وَلَا يَأْتِنَا أَحَدٌ مَعَكَ كَرَاهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرَ فَقَالَ عُمَرُ لَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحَدَكَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَمَا عَسَيْتُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي وَاللَّهِ لَا يَتَيْنَهُمْ فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ فَتَشَهَّدَ عَلِيُّ فَقَالَ إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَكَ وَمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ وَلَمْ نَنْفَسْ عَلَيْكَ خَيْرًا سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَكِنَّكَ اسْتَبَدَدْتَ عَلَيْنَا بِالْأَمْرِ وَكُنَّا نَرَى لِقْرَابَتِنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصِيبًا حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَا أَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِقْرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قْرَابَتِي وَأَمَّا الَّذِي شَجَرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ فَلَمْ أَلْ فِيهَا عَنْ الْخَيْرِ وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلَّا صَنَعْتُهُ فَقَالَ عَلِيُّ لِأَبِي بَكْرٍ مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةَ لِلْبَيْعَةِ فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الظُّهْرَ رَفِيَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَتَشَهَّدَ وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِيِّ وَتَحَلَّفَهُ عَنِ الْبَيْعَةِ وَعُدْرَهُ بِالَّذِي اعْتَدَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ اسْتَعْفَرَ وَتَشَهَّدَ عَلِيُّ فَعَظَّمَ حَقَّ أَبِي بَكْرٍ وَحَدَّثَ أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى الَّذِي صَنَعَ نَفَاسَةً عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَا انْتِكَارًا لِلَّذِي

¹ - سنن النسائي: كتاب الجنائز، باب: في البكاء على الميت، رقم: 1820

فَصَلَّاهُ اللَّهُ بِهِ وَلَكِنَّا نَرَى لَنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ نَصِيبًا فَاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا فَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا فُسْرًا بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا أَصَبَتْ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيبًا حِينَ رَاجَعَ الْأَمْرَ الْمَعْرُوفَ¹.

قال ابن حجر: كان الناس يحترمون علي -رضي الله عنه- إكراما لفاطمة، فلما ماتت واستمر على عدم الحضور عند أبي بكر قصر الناس عن ذلك الاحترام لإرادة دخوله فيما دخل فيه الناس، وكأنهم كانوا يعذرونه في التخلف عن أبي بكر في مدة حياة فاطمة لشغله بها وتمريضها وتسليتها عما هي فيه من الحزن على أبيها صلى الله عليه وسلم لأنها لما غضبت من رد أبي بكر عليها فيما سألته من الميراث رأى علي أن يوافقها في الانقطاع عنه، فلما توفيت التمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبايع تلك الأشهر في حياة فاطمة، قال المازري: العذر لعلي في تخلفه مع ما اعتذر هو به أنه يكفي في بيعة الإمام أن يقع من أهل الحل والعقد ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته والانقياد له بأن لا يخالفه ولا يشق العصا عليه، وهذا كان حال علي لم يقع منه إلا التأخر عن الحضور عند أبي بكر، وبعد مبايعته قال له وكنا نرى لقربتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبا في هذا الأمر²، وعند جلوسه على المنبر تشهد علي فعظم حق أبي بكر، زاد مسلم في روايته من طريق معمر عن الزهري "وذكر فضيلته وسابقيته، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه"، قال القرطبي: من تأمل ما دار بين أبي بكر وعلي من المعاتبه ومن الاعتذار وما تضمن ذلك من الإنصاف عرف أن بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأن قلوبهم كانت متفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشري قد يغلب أحيانا لكن الديانة ترد ذلك، وقد تمسك الرافضة بتأخر علي عن بيعة أبي بكر إلى أن ماتت فاطمة، وفي هذا الحديث ما يدفع في حجتهم، وقيل بأنه بايعه بيعة ثانية مؤكدة للأولى لإزالة ما كان وقع بسبب الميراث، ويحمل قول الزهري لم يبايعه علي في تلك الأيام على إرادة الملازمة له والحضور عنده وما أشبه ذلك³.

ج/ موقف من وافق علي -رضي الله عنه- وآل البيت [الزبير ومن معه]

ولم يكن آل البيت وحدهم منشغلين بالوفاة، بل هناك من كبار الصحابة من كان مثل آل البيت يشغله ما يشغلهم ولم يحضروا إجتماع السقيفة، لكنهم بايعوا الخليفة بعد ذلك، روى البخاري: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ أُفَرِّقُ رِجَالًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَبَيْنَمَا أَنَا فِي مَنْزِلِهِ بِمِثِّي وَهُوَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّهَا إِذْ رَجَعَ إِلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَالَ لَوْ رَأَيْتَ رِجَالًا أَتَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ لَكَ فِي فُلَانٍ يَقُولُ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ لَقَدْ بَايَعْتُ فُلَانًا فَوَاللَّهِ مَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا فَلْتَةً فَتَمَّتْ فَعَضِبَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ إِيَّيَّيْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَقَائِمُ الْعَشِيَّةِ فِي النَّاسِ فَمُحَدِّثُهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْضِبُوهُمْ أُمُورَهُمْ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رِعَاعَ النَّاسِ وَعَوَّاءَهُمْ... ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلَانًا فَلَا يَعْتَرِزُ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ أَلَا وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ

¹ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم: 4240، 4241

² - فتح الباري، ج7، ص565-566

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص564-566

كَذَلِكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ وَفَى شَرَّهَا وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقَطَّعُ الْأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ تَعَزُّهُ أَنْ يُفْتَلَا وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ خَيْرِنَا حِينَ تَوَقَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْأَنْصَارَ خَالِفُونَا وَاجْتَمَعُوا بِأَسْرِهِمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَخَالَفَ عَنَّا عَلِيُّ وَالزُّبَيْرُ وَمَنْ مَعَهُمَا وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ يَا أَبَا بَكْرٍ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَاَنْطَلَقْنَا نُرِيدُهُمْ¹... قال ابن حجر: وفي رواية مالك ومعمّر "وأن عليا والزبير ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم"²، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر.

د/موقف عمر بن الخطاب -رضه- ومن وافقه: كان موقف عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- ممتيزا عن غيره هو ومن وافقه، إذ انكر الوفاة من أصلها، روى أحمد: عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ تُوِّفِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْإِنْتِنِ فَحُبِسَ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَلَيْلَتُهُ وَالْعَدَّةَ حَتَّى دُفِنَ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ وَقَالُوا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ عُرِجَ بِرُوحِهِ كَمَا عُرِجَ بِرُوحِ مُوسَى فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ عُرِجَ بِرُوحِهِ كَمَا عُرِجَ بِرُوحِ مُوسَى وَاللَّهِ لَا يَمُوتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَفْطَعَ أَيْدِي أَقْوَامٍ وَأَلْسِنَتَهُمْ فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ حَتَّى أَزِيدَ شِدْقَاهُ...³، وروى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ قَالَ إِسْمَاعِيلُ يَعْني بِالْعَالِيَةِ فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ وَقَالَ عُمَرُ وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ وَلَيْسَتْهُنَّ اللَّهُ فَلَيْقُطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ قَالَ بِأبي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُدْبِئُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ أَيُّهَا الْخَالِفُ عَلَى رِسَالِكَ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ فَحَمِدَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ وَأَتْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ وَقَالَ {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)}⁴ وَقَالَ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)}⁵ قَالَ فَتَشَجَّ النَّاسُ يَبْكُونَ⁶.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَالِمٍ عَنْ الزُّبَيْدِيِّ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ أَخْبَرَنِي الْقَاسِمُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ... فَمَا كَانَتْ مِنْ خُطْبَتَيْهَا مِنْ خُطْبَةٍ إِلَّا نَفَعَ اللَّهُ بِهَا لَقَدْ خَوَّفَ عُمَرُ النَّاسَ وَإِنَّ فِيهِمْ لِنِفَاقًا فَرَدَّهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ ثُمَّ لَقَدْ بَصَّرَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ الْهُدَى وَعَرَفَهُمُ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ وَخَرَجُوا بِهِ يَتَلَوْنَ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى الشَّاكِرِينَ⁷.

¹ - صحيح البخاري: كتاب الحدود، باب: رجم الحبلى من الزنا إذا احصنت، رقم: 6328

² - فتح الباري، ج 12، ص 156

³ - سنن النسائي: كتاب الجنائز، باب: في البكاء على الميت، رقم: 1820

⁴ - سورة الزمر، الآية: 30

⁵ - سورة آل عمران، الآية: 144

⁶ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: قول النبي لو كنت متخذًا خليلا، رقم: 3394

⁷ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: قول النبي لو كنت متخذًا خليلا، رقم: 3394

قال ابن حجر: فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ بعدم موته صلى الله عليه وسلم حينئذ، وقد ذكر عمر مستنده في ذلك فبناه على ظنه الذي أداه إليه اجتهاده فقال: (إنه لم يموت حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وأرجلهم)، وفيه بيان رجحان علم أبي بكر على عمر فمن دونه، وكذلك رجحانه عليهم لثباته في مثل ذلك الأمر العظيم، وورد أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس فأبي فتشهد أبو بكر فمال الناس إليه وتركوا عمر، وقد اعتذر عمر عن ذلك¹.

ه/موقف أبو بكر الصديق رضي الله عنه

كان موقف الصديق رضي الله عنه حاسما في أمر الوفاة الذي التبس على بعض الصحابة في حجم عمر بن الخطاب ومن وافقه، روى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ قَالَ إِسْمَاعِيلُ يَعْني بِالْعَالِيَةِ فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ وَقَالَ عُمَرُ وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالِ وَأَرْجُلَهُمْ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ قَالَ بِأبي أَنْتَ وَأُمِّي طَبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُدِيْعُكَ اللَّهُ الْمُؤْتَتِينَ أَبَدًا ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ فَحَمَدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَتَى عَلَيْهِ وَقَالَ أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ وَقَالَ {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)}² وَقَالَ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)}³ قَالَ فَتَشَجَّ النَّاسُ يَبْكُونَ قَالَ وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيْفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَقَالُوا مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَنَهُ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَيُّ قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيْتُ أَنْ لَا يُبْلَغَهُ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ فَقَالَ فِي كَلَامِهِ نَحْنُ الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ فَقَالَ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَ لَنَا مِنْكُمْ أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لَا وَلَكِنَّا الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا وَأَعَزُّهُمْ أَحْسَابًا فَبَايَعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ فَقَالَ عُمَرُ بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَحَيْرُنَا وَأَحْبَبُنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ فَقَالَ قَائِلٌ فَتَلَّيْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فَقَالَ عُمَرُ فَتَلَّهُ اللَّهُ⁴

قال ابن حجر: قال أبو عبيد البكري: السنح: منازل بني الحارث من الخزرج بالعوالي، وبينه وبين المسجد النبوي ميل، قوله: (ما كان يقع في نفسي إلا ذاك) يعني عدم موته صلى الله عليه وسلم حينئذ، أما وقوع الحلف من عمر على ما ذكره فبناه على ظنه الذي أداه إليه اجتهاده، وروي أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس فأبي، فتشهد أبو بكر فمال الناس إليه وتركوا

¹ - فتح الباري، ج 7، ص 36

² - سورة الزمر، الآية: 30

³ - سورة آل عمران، الآية: 144

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: قول النبي لو كنت متخذًا خليلاً، رقم: 3394

عمر، قوله: (فنشج الناس) النشج ما يعرض في حلق الباكي من الغصة، وقيل: هو صوت معه ترجيع كما يردد الصبي بكاءه في صدره¹.

كما روى ابن ماجه: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ عِنْدَ امْرَأَتِهِ ابْنَةَ خَارِجَةَ بِالْعَوَالِي فَجَعَلُوا يَقُولُونَ لَمْ يَمُتِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ بَعْضُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ عِنْدَ الْوَحْيِ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَبَلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُمَيِّتَكَ مَرَّتَيْنِ قَدْ وَاللَّهِ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعُمَرُ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ يَقُولُ وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَمُوتُ حَتَّى يَفْطَعَ أَيْدِيَّ أَنْاسٍ مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ كَثِيرٍ وَأَرْجُلَهُمْ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ وَمَنْ كَانَ يَعْْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) }² قَالَ عُمَرُ فَلِكَأَيِّ لَمْ أَقْرَأَهَا إِلَّا يَوْمَئِذٍ³.

و/موقف الأنصار واجتماعهم في السقيفة

أما الأنصار فهم أهل الدار وأصحاب الأرض، فلم يدخلوا فيما دخل فيه آل البيت، ولا هم شكوا في الوفاة، بقدر ما اهتموا بالخلافة بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك بادروا بحسم أمرهم واجتمعوا في السقيفة، روى البخاري: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ... جَلَسَ عُمَرُ عَلَى الْمِنْبَرِ فَلَمَّا سَكَتَ الْمُؤَدِّثُونَ قَامَ فَأَتَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ... إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلَانًا فَلَا يَعْتَرَنَ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعُهُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَهُ وَتَمَّتْ أَلَا وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ وَفَى شَرِّهَا وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُفْطَعُ الْأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايِعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ نَعْرَةً أَنْ يُفْتَلًا وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ خَبْرِنَا حِينَ تَوَفَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْأَنْصَارَ خَالَفُونَا وَاجْتَمَعُوا بِأَسْرِهِمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَخَالَفَ عَنَّا عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ وَمَنْ مَعَهُمَا وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ يَا أَبَا بَكْرٍ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَهُؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَاَنْطَلَقْنَا نُرِيدُهُمْ فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ لَقِينَا مِنْهُمْ رَجُلَانِ صَالِحَانِ فَذَكَرَا مَا تَمَّالًا عَلَيْهِ الْقَوْمُ فَقَالَا أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ فَقُلْنَا نُرِيدُ إِخْوَانِنَا هَهُؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَا لَا عَلَيْنَا أَنْ لَا تَقْرُبُوهُمْ اقضُوا أَمْرَكُمْ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لِنَأْتِيَنَّهُمْ فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَاهُمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَإِذَا رَجُلٌ مُزْمَلٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالُوا هَذَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقُلْتُ مَا لَهُ قَالُوا يُوعَكُ فَلَمَّا جَلَسْنَا قَلِيلًا تَشْهَدَ حَاطِبِيهِمْ فَأَتَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَكَتِيبُهُ الْإِسْلَامِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ رَهْطٌ وَقَدْ دَفَّتْ دَافَةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ فَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَرِلُونَا مِنْ أَصْلَانَا وَأَنْ يَخْضُنُونَا مِنَ الْأَمْرِ فَلَمَّا سَكَتَ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ مَقَالَةَ أَعْجَبْتَنِي أُرِيدُ أَنْ أَقْدَمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ وَكُنْتُ أُدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الْحَدِّ فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ قَالَ

¹ - فتح الباري، ج 7، ص 36

² - سورة آل عمران، الآية: 144

³ - سنن ابن ماجه: كتاب: ما جاء في الجنائز، باب: ذكر وفاته ودفنه، رقم: 1616

أَبُو بَكْرٍ عَلَى رِسْلِكَ فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ فَتَكَلَّمْتُ أَبُو بَكْرٍ فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ مِنِّي وَأَوْفَرَ وَاللَّهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبْتَنِي فِي تَرْوِيرِي إِلَّا قَالَ فِي بَدِيهِتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا حَتَّى سَكَتَ فَقَالَ مَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ وَلَنْ يُعْرِفَ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ فُرَيْشٍ هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا وَقَدْ رَضِيْتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ فَبَايَعُوا أَيُّهُمَا شِئْتُمْ فَأَخَذَ بِيَدِي وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا فَلَمْ أَكْرَهُ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا كَانَ وَاللَّهِ أَنْ أَقْدَمَ فَتَضْرَبَ عُنُقِي لَا يُفْرِّقُنِي ذَلِكَ مِنْ إِيَّامٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسْأَلَ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ الْمَوْتِ شَيْئًا لَا أَجِدُهُ الْآنَ فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَا جُذَيْلِيهَا الْمُحَكَّكُ وَعُدَيْقِيهَا الْمُرَجَّبُ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ يَا مَعْشَرَ فُرَيْشٍ فَكَثُرَ اللَّعْطُ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ حَتَّى فُرِقْتُ مِنَ الْإِخْتِلَافِ فَقُلْتُ ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْتُهُ وَبَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ ثُمَّ بَايَعْتَهُ الْأَنْصَارُ وَنَزَوْنَا عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فَقُلْتُ قَتَلَ اللَّهُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ قَالَ عُمَرُ وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا فِيهَا حَضْرَتًا مِنْ أَمْرِ أَقْوَى مِنْ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ حَشِينًا إِنْ فَارَقْنَا الْقَوْمَ وَلَمْ تَكُنْ بَيْعَةً أَنْ يُبَايَعُوا رَجُلًا مِنْهُمْ بَعْدَنَا فِيمَا بَايَعْنَاهُمْ عَلَى مَا لَا نَرْضَى وَإِنَّمَا نُحَالِفُهُمْ فَيَكُونُ فَسَادًا فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُتَابَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ تَعَرَّهٌ أَنْ يُقْتَلَ¹.

قال ابن حجر: كان ذلك سنة 23هـ، ووقع في رواية ابن إسحاق أن من قال ذلك كان أكثر من واحد ولفظه "أن رجلين من الأنصار ذكرا بيعة أبي بكر"، وقوله: (لقد بايعت فلانا) هو طلحة بن عبيد الله أخرجه البزار من طريق أبي معشر عن زيد بن أسلم عن أبيه وعن عمير مولى عُقْرَةَ قَالَا "قدم على أبي بكر مال - فذكر قصة طويلة في قسم الفيء ثم قال- حتى إذا كان من آخر السنة التي حج فيها عمر قال بعض الناس: لو قد مات أمير المؤمنين أقمنا فلانا، يعنون طلحة بن عبيد الله"، ونقل ابن بطال عن المهلب أن الذين عنوا أنهم يبايعونه رجلا من الأنصار ولم يذكر مستنده في ذلك، وقوله (فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة) أي فجأة، وإنما أطلقوا على بيعة أبي بكر ذلك بالنسبة لمن لم يحضرها في الحال الأول، وقوله (أن يغصوبهم أمورهم) والمراد أنهم يشبتون على الأمر بغير عهد ولا مشاورة، وقد وقع ذلك بعد على وفق ما حذر عمر رضي الله عنه، وقوله (لا أدري لعلها بين يدي أجلي) أي بقرب موتي، وهو من الأمور التي جرت على لسان عمر فوقع كما قال، وفي مرسل سعيد بن المسيب في الموطأ "أن عمر لما صدر من الحج دعا الله أن يقبضه إليه غير مضيع ولا مفرط" وقال في آخر القصة "فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل عمر"، ثم قال: وليس فيكم مثل أبي بكر قول القائل: "لو مات عمر لبايعت فلانا"، تصريح باشتراط التشاور إذا مات الخليفة، بل إنما يؤخذ ذلك من جهة السنة كما أن الرجم ليس فيما يتلى من القرآن وهو مأخوذ من طريق السنة، شبه عمر الحياة النبوية بالشهر الحرام والفلتة بما وقع من أهل الردة ووقى الله شر ذلك ببيعة أبي بكر لما وقع منه من النهوض في قتالهم وإخماد شوكتهم، فوقى الله المسلمين شر ذلك فلم ينشأ عن بيعة أبي بكر شر بل أطاعه الناس كلهم من حضر البيعة ومن غاب عنها، قال أبو عبيدة: عاجلوا بيعة أبي بكر خيفة انتشار الأمر وأن يتعلق به من لا يستحقه فيقع الشر، وقوله (وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر) قال الخطابي: يريد أن السابق منكم الذي لا يلحق في الفضل لا يصل إلى منزلة أبي بكر، فلا يطمع أحد أن يقع له مثل ما وقع لأبي بكر من

¹ - صحيح البخاري: كتاب الحدود، باب: رجم الحبلى من الزنا إذا احصنت، رقم: 6328

المبايعة له أولاً في الملاء اليسير ثم اجتماع الناس عليه وعدم اختلافهم عليه لما تحققوا من استحقاقه فلم يحتاجوا في أمره إلى نظر ولا إلى مشاورة أخرى، وليس غيره في ذلك مثله، وفيه إشارة إلى التحذير من المسارعة إلى مثل ذلك حيث لا يكون هناك مثل أبي بكر لما اجتمع فيه من الصفات المحمودة من قيامه في أمر الله، ولين جانبه للمسلمين، وحسن خلقه، ومعرفته بالسياسة، وورعه التام ممن لا يوجد فيه مثل صفاته لا يؤمن من مبايعته عن غير مشورة الاختلاف الذي ينشأ عنه الشر، ووقع في رواية أبي معشر "ومن أين لنا مثل أبي بكر تمد أعناقنا إليه"، وقوله (تغرة أن يقتلا) أي حذرا من القتل، وهو مصدر من أغرته تغريرا أو تغرة، والمعنى أن من فعل ذلك فقد غرر بنفسه وبصاحبه وعرضهما للقتل، وقوله (خالفونا) أي لم يجتمعوا معنا في منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزاد في رواية جويرية عن مالك "فبينما نحن في منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا برجل ينادي من وراء الجدار: اخرج إلي يا ابن الخطاب، فقلت إليك عني فإني مشغول، قال: اخرج إلي فإنه قد حدث أمر، إن الأنصار اجتمعوا فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمرا يكون بينكم فيه حرب، فقلت لأبي بكر: انطلق"، وزاد جويرية "فلقينا أبو عبيدة بن الجراح فأخذ أبو بكر بيده يمشي بيني وبينه"، وكان سعد موعوكا، فلما اجتمعوا إليه في سقيفة بني ساعدة - وهو منسوبة إليه لأنه كان كبير بني ساعدة خرج إليهم من منزله وهو بتلك الحالة فطرقهم أبو بكر وعمر في تلك الحالة، و كان خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس يدعى خطيب الأنصار، وقوله (يختزلونا) أي يقتطعوننا عن الأمر وينفردوا به دوننا، فلما سكت خطيب الأنصار، قال عمر أردت أن أتكلم فتكلم أبو بكر، وفي رواية مالك "ما ترك من كلمة أعجبتني في رويتي إلا قالها في بديهته، فكان هو أحلم مني وأوقر، ومما قال في رواية مالك "ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش (هم أوسط العرب) وأخرج أحمد أخرج من طريق حميد بن عبد الرحمن عن أبي بكر الصديق أنه قال يومئذ: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش"، وقال أبو بكر: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير"، وزاد سفيان في روايته (وإلا أعدنا الحرب بيننا وبينكم خدعة، فقلت: إنه لا يصلح سيفان في غمد واحد)¹، ووقع عند ابن سعد بسند صحيح من مرسل القاسم بن محمد قال "...فقام الحباب بن المنذر وكان بدريا فقال: منا أمير ومنكم أمير، فإننا والله ما نفس عليكم هذا الأمر ولكننا نخاف أن يليها أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم، فقال عمر: إذا كان ذلك فمت إن استطعت"، وفي رواية جويرية "حتى أشفقنا الاختلاف" ووقع في حديث ابن مسعود عند أحمد والنسائي من طريق عاصم عن زر بن حبيش عنه أن عمر قال: يا معشر الأنصار، أستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يؤم بالناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالوا نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر، فبايعه عمر وبايعه المهاجرون، أنه حضر معهم جمع من المهاجرين، فكأنهم تلاحقوا بهم لما بلغهم أنهم توجهوا إلى الأنصار، فلما بايع عمر أبا بكر وبايعه من حضر من المهاجرين على ذلك بايعه الأنصار حين قامت الحجة عليهم، في رواية ابن إسحاق ثم أخذت بيده وبدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده، ثم ضربت على يده فتابع الناس" والرجل المذكور بشير بن سعد والد النعمان، وفيه أنه لا يكون للمسلمين أكثر من إمام².

¹ - فتح الباري، ج 12، ص 156

² - فتح الباري، ج 12، ص 156

وذكر ابن إسحاق في آخر السيرة أن أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل انحازوا إلى أبي بكر ومن معه وهؤلاء من الأوس وذلك أن الخزرج والأوس كانوا فريقين، وكان بينهم في الجاهلية من الحروب ما هو مشهور، فزال ذلك بالإسلام وبقي من ذلك شيء في النفوس، فكأنهم اجتمعوا أولاً، فلما رأى أسيد ومن معه من الأوس أبا بكر ومن معه افترقوا من الخزرج إيثارا لتأثير المهاجرين عليهم دون الخزرج¹.

ز/موقف أهل الردة

أخطر موقف وأشدّه واجهه المسلمون بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هو الردة التي حصلت في كثير من قبائل العرب وقراهم، حيث ارتد بنو تميم بن مُرّ بن أَدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر وفيهم بطون كثيرة جدا، ارتدوا مع سجاح، وبني أسد بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر وكانوا عددا كثيرا ارتدوا مع طليحة بن خويلد²، ولم يكونوا على رأي واحد، فمنهم مانعي الزكاة كما روى البخاري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا تُؤَيِّبُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ"، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا قَالَ عُمَرُ: «فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»³.

قال أبو محمد بن حزم في "الملل والنحل": انقسمت العرب بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم على أربعة أقسام: طائفة بقيت على ما كانت عليه في حياته وهم الجمهور، وطائفة بقيت على الإسلام أيضا إلا أنهم قالوا نقيم الشرائع إلا الزكاة وهم كثير لكنهم قليل بالنسبة إلى الطائفة الأولى، والثالثة أعلنت بالكفر والردة كأصحاب طليحة وسجاح وهم قليل بالنسبة لمن قبلهم إلا أنه كان في كل قبيلة من يقاوم من ارتد، وطائفة توقفت فلم تطع أحدا من الطوائف الثلاثة وتربصوا لمن تكون الغلبة فأخرج أبو بكر إليهم البعوث وكان فيروز ومن معه غلبوا على بلاد الأسود وقتلوه وقتل مسيلمة باليمامة وعاد طليحة إلى الإسلام وكذا سجاح ورجع غالب من كان ارتد إلى الإسلام فلم يحل الحول إلا والجميع قد راجعوا دين الإسلام والله الحمد⁴.

ونقل ابن حجر بناء على ما فعل أبو بكر بمانعي الزكاة فتوى جواز قتل من امتنع من التزام الأحكام الواجبة والعمل بها قال المهلب: من امتنع من قبول الفرائض نظر فإن أقر بوجوب الزكاة مثلا أخذت منه قهرا ولا يقتل، فإن أضاف إلى امتناعه نصب القتال

¹-فتح الباري - ابن حجر [30/ 7]

²-فتح الباري - ابن حجر [ج 6/ 544]

³- صحيح البخاري: كتاب: استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل من أبي قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة، رقم: 6924+6925، (ج 9/ 15)

⁴- فتح الباري - ابن حجر [ج 12/ 276]

قوتل إلى أن يرجع، قال مالك في الموطأ: الأمر عندنا فيمن منع فريضة من فرائض الله تعالى فلم يستطع المسلمون أخذها منه كان حقا عليهم جهاده، قال ابن بطال: مراده إذا أقر بوجوبها لا خلاف في ذلك، وقد أطلق عليهم اسم المرتدين، كان أهل الردة ثلاثة أصناف: صنف عادوا إلى عبادة الأوثان وصنف تبعوا مسيلمة والأسود العنسي وكان كل منهما ادعى النبوة قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم فصدق مسيلمة أهل اليمامة وجماعة غيرهم وصدق الأسود أهل صنعاء وجماعة غيرهم، فقتل الأسود قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بقليل وبقي بعض من آمن به فقاتلهم عمال النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة أبي بكر، وأما مسيلمة فجهز إليه أبو بكر الجيش وعليهم خالد بن الوليد فقتلوه، وصنف ثالث استمروا على الإسلام لكنهم جحدوا الزكاة وتأولوا بأنها خاصة بزمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهم الذين ناظر عمر أبا بكر في قتالهم¹.

قائمة مصادر ومراجع مقياس فقه السيرة النبوية بمكتبة جامعة الأمير عبد القادر

المكتبة والرقم	اسم المؤلف	عنوان الكتاب	ملاحظة
52/8/218	محمد توفيق رمضان	بناء المجتمع في عصر النبوة	
101/0/219	محمد أمين محمود	لمحات حول قضايا السيرة	
105/0/219	أكرم ضياء العمري	السيرة النبوية الصحيحة	
125/0/219	شوقي أبو خليل	أطلس السيرة النبوية	
14/0/219	محمد سعيد رمضان البوطي	فقه السيرة النبوية	
146/0/219	ابن جرير الطبري	السيرة النبوية	
147/0/219	مصطفى الصاوي	معارف من السيرة	
153/0/219	إبراهيم العلي	صحيح السيرة النبوية	
156/0/219	أحمد فريد	وقفات مع السيرة النبوية	
159/0/219	ابن خلدون	السير النبوية	
160/0/219	محمد إبراهيم شقرة	السيرة النبوية العطرة	
166/0/219	صالح أحمد الشامي	السيرة النبوية	

¹ - فتح الباري، ج12، ص288

السيرة النبوية	أحمد بن زيني دحلان	174/0/219
منهاج المؤلفين في السيرة النبوية	سعد المرصفي	177/0/219
هدى السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي	حنان اللحام	181/0/219
صفوة السيرة النبوية	ابن كثير	183/0/219
السيرة النبوية وقائع ودروس	أحمد عوض	184/0/219
السيرة النبوية دروس وعبر	محمد الصلابي	196/0/219
السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية	مهدي رزق الله	197/0/219
السيرة النبوية	ابن كثير	2/0/219
مهذب السيرة النبوية	إبراهيم الاياري	20/0/219
صحيح السيرة النبوية لابن كثير	محمد ناصر الدين الألباني	205/0/219
دراسات في السيرة النبوية	حسين مؤنس	29/0/219
السيرة النبوية	أبو الحسن الندوي	3/0/219
دراسات في السيرة النبوية	محمد سرور	30/0/219
السيرة النبوية الطباقات الكبرى	ابن سعد	35/0/219
الروض الأنف	أبو القاسم السهيلي	5/0/219
دراسات في السيرة النبوية	علي محمد جمار	59/0/219
جوامع السيرة النبوية	ابن حزم	63/0/219
السيرة النبوية	نعماني المكي	72/0/219
موكب السيرة النبوية	محمد المختار ولد أباه	76/0/219
السيرة النبوية	سعيد حوى	78/0/219
فقه السيرة النبوية من زاد المعاد	خالد عبد الرحمان العك	81/0/219
السيرة النبوية في القرآن الكريم	عبد الصبور مرزوق	82/0/219
المستشرقون والسيرة النبوية	عماد الدين خليل	87/0/219
فقه السيرة النبوية	عبد الحلیم الجندي	89/0/219
السيرة النبوية	ابن هشام	9/0/219
الرسالة الكاملة في السيرة	ابن النفيس	92/0/219
تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد النبي -ص-	أحمد فؤاد سيد	137/0/219

	شعار من السيرة النبوية في العد المكّي	راجح عبد الحميد الكردي	4/3/219
	في موكب السيرة النبوية	محمد المختار ولد أباه	6/7/219
	أضواء على السيرة النبوية	عبد الحميد جودت السحار	42/290
	مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي	محمد حميد الله	4/2/956